الرحيل فى المجهول

تأليف

سلاف السوار

الرحيل في المجهول

تأليف

سلام فواز

1997

الإهداء

إلى كل أم أغاضتها كلمة جلفة
من الفاشيين الطغاة ... ~ .

وإلى من كانوا والشعب مصيرًا واحدًا ... ~ .

وللحريصين على الأسرار
في لحظات الموت ... ~ .

الشكر لكل الأعزاء الذين ساهموا في إنجاز

كتابي هذا ... .

سلام فواز

المحتويات

نبذة عن البداية 7

حوار مع النفس 19

قرأة سريعة في معالم المنطقة 22

ليلة كان العبور بالالآف 26

مقرنا يشد الرحال ايضا 37

قمرية قرية تقاوم وتثأر لانتزاع مجدها ... 44

وينشأ قلق لم يكن في البال 51

في لجة الاحداث المرأة طاقة هائلة..... 60

الخلاصة المريرة 64

بدء الصراع مع الحياة الجديدة..... 66

قافلة تذكرنا بقطار الموت..... 77

مخيم ماردين منذ يومه الاول..... 86

اسرار الرجال تكشفها النساء..... 96

يوم جاءوا كالغربان..... 102

هه‌ڤالنامەی کتێب

مخيم گفري 106
وجود وتأثير الاحزاب السياسية 110
بين الحلم والحقيقة 118
الحملة الدينية 121
تظاهرة توجت بالاضراب العام 124
اطفال مخيم مارديين 129
نلتمس الزمن ان يتريث فنحن استحداث العباقرة... 134
بيئة موبؤة 137
نوروز عام ١٩٨٩ 143
التسمم الخطير 147
لقطات 152
النشاط الرياضي 160
من هنا يجري التسلل والخلاص 163
ستزدهي الكثبان بالورد ثانية 168

هدى النعيمي كتبت

نبذة عن البداية

قبيل أن تضع الحرب العراقية الإيرانية أو زارها ، لاحت في الآفاق مؤشرات توقفها ، إذ أخذت تصريحات المسؤلين في البلدين تتسم بالهدوء الحذر وتبدي تفهماً غير معهود لعواقبها ومخاطر استمرارها أكثر ، وبهذا فلقد كانت الأيام عشية انطلاع الأحداث بمثابة الهدوء أمام العاصفة وكل طرف فجأةً يدعي أنه أهل للسلام ورافضاً للتزمت ، في الأجواء الناشئة تواترت الأخبار والمعلومات من مصادر عديدة عن عزم النظام على شن هجومه الكاسح المرتقب والذي لوح به كثيراً ضد كردستان كونها معقلاً للثورة المسلحة إلى جانب حقده الدفين على شعبها لعدم رضوخه لمشيئة قادسيته الكارثية . وقد انعكست هذه المتبدلات السريعة في المواقف على عموم أوضاع كردستان أكثر من أي منطقة أخرى ، حيث ارتبط هاجس الجماهير وقوى المعارضة الوطنية بضرورة التحسب لنتائج هذه التطورات ومعالجة الثغرات على وجه السرعة . أيام فقط حتى توقفت الحرب في ١٩٨٨/٨/٢٠ حيث الإعلان الفعلي مباشرة للأعداد لما سمي بالأنفال سيئة الصيت فأخذ الفزع يدب في النفوس يوما أثر آخر ، ومع تصاعد أخبار المصالحة الشاملة راجت في غضون ذلك الإشاعات المكثفة والمدروسة وأحياناً المتناقضة تماماً فطرحت السلطة الدكتاتورية تصريحات عن حوار يجري مع القوى الوطنية في التفاهم ولكن الحقيقة الماثلة إنها تجري تصعيدا ميدانياً لقواها العسكرية بكل أصنافها وتتحدث عن قرب تصفية

محمد الشامي كتب

الحساب مع كردستان شعباً ومعارضة مسلحة ، وعقدت سلسلة من الندوات في العديد من المدن بهذا المعنى . من هنا فإن أخبار الاستعدادات العسكرية أخذت تتسرب بشتى الوسائل عن هجوم القوات الهائلة المكلفة بهذه المهمة وتزويدها بالصلاحيات الواسعة وبمختلف الأسلحة بما فيها الفتاكة وأسلحة الدمار البشري بدءاً من المدفعية الثقيلة والدبابات والراجمات والطيران والأسلحة الكيمياوية المذهلة وغيرها . لقد كانت التقارير تتحدث عن إجمالي حجم القوة المكلفة بالمهمة بأكثر من ١٦٠ ألف .

هكذا أندلع الخوف وكأن إيقاف الحرب هو إعلان لحرب ثانية أكثر جذوة وخطراً فكردستان مسرحها هذه المرة وبات معلوما أن الأيام القادمة تحمل شيئا من السوء وستشهد تطورات معينة ينبغي الاستعداد لها . وفي مقدمة ما يعنينا كبيشمه ركه من إجراءات هو التخفيف في المقرات واتخاذ مواقع أخرى أكثر صيانة وأهلية للتحرك والمناورة ، وإخفاء الأسلحة والأمور السرية من الوثائق إلى جانب نقل الأرزاق إلى أماكن محددة للضرورات القادمة . وكانت توجيهات الأحزاب تقضي بضرورة التحول التدريجي الى مفارز صغيرة وإيجاد مواقع لمقرات احتياطية إذا تطلب الموقف ذلك ودون تأخير وقد وصلت هذه التوجيهات في تموز ١٩٨٨ لكنها لم تنفذ في غالبها وان كانت وجهة التطبيق قائمة لكن التنفيذ نفسه كفعل ملموس لم يتحقق ، في وقت كانت للنظام حساباته الدقيقة . وبدأت قطاعاته العسكرية تتحرك في الليل والنهار ، وأجهزته نشطت في مجال الإشاعات، وعلى صعيد ردود الفعل أخذت كل الهيئات للقوى السياسية والمجالس الجماهيرية تتناول الجديد في الأوضاع السياسية .... تناقش ذلك على قدم وساق فهذه قضية حياة أو موت ... وفي هذا الظرف العصيب واجهت القوى السياسية صعوبة إقناع الجماهير بإمكانية الاستقرار في الأرض التي يسكنون فيها وعدم جدوى الاعتقاد القائل في أن تتمخض نهاية الحرب عن انفراج ديمقراطي .

إن حديثاً كهذا لا يجد إذنا صاغيه ويتقاطع مع مايجري على الأرض من

حركة والاندفاع الآتي من الأعماق . هناك مئات العوائل تنظر للأحداث من زوايا خاصة وحتى مصادرها للمعلومات خاصة فتظافرت كل الوسائل الخاصة لتأخذ بهذه العوائل إلى المواقع البعيدة بحثاً عن حصانه من الموت . ومنها من شدت الرحال قبل أشهر لتتخذ من بعض المواقع مستقرات لها في قرى الشريط الحدودي مع تركيا . فللجماهير رغم بساطتها إحساس مرهف وتجربة مريرة مع هذا النظام المتعسف ولا ترجوا منه خيرا .

في الأسبوع الأول من توقف الحرب اتسعت ظاهرة الهجرة وأصحاب البضائع يتسابقون لتصرفيها والفلاحون يرقبون إنتاجهم الصيفي عسى أن يكون من نصيبهم هذه السنة ... كانت الأجواء مشحونة وبداية تنذر بالجديد المرعب وواقع القي بظله الثقيل وهيمن على مزاج الجماهير أربك كل مشاريعها المستقبلية وبعثر ما كان في أذهانهم قبل أيام ولم يعد إقبالهم على شراء الأرزاق مثلاً كما كان عليه قبل أشهر تقديرا منهم للاحتمالات الواردة ولكي لا تكون الأثقال عبئاً عميقاً على أصحابها . في هذه الفترة تزعزعت ثقة الجماهير بأحزابها اعتقاداً من الأولى أن الأحزاب كانت على علم مسبق بعزم السلطة على اكتساح القرى وإبادة أهلها لكنها لم تبلغ الجماهير في الوقت المناسب . مما حداها أن تتصرف بوحي من تقديراتها وأثرت بذلك على العديد من البيشمه ركه المرتبطين بعوائلهم . ولم يعد للندوة السياسية الوقع المؤثر وأدبيات الأحزاب بكل صفحاتها لا تحول قيد شعرة من أن ينصرف كل لزيارة أهله والاطمئنان عليهم ونقلهم الى مواقع أخرى . وخطط الطوارئ المعلنة منذ سنوات وئدت عندما كانت الحاجة اليها ، والزمن يعلن العجز عن إعطاء فرص الخلاص لأي كان ، وخبر التحشدات يتسلل والمبالغات جزء هام من أساليب العدو وتحضيراته ... نعم كانت الدعاية تسبق التحشد وتشد من أزره ولم تعد الحواجز منيعه من أن تنال مبتغاها الدنئ .

إن التقدم على مقرات لجنة زاخو للحزب الديمقراطي الكردستاني من قبل هجوم قوات السلطة الدكتاتورية وإحتلالها عام ١٩٨٧ وبعدها على لجنة

دهوك وزاخو مرة ثانية وعلى لجنة الشيخان والفوج الأول في مراني ... كلها أدلة عملية عن ضرورة أن يحسب لكل طرف حساباته التفصيلية وتحديد الإجراءات القابلة للتطبيق وهذه الأحداث رسخت مفهوماً لم يعد نظرياً فقط إنما أرساه في التطبيق هو أن الدفاع عن المقرات وممتلكات الأحزاب وجماهيرها هو الإجراء الأول وعندما يصعب الموقف فخطة الانسحاب جاهزة بكل تشعباتها ، فأولاً وأخيراً ينبغي المراوحة والتكتيك لتفويت الفرصة على العدو من أن ينفذ كامل خطته والعمل بكل الوسائل على إيقاع الخسائر في صفوفه والمناورة معه بهدف تفادى الخسائر في صفوف البيشمه ركه . وأظن أن خطط الطوارئ والتي شهدت سلسلة من التغيرات التطويرية في جوانبها الهامة وأدخلت عليها فقرات مستحدثه لكن ؟ هذه الخطط قد أغفلت شيئاً هاماً تعرضت له الأحزاب والجماهير بأسرها وهي وجهة الانسحاب وترتيباته حين لا تكون الريح وفق ما تبتغيه السفن . أي امتداد الانسحاب حتى نقطة تخطي المخاطر والنجاة من خطط العدو . لم تكن هذه ثغرة هامشية بل جوهرية وفي جسد خطة الطوارئ ، إنه غفله في تكامل الخطة ، أين خطة الأحزاب منفردة أخذةبنظر الاعتبار تعارضها أو بعض منها مع خطط الآخرين ؟ أين انسجام الخطط في ما بينها كي تكون ضمانة بيد الجماهير لتقوية مواقفها .

ومبعث قناعاتها المنطقية والمعقولة ؟ إن الجماهير لا تفهم ولا تثق إن خططاً حيكت بعناية على الورق وجاهزة للتطبيق في وقت لا تراها مجسدة ميدانياً في الحياة . إن هذه الخطط كما يقول الكثيرين قد أعدت بعناية فائقة لكنها على الورق وماتت في صناديق مقفلة بأحكام . وإلا أين أبوابها التعبوية ؟ ولماذا تزامنت مع الركود في العمل العسكري وأين نشاط المجموعات وعمل المدن لإرباك العدو وشل تحركاته ؟ إن هذا درس بليغ ناشئ أفرزته الحياة وهو نوعي وجدير بالدراسة المستفيضة .

في هذه الأجواء إبتدأت الأحداث وتفجرت وبلغت وتيرتها حداً شاملاً ، وكانت الساعات الأولى من ليلة ١٩٨٨/٨/٢٤ تحمل المزيد من الفوضى

والإرباك حين أخذت تحشدات النظام تشاهد بالعين المجردة في زاخو ودهوك وسرسنك وغيرها ولم تعد مقنعه تلك التفسيرات الواهية على أن هذا يجري بهدف تبديل الفرسان (الجحوش) بالجيش لعدم الثقة بهم كما كان يشاع . نعم حتى قبل الساعة الثامنة مساءاً كانت هذه الليلة هادئة كباقي الأيام السابقة وضجة المذياع قطعت كل الأحاديث الأخرى وهي تذيع الأخبار المسائية بعناوين كبيرة وتقارير مركزة كلها على المفاوضات العراقية الإيرانية وحتى هذا الوقت لازال تفكير الكثيرين متأثراً بديماكوكية الفاشية الزاعمة بنواياها في العدول عن نهجها الشوفيني السابق .(١)

وقبل الإنتهاء من التفاصيل وتقارير المراسلين ، ينقطع هذا السياق من الحديث ، إذ يرد خبر للتو كما يقولون مفاده :- أن مفارز صغيرة من بيشمه ركه الحزب الديمقراطي الكردستان (حدك) يشكلون مجموعات خاصة تقوم بتبليغ كل القرى بيتاً بيتاً بضرورة الإحتراز بدءً من الآن وأن السلطة الدكتاتورية تروم فعلاً الأعداد لهجومها في أية لحظة وقد تستخدم الطيران والأسلحة الكيمياوية ولكن مع هذا فلا ضرورة لترك القرى والتطير ، ومن يترك بيته ويغادر القرية يتحمل نتائج تصرفاته . لقد استهان البعض بالخبر جملة وتفاصيل وبعضهم قال عنه أنه افتعال لتغطية عمل عسكري وشيك في ناحية كاني ماصي ... أي أن البيشمه ركه يريدون أن لا يحصل الفراغ والخدر في استعداد الجماهير والهاربين بشكل خاص وهناك تفسيرات أخرى غير واقعية كثيرة . كان مجرد كلمة كيمياوي تترك تأثيرا نفسيا مريرا في الوضع الجماهيري فهي تخشى هذا السلاح الفتاك الذي يثير فيهم الفزع والحزن العميق والإحباط .

إن تبليغ المواطنين بكلمات : غداً إحتمال التقدم وارد وعلى مستوى الطيران والمدفعية المدججة بغازات الموت هذا بمثابة صافرة الرحيل الفوري والإستنفار العام وتداعي المعنويات وحصول المأساة ، هكذا تعكر مزاج الناس بغضون دقائق وإصابتهم الصدمة والذهول كمن يلقي بالثقاب على مقربة من الهشيم ... وبرهة من الزمن المضطرب حتى أجبرت كل الإذاعات

هدى الحامدي قتيل

على السكوت وهيمنت الأخبار المحلية وتلاشت عملياً كل التحليلات والتفسيرات البسيطة التي كانت سائدة أواخر النهار من هذا وذاك . وبهذا أخذت وجهة الحديث تتحدد بنقطة واحدة فقط هي مستلزمات تدابير الخلاص الآن . والذي قال عن وجود عمل عسكري في كاني ماصى وتبليغ الجماهير غطاءً له لاندري من أين جاء بهذا الرواية الزائفة ولماذا تخلى عنها بظرف دقائق كأنه لم ينطق بها ؟ بدأت اللائمة على البيشمهركة وحساباتهم القاصرة ، الآن عرفتهم بل اعترفتهم ان التقدم آت لا ريب ؟ وماذا بوسعنا أن نفعل ونحن في هذا الليل الدامس ؟ لماذا هذه المكابرة عن الإمكانيات ؟ وهل تعتقدون شعاركم بالصمود واقعي ؟ وغيرها من تساؤلات الناس الوجهية المفعمة بالمعاني .

أنساب كل الى بيته فالاستسلام لمضي الوقت يحمل العواقب الوخيمة والمعالجة واحدة فقط وترك القرية أسوة بالمئات ممن تركوها منذ بدأ التبليغ . كان بعض الكبار لازالوا في مجلس الفاتحة يناقشون بجدية هذه التطورات من زوايا تثير المخاوف ... وتمضي دقائق حافلة بالحركة المركبة وأصوات مناداة بالسرعة وبحثاً عن الحاجات الأكثر ضرورة والرحيل الفوري هو الإجراء العام . وبظرف ساعة فقط حتى أصبحت قرية كاني بلاف (٢) مهجورة تماماً بعد أن ابتدأت ليلتها هادئة عامرة بناسها والحركة ، وتحولت الى السكون التام الموحش ، تجوب البيوت والطرقات فتراها في تعتيم وحزناً تأمين . ولا تحظى بمن ينوي المكوث حتى الصباح . أخذت القوافل ترحل بإتجاه الحدود التركية ولازالت الآراء الرسمية للمعارضة تدعو للصمود والمقاومة والتنسيق وتخفيف الأثقال حيثما أمكن وسرعة انتشار الوحدات العسكرية وتنشيط عمل المجموعات البارتزانية ... الخ وهنا بلا شك تجلت حالة التخلف عن الأحداث والإلمام بأبعادها الحقيقية الخطيرة ... والمعالجة ليست في وقتها ولا تتناسب وحجم الخطر الداهم .

مكثنا نحن الاثنين ضيوفاً في القرية وثالثنا المرأة الخرافية المريضة خاوا . كانت رغم اشتداد مرضها هذه الليلة لكنها مكابرة لا تستقر لحظة

في حركة بهلوانية لا تناسب عمرها تطمئننا وتستفذنا للحديث وتنويرها بالجديد وتريد تطبيع الحديث معنا كي لا نغادر بيتها في هذه الليلة المشؤومة حيث ظهر لاحقاً أن لديها وجهه أخرى وتخشى على ممتلكاتها من تجاوزات الكثيرين ممن يتربصون بالضعفاء لم تفلح في استدراجنا للحديث رغم تماديها في الحرشة معنا فطرقت اسلوباً اخراً. سألتنا لتعالج حالة الانزواء التي سيطرت علينا قالت وحركت عينيها كأنها صاحبة الباع الطويل في المغازلة : أين أنتم من هذه الأحداث ؟ أراكم لا تحركون ساكناً كأنكم قوة منيعة لمواجهة تقدم جرار كما يتحدثون عنه تناولها صاحبي بلغتهم الأثورية كي يأخذ حريته في ردعها ولا يعطي لزمة ادانه لاحقه ... تحدث وعلى وجهه علامة الإثارة من نقدها اللاذع . قال : إننا على علم بهذه التطورات قبل الآن وزيارتنا هنا ليست للنزهة إنما تزامناً معها وحذرها ضمنياً من نبرة الحديث عن التمادي اكثر بالأسئلة الجارحة من هذا القبيل وأنه لايريد الإدلاء بأكثر كأنه يكتم سراً خطيراً واكمل كل ماتستحق الظروف من تحوطات دفاعية . صرح بهذه المداخلة وهي من الفها الى يائها محض افتراء ثم انطرح بقوة على فراشه المبعثر لكي لا يعطي مجالاً للمداخلات المضادة التي عبرت عنها بنظرات الإستغراب والمتابعة المركزة . هكذا عبرت هذه الليلة الحارة جداً وكانت حارة بأحداثها وأنهكتنا بمرورها والأفكار التي جاءت بها ... متى تأتي ساعات الصباح عسى أن يكون كباقي الأيام وكل ماقيل مجرد إشاعات وتلاعب بالمشاعر ومنذ ساعات الصباح الأولى عرفنا أن بقاءنا في هذه المواقع هي المجازفة بعينها وهجرة الجماهير أخذت إبعاداً واسعة ولم تعد في الليل فقط كل يبحث عن الخلاص بأي طريقة . المهم جمع الشمل للعائلة والتخلص من غدر الأيام القادمة الكثيفة .

صباح ١٩٨٨/٨/٢٤ وبعد تناول قليل من الفطور تجاولنا في أطراف القرية فوجدنا رفيقين في مكان آخر يعيشان على أعصابهما كما قالا ، وجدناهم فأصبحنا أربعة وحينها شعرنا أننا قوة كبيرة ولا نخشى أحداً

وتعمدنا أن لا نترك موقعاً في القرية إلا ونزوره إثباتاً للوجود ووابعاداً للتطيير الذي ساور الكثيرين وبجو من الرهبة والكبرياء قال أحدنا : الآن نحن مفرزة ولتكن صغيرة ومجد الحزب يصنعه أحيانا نفر من رفاقه حين يعتصم متمرداً على الظروف الغادرة أنه حديث مفيد في موقف كهذا ففي الصعاب يجدر تعزيز المعنويات ورفع الهمم وتصعيد اليقظة الثورية .

جائتنا معلومات من قيادة الحزب الديمقراطي الكردستاني في الفرع الأول أوضحت جوانب أخرى لتطور الأحداث وأكدت إحتمال التقدم في أي ساعة وهو تقدم واسع والقصف المدفعي كان على إمتداد شارع زاخو وباطوفا وبيكوفا يسمع بكثافة والأكثر من كل ذلك تصاعد حملة الهجوم من مختلف المناطق حيث أخذت الأخبار تؤكد حقيقة واحدة وواسعة الإنتشار على أن التقدم يجري بمناطق أخرى وهو باتجاهنا مع تقدم الزمن ولم يعد هناك من يتجرا بكلمة واحدة عكس هذا ومن يستهين بالعدو وأدوات بطشه يضع نفسه في الموقع المعادي للجماهير وتنبري له خزرات الازدراء والنقمة والعتاب . وربايا النظام ومواقعه العسكرية الأخرى هائجة كالمسعورة تطلق النيران بكثافة . المهاجرون يفتقرون أو بعضاً منهم لوسائل النقل المتطورة وواسطتهم في أفضل الأحوال هي البغال والخيول والحمير وما عداها فليس بحوزتهم السيارات ولا عربات النقل خاصة وبعضهم استثمروا التركترات في الطرق السالكة لنقل ممتلكاتهم والعوائل ولكن هذا اجراء لايشمل الا القلة ومحفوف بمخاطر مدا همة الطيران في النهار خاصة الى جانب العطل الوارد في أي لحظة وشحت البنزين منذ فترة طويلة فمعلوم أن المنطقة تحت الحصار الشامل ولذا فتعويلهم الأكثر على البغال ويطوعون حاجاتهم بقوة ... يضغطونها لتكون منقولة وغالبهم يجيدون مثل هذه المهنة التي تحتل قدراً كبيراً من الأهمية ومكانة ربما ترتقي قريباً من مهمة القتال الباسل .

إن النساء والرجال على حد سواء في الملمات كل يوظف خبرته وحمولة البغل هي كل مستلزمات حياتهم القادمة وسطح هذه الحمولة يجرون ترتيباً

له ليكون ملائماً كالمهد الجماعي للأطفال ويطوقونهم والأشياء الأخرى بحبال الشعر السميكة بما يبعد احتمالات الحوادث . وهكذا تجد جموع الأطفال يلبدون أحدهم باتجاه الآخر خاضعين لمشيئة البغل ونزعاته الحيوانية وكثيراً ما يصعب على الأم مواكبة هذه الحركة عديمة الضوابط خاصة وهي غير طليقة اليدين ولا متحررة الظهر بل مثقلة بالحاجات التي تقدر هي وحدها قيمها الإستعمالية في البيت . حين تنظرها لا تنطق بكلمة مسموعة لكنها تدمدم مع نفسها ... ليس من علاج غير هذا . انها ملابسي الخاصة وقطعة القماش الفاخرة الرجالية وكمية من ورقة الشاي العراقي الأصيل وأشياء أخرى وتستطرد كأنها تريد الخوض بالتفاصيل ... لاندري ماذا سيحل بنا وقلبي عند ولدي الذي إنقطع عنا منذ البارحة مع عمه وقطيع الغنم وتجهش بالبكاء ... أنا خائفة من شيء وربما أشياء وبينما هي بهذا الحال شاردة الذهن بؤرة لتأتيها صيحات مؤلمة من زوجها الذي يتقدم المسير ترويضاً لحركة البغل العنوم . انخطف لونها وركضت لتجد البغل اللعين يترك الطريق السالك ويدخل بين أشجار كثيفة وأغصانها المؤذية مست وجوه الأطفال قطعة واحدة وأحياناً تبدو تصرفات البغال بمقدار ما تحمل من أثقال تكتسح بعضها البعض وتعم الفوضى ويحصل الرمي المعادي في الليل الدامس ويهرب البغل وحمولته لا زالوا يعتلون ظهره وبهذه الطريقة يفترق الأطفال عن أهلهم ليكون مصيرهم مجهول وربما رهينة بأيدي ازلام النظام أن لم يكونوا قد فارقوا الحياة وهم في شوطها الأول المدهش . بعد ظهر ١٩٨٨/٨/٢٤ نعود قاصدين مقرنا من أجازة لم تكن موفقة بل كانت نشازاً وعرضتنا للتصنيف الواسع والمناكدة وكمن ينام ورجليه في الشمس ... نسير بسرعة غير اعتيادية نخترق القوافل المثقلة وعويل الأطفال وكأننا نريد اللحاق بأحد يسبقنا لكن الحقيقة أن دافعنا الوحيد للسرعة هو شعورنا الداخلي بذنب اقترفناه ... كان علينا التوجه قبل الآن للمقر وتقدير الموقف اسوةً بالجماهير مررنا على عجل في سهل بليزان (دشت قرية بليزان) (٣) نطلق النظر للأمام فنرى مرجات من البشر

تشد الرحال ومنظر كهذا يحفزنا لمضاعفة السرعة انشداداً بهم ونختلط بأكثر من قافلة نسعف هذا ونضحك مع الآخر ونعين من تناثرت حاجاتهم على الأرض ونتحدث عن وحدة المصير مقاتلين وجماهير . كانت وجهة الناس واحدة باستثناء قلة كانوا اسوأ نشازاً من اجازتنا التي انتهت الى القطيعة المخجلة هؤلاء القلة بعكس الآلاف وبالضد من مصيرهم يقصدون التسليم وأن حاولوا الإيهام أن هناك طريقاً آخر لخلاصهم الى تركيا وعرفنا الكثيرين منهم بالأسماء وتذكرنا أحاديثهم عن الثورة كم كانت ضعيفة . وتزامناً مع تعقد الأوضاع . ولكن لامجال للحساب الآن وتكفيهم نظرة ساخرة خزرناهم بها في مرورنا .

وصلنا عين الماء على جانب من بساتين بليزان فوجدناها (متخمة بالبشر) وتحولت الى محطة اضطرارية للاستراحة القصيرة تودع قافلة بعد أن ترويهم بالماء العذب البارد لتستقبل أخرى يعانون الظمأ واحتقان الوجه وجفاف الشفاه ... وبعضهم يستثمرون ظرف دقيقتين أو أدنى للايغال بالتدخين والآخرين يؤدون المزيد من المهمات في آن واحد ... أم استقرت على الأرض ومدت رجليها في الساقية المحاذية للعين واثقالها هي الأخرى ارتكزت على صخرة خلفها كأنها خلقت لهذا الغرض وطفلها انسابت شفتيه خلسة بحثاً عن غذائه المفضل ليمده بالحياة والقوة وهو في حضن أمه ودفئها الميز وعينيه تحلقان في وجهها ويداعب بيده الأخرى المتحررة ثديها الثاني لينال منه ولو مضغة واحدة . كانت عيناه قد استعادت شيئا من نشاطها ونقائها وهي ترنو بقوة لاتغادر وجه أمه وهي في موقف مؤثر اثقالها من جانب وطفلها من الجانب الآخر يمسك بنتوءات الصدر بقوة بيديه وفمه وهي تتأرجح بحركة عجيبة بينهما ككفتي الميزان ولكنها تنحني رغماً عنها نحو صغيرها المتألق بلحظات النشوة والصفاء وعشق الحياة . نجتاز بليزان لنكون في بازي نفسها نجوب أزقتها في الخامسة عصراً وأشجار الجوز متميزة عن كل الأنواع الأخرى القصيرة الظل زاهيةوهي الوحيدة لا زالت على اتصال مع الشمس التي غادرت الأشجار الأخرى وعوائلهم . إن

الشمس تعرف مكانة الأشجار وتعانق الجبارة منها فقط . كل يودع الآخر وموعدهم القادم عند الفجر . هناك على جانب من الشلال ذو الحركة الساحرة في قرية بازي (٤) نجد حشداً من أهلها يتوسطهم مختارهم البدين يستمدون منه الكلمة والحكمة وعوائلهم هي الاخرى مغيبة الادوار وخائبة لانهم قادتها . مترددين في وجهة الإنسحاب تراودهم افكار الإندحار ليكونوا بعيداً عن معاناة شعبهم الذي ترعرعوا في أحضانه وواضح انهم ليسوا اهلين للصعاب ولا من قاطعي الفيافي ولكنهم على كل حال وهذا بحد ذاته نعمة لا يشكلون نسبة ذات شأن تذكر قياساً بالجموع الغفيرة التي حسمت مواقفها وحددت وجهة لجوئها رفضاً للإستسلام والمخاطرة وضياع فرصة الخلاص . كانت بازي معطوبة بالاندحارية والتخاذل . واصلنا المسير قبيل الغروب مروراً بقرية كانى مازن القريبة منها مسافة ربع ساعة على الأقدام لكنها بعيدة عنها بعد السماء عن الأرض في المواقف ... كاني مازن كانت محصنة بمناعة فعالة وأهلها الطيبون متمسكين بالوحدة وعند المحن يتجاوزون خلافاتهم الداخلية وتجمعهم كلمة الصمود مقترنة بالكبرياء والتضحيات . عبرناها وحل الظلام لنكون في قرية أخرى . ميسكه بروارى فوجدناها خالية (تصفر) بحثنا عن المعارف فوجدناهم قلة ممن أصابتهم لبعض الوقت أفكار التردد ، فالتردد حالة عصيبة في صراع الأفكار كحد السيف بين الصمود المشرف والإنكفاء صوب الهاوية فمن لا يتماسك بمزيد من القوة تجرفة الأمواج ، تخور قواه في البداية وينساق نحو التدهور المعنوي حتى يجد نفسه في نهاية المطاف في مواقع أخرى تأبى النفس عن ذكرها .

هذه هي ليلتنا الأخيرة والخاتمة لإجازتنا الحافلة بالمفاجئات قضيناها في ميسكة وهي تبعد عن مقرنا في كلي مسبا (٥) نصف ساعة تقريباً فضلنا المبيت على مقربة من الأحداث والأخبار الجديدة ونومنا هذه الليلة قلق جداً . فالقرية دون أهلها لا تطاق . جاء الصباح ثقيلاً ويبعث بشعور غريب ففي السادسة والنصف تقريباً قصف الطيران قرى برجين في الجبل

الأبيض في الدوسكي وهيسي وخرابياً ويكماله في برواري باله . بالأسلحة الكيمياوية فاستشهد مواطن والكثير من الجرحى . كانت هذه هدية صباح ١٩٨٨/٨/٢٥ للجماهير وإشارة بدء الأعمال العسكرية فعلاً . فالكيمياوي هو أبشع صورة لانتهاك حقوق الإنسان وقمة الممارسات الإجرامية ضد شعب أمن . وأصبحت الأمور لا تتحمل اللامبالاة وفرص الحركة مرهونة بساعات فقط وخطوطها محددة فلا حركة إلا باتجاه الحدود المحاذية لتركية . فما مبرر بقاء المقاتلين في منطقة خالية من الجماهير ؟ هنا يغدو شعار الصمود اختياراً عصيباً وغوغائياً زائفاً مما اضطر كافة القوى المسلحة إلى إعادة النظر بمواقفها على وجه السرعة وتجري تعديلات على خططها وتبحث عن تكتيكات معينة لمعالجة أوضاعها والحق أن الجماهير تصرفت بحكمة وبادرت دون تأخير تخلصا من الموت المحدق بها ولعلها بهذا قد أعطت درساً بليغاً في الفطنة والحس السليم وسجلت نقطة فائزة في ميادين عسكرية وسياسية على كل تقديرات القوى الوطنية المسلحة . كانت أحداث مأساوية تجلت فيها خسة أزلام النظام أي كانت هوياتهم وهم يحرقون القرى بأيديهم ويصادرون ممتلكات العوائل بما فيها حاجات النساء الخاصة وهم نفذوا مجزرة بازي البشعة يحرقون كل شيئ في البيوت وصولا للإنسان نفسه .

حوار مع النفس أولا

في بدء اندلاع الأحداث ، في ساعاتها الأولى ، خطرت في البال فكرة أنها ربما تكون طويلة و قاسية ، ولذا فمن الضروري اعارتها الاهتمام الجاد منذ البداية ، فالتراكم والأسباب وتطور الأوضاع يوم أثر اخر لا ينسبها بأي شكل من الأشكال على أنها مهاترات النظام من بعيد ومناورات كسابقاتها عابرة . بل كل المعلومات تؤكد نوايا هذا النظام العفن في أعقاب توقف حربه مع ايران . وعلى هذا الأساس من المعطيات المحددة فلابد من فتح السجل الدقيق لرصدها بالتواريخ ووصف الأحداث وتصاعدها لتكون أرشيفاً في متناول اليد متى أريد ذلك ، ولكن والحقيقة ينبغي لها أن تقال أن التردد راودني بذلك ومبعث هذا التردد هو إحساس انتابني عن صعوبة النجاح في هذا المشروع الطويل والافتقار للتجربة الصحفية الناجحة ، لحدودها الدنيا ، أي أن تكتب عن أحداث الوغى هل هذا ممكن وأنت لست بصحفي ولا تمتلك أية محاولة في هذا الميدان ، وهل من السهولة الإلمام بكل تفاصيلها والتكهن بنتائجها ؟ بعد المداولة مع النفس بهذه الأمور وتطويق حالة التردد ومحاصرتها والموازنة التقريبية بين الفائدة المترخاة واحتمال الاخفاق بذلك ... وهذه (دردشة) مع النفس مؤرشفة أيضاً ، أيقنت أخيراً أنها فرصة هامة لتوثيق حدث هام جدير بالمتابعة وأنت في بدايته وطموح مشروع توظيف الامكانيات في أماكنها والتفاعل العميق في قلب الأحداث الخطيرة الحامية ، وليبدأ العمل وكأنك تنتحل دور من يدخر موهبة صحفية غزيرة لماذا لا يقوموا من تسمح لهم الظروف بمهمة الصحفي ؟ وأين

الصحفي المحترف لكي يكتب عنها وهي ربما الفرصة النادرة في حياة الكثيرين . وبهذه الطريقة أحبطت كل مبررات التردد ، وتلاشت هذه الأفكار بالمناقشة المرنة الجادة وبانت مهمات من يدعي التعلم من الحياة والجماهير ، ينطلق من البدايات الأولية لكنها حثيثة لبلوغ السمو ... هكذا كان القرار الحاسم لضرورة تسجيل الأحداث بالأسلوب اليسير المتدني وبالإمكانات المتوفرة وتوخي الموضوعية والصدق والخطوط الحقيقية وهذا كفيل بإعطاء صورة واقعية على الأقل من خلال المعايشة اليومية لها . وما رأيته بعيني وحده يشكل بحد ذاته مادة غنية واعدة ، لقد كثرت المشاهد التي عشت جانباً من مخاطرها وتأثرت بآلاف اللقطات التي قد لا تجلب إهتمام الكثيرين ، لكنها تركت في نفسي بليغ الأثر وأسرفت في سرقة الدموع من عيني وطوقت النعاس بعيداً عنهما . وزرعت في الشهية نفوراً عن الزاد وهزت المزاج العام بوعكة نفسية عنيفة كأنه إختبار للأعصاب فوق طاقتها ، أحداث مؤلمة ودموية في غالبها تجلت فيها مشاعر الخوف والعواطف والسذاجة والتطور الى جانب تكاتف الجماهير وإن كان هذا في الهجرة دون غيرها للأسف . نعم أحداث عمقت الحقد على الفاشية ونزعة التحوط إزاء مخططاتها الواسعة ومفرداتها الجوفاء الإضطهاد الشوفيني المقيت والمضاعف . إن الحياة قد لقنت الجماهير دروسها البليغة وصقلتهم بمعاني الإصرار على مواجهة التآمر ومجابهة التحايل القذر بوعي وخبرة أساسها رؤية الواقع بجلاء وإشادة المواقف على أساس هذا حتى وإن تناقضت مع تقديرات الأحزاب السياسية . هكذا إحتدم النقاش في كل المواقع بين الجماهير وبين الأحزاب حين أحالت هذه الجماهير كل المناشدات الجوفاء الداعية للصمود الى المحاكمة المباشرة وأفرغتها من محتواها وبدأت الحركة في الليل قبل النهار وحين وقعت تحت قبضة الفاشية والسلاح الكيمياوي الغادر الذي عرفوه في حلبجة ومقرات الأحزاب والقرى الكثيرة .

إن هذه المحنة قد مست قطاعاً واسعاً من جماهير شعبنا الكردي قدرته التقارير الرسمية بما يربوا على المئة ألف انسان ، إنه أوسع رحيل

جماهيري عرفه هذا الشعب المعذب . ولذا فلابد من تناول فصول الأحداث منذ أيامها الأولى ولكن بإشارات مقتضبة بسيطة لا برز لقطاتها ومآسيها التي ابتدأت وتعمقت وتضاعف التعقيد فيها فهي حتى هذه اللحظة تحتل الخبر الأول في العديد من الإذاعات في العالم وتقاريرها ونشاطات هيئاتها الإنسانية . في سياق الأحداث ومشاق الهجرة وتصاعد الإرهاب الشامل أفاقت الجماهير لتجد نفسها وطلائعها السياسية في نفس المواقع وهي تراجع المواقف السابقة وتشخص الثغرات الحاصلة وأسبابها الرئيسية لكن هذا يجري في الغربة الحالكة المريرة ، وهذا استخلاص لتجربة اضافية جديدة أفرزتها الحياة الزاخرة بالدروس . تجربة مفرداتها ... التكاتف والصمود والمشاركة الفاعلة في صنع الثورة ، فالحديث عن الثورة لا يمكن بمعزل عن أحزابها ولكن الآن لاجدوى من تبادل اللائمة والتجربة شاملة للجماهير والأحزاب والحصيلة القاسية تدعوا للتكيف وتضميد الجراحات البليغة ... أن توضع الأيدي بقوة على فوهة الجرح وهو في طور الالتئام ، مادام كل يضع حياته في راحة كفه كما يقال للانطلاق بزخم أقوى غير مبال بالنتائج فمن تدنست مقدساته أبداً لا تستفزه كل المنغصات الأخرى .

هوامش كتب

قراءة سريعة في معالم المنطقة

في الأيام الأولى كانت للأحداث ارتباطاتها الوثيقة بالأرض وبالمواقع المختارة فيها وبالسلاح الثقيل في مواقعه الثابتة وبالفلاح أرضه ومعاناته وظروف حياته اليومية وبعامة الناس ومبادراتهم ونمط تفكيرهم وشكل ارتباطهم بالثورة وبالأحزاب أصلاً . ولهذا كله واعتبارات اخرى ضرورية لابد من التعريف بشكل خاطف بأبرز التفاصيل ذات العلاقة سيما والقارئ قد يجهل طبيعة المنطقة ارضها والتضاريس فيها وقراها وأحداثها التاريخية ونضالها ضد النظام ، فلابد من توخي الدقة في الحديث وتحديد اتجاه الحركة ورصد المزيد من اللقطات والصور المتداخلة فيما بينها ومع هذا قد يبقى القارئ في حيرة من أمره وقد يستعين بالخارطة التي تخص هذه المنطقة وأسماء القرى والمواقع الهامة .

فمنطقة الأحداث المنوه عنها في هذه القراءة السريعة تقع على مقربة من سلسلة جبل متين الحصين ذو التجاعيد المعقدة وأحد أبرز المعالم في منطقة بهدينان والذي أختير في أغلب الظروف مسرحا لنشاط المعارضة ومنطلقاً لتطور حركتهم المسلحة . إن الجبال عموماً هي عوامل طبيعية مساعدة وملائمة لإحتضان المقاتلين بسبب حصانتها أولاً وإنتشار القرى على سفوحها ثانيا وسهولة الحصول على الأرزاق ومتطلبات البيشمه ركه ثالثا واعتبارات أخرى أصبحت هذه الجبال قلب المناطق المحررة ومقرات كل الأحزاب شيدت في منعطفاتها وخفاياها ، إن الأنصار القرويين والقرى معاً

يتقاسمون بينهم ما يستمدونه من متين من صلابة وثبات حيث تعايشوا معه حتى كأنهم جزء منه وعلى سفوحه احتدمت المعارك في مراحل كثيرة وسالت الدماء الزكية من الثوار وتكبد العدو الهزائم والضحايا ، ومتين هذا لمواقفه التاريخية فقد استهدفته كمائن العدو ومأجوريه . فكل الجبال في كردستان مقاتله وذات مجد يوماً ما ومتين في مقدمتها ثائر ... إذاً ليس عبثاً أختيرت المواقع العسكرية بين نتوءات هذا الجبل الجبار في أقصى الظروف قرب عيون الماء دائمة التدفق وعند تجاويف الطبيعة القاهرة والزاوية الميتة أمام قصف الأعداء والكهوف المستورة في ظل أشجار البلوط الكثيفة . إن الطرق السالكة في متين معدودة في الشتاء خاصة حين تغزوه الثلوج لتزيد من جبروته وروعته وتعزز رصيد الينابيع من مصادرها الطبيعية ، تمدها بالمياه الوفيرة لألا تنضب هناك كانت المقرات التي توزعت على الوديان لتكون بأسمائها فعندما يقال وادي الخيول (كلي هسبى) يقصدون مقر الفوج الثالث للحزب الشيوعي العراقي وهكذا وادي بيشى لي فيقصدون مقر الحزب الديمقراطي الكردستاني وكلي بازي (وادي بازي) مقر الإتحاد الوطني الكردستاني ومتين في بدايته من الغرب محاذياً لقرية كاني بلاف مارة الذكر ويبدأ نموه كلما إمتد باتجاه الشرق وعلى امتداد ظله الشمالي تقع المنطقة المسماة (برواري باله) التي هي أشبه بالحوض الفسيح وحدوده طبيعية ومحصورة بين متين من الجنوب وسلسلة مماثلة محاذية للحدود التركية ومن الغرب نهر الخابور ذو العطاء الوافر للفلاحين في قراهم أما من الشرق فهناك حاجز مائي حيث مقرات أخرى لأحزاب المعارضة . وهناك الشارع العام الذي يخترق المنطقة من زاخو وصولا لناحية كاني ماصي مروراً بناحية باطوفا وتجمع بيكوفا حيث المواقع العسكرية للنظام من مقرات الأفواج والسرايا وربايا و من هناك من بيكوفا كثيراً ما يجري قصف المنطقة وقراها ومقرات الأحزاب الوطنية فيها . أما كاني ماصي فهي ناحية ذات مجد سابق ومحاطة بإطار جبلي عجيب وتعتليه المواقع العسكرية المختلفة حيث تطل على الناحية من جهة الشرق

خارطة منطقة برواري بالا

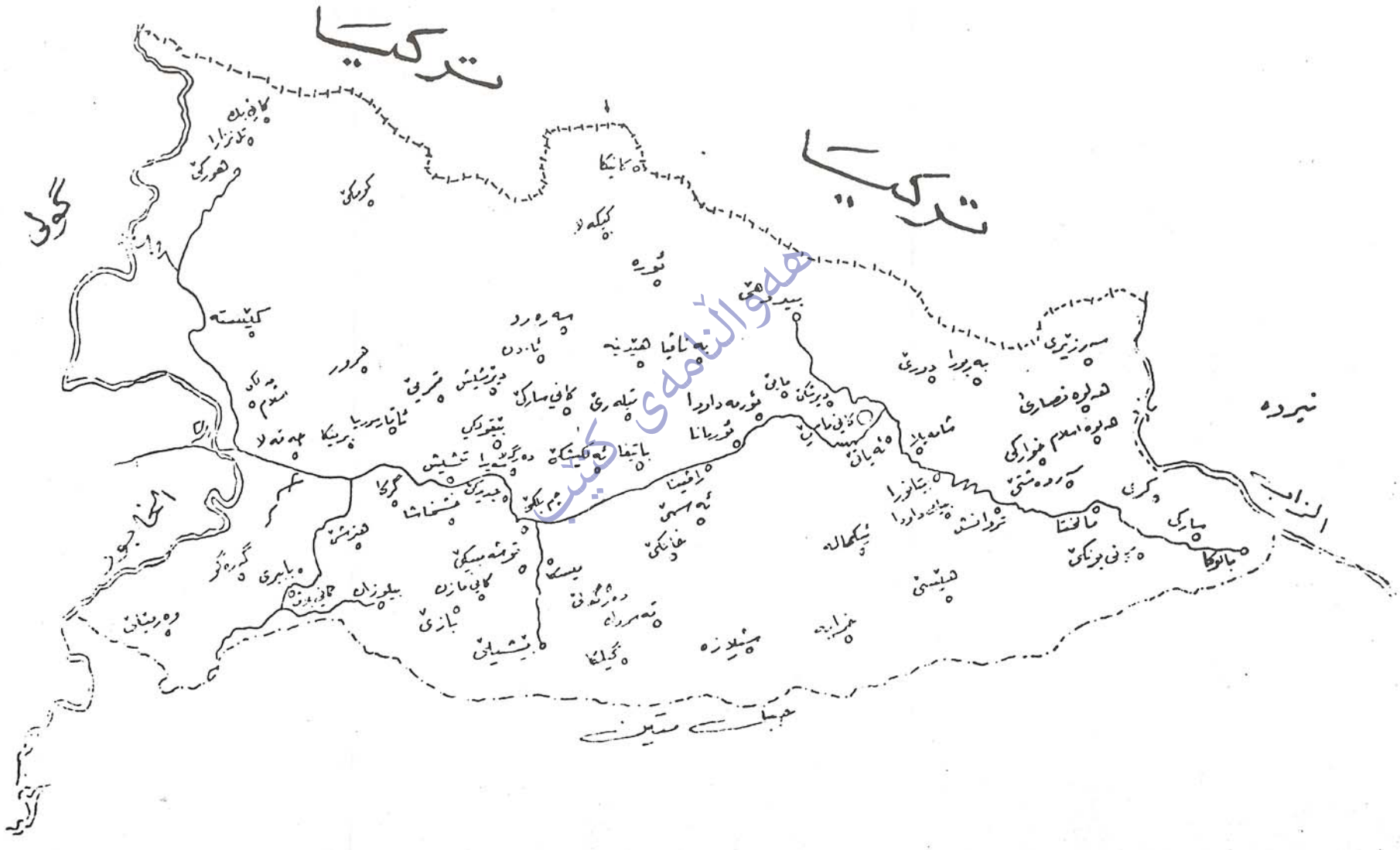

هەولێری کتێب

قمة شاهقة ونحيفة هي (سه رى زيرى) أي الرأس الذهبي وهناك مقر سرية حصينة يصعب اقتحامها من قبل البيشمه ركه إن هذه المنطقة غنية بإنتاجها الزراعي وثروتها الحيوانية وتشتهر بالفاكهة خاصة التفاح والجوز والعنب والرمان وغيرها فمياهها وفيرة وأرضها فاخرة زراعياً ولو توفر لأهلها الأمان ولإنتاجهم التسويق لوصل إلى أغلب مناطق العراق . هذه القرى الحدودية قد تعرضت الى الخراب مرات ومرات وجرى ترحيل أهلها وقصفها الطيران وحرقت المحاصيل فيها ونالت حقد السلطات والسلطة الدكتاتورية القائمة . ولكن ما أن تسمح الظروف إلا وعاودوا أهلها بكل اصرار يشيدون البيوت ويعيدون الحياة الى مزارعهم وكل يعرف حدود أملاكه والجيران وينسب لهذه المنطقة كل الساكنين فيها فهم يشكلون (البرواريين) نسبة إلى برواري باله وفي هذه المنطقة مدار الحديث يقع فوج (صودكى) الذي اقتحمه البيشمه ركه بغضون دقائق ليلة ٤و٥/٥/١٩٨٧ وغنموا أشياء كثيرة عسكرية . وفي نفس العام ١٩٨٧ في شهر أيلول اقتحم البيشمه ركه كاني ماصي نفسها وكل المواقع التابعة لها وبقيت بأيديهم عدة أيام وقطع الطريق العام أمام تقدم السلطة . وحين جرى الحديث عن المقرات للأحزاب لابد من الإشارة الى الواجهة الثانية لجبل متين للقمم فيه ووجهه الطويل من الجنوب والقصبات المنتشرة على السفوح والمحسوبة على الأراضي المحررة وبعضها في الليل فقط محررة . حين يدخلها المقاتلون يقيمون الندوات الجماهيرية ويوزعون المناشير وصحافة المعارضة ويتابعون المعلومات عن العملاء ويقتصون ممن ينالون . هناك مجمع قدش وقرية أنيشكى السياحية وقرى أرادن وبامرني وغيرها من القرى الأخرى المواجهة الى ناحية سرسنك . هذه القرى التي اغلبها عانت من اجراءات النظام في تهجير أهلها . حيث سجل البيشمه ركه تواجداً باسلاً دفاعاً عنها واحتلوا ثلاثة مرات متتالية مطار بامرني وكل المواقع العسكرية التابعة له . وعلى مشارف قرية ارادن لقن البيشمه ركه للحزب الديمقراطي الكردستاني والمقاومة الشعبية مرتزقة النظام وقواته درساً لن ينسوه عام ١٩٨٧ وعلى

قمم جبل متين تتواجد نقاط المراباة كخطوط دفاعية متقدمة حيث يتواجد السلاح الثقيل والأجهزة اللازمة للاتصال واستطلاع أوضاع المنطقة كل يوم وهي نقاط مشتركة أو يجري التنسيق بينها فالقمم الهامة لمتين تحت سيطرة الأنصار في الليل والنهار وهي إجراءات ضرورية للمقرات بل ومصيرية عسكرياً .

أما المحاور التي تقدمت بها قوات السلطة في هجومها الواسع فهي بشكل رئيسي محورين أولهما والأكثر خطورة هو من جانب بيكوفا ومن خلال القرى التي لم تقاوم وجرى احتلالها بسهولة بعد قصفها بكثافة وشمل هذا المحور كل منطقة البرواري كما هو وارد في الخارطة من كاني بلاف حتى الشارع العام المؤدي الى كاني ماصي . أما المحور الثاني فهو من جانب سرسنك أنيشكي وبامرني وأرادن واحتلال نقاط المراباة دون مقاومة أيضاً لإنسحاب البيشمه ركه منها وبهذين المحورين الواسعين والأسلحة الفتاكة اقتحموا المنطقة بكاملها وحرقوا كل مافيها وأشاعوا الدمار الشامل في معالمها .

هەولێر کتێب

ليلة كاه العبور بالآلاف

منذ الصباح ١٩٨٨/٨/٢٦ شملتنا نحن البيشمه ركه عموماً حالة الإنذار المشددة فهذا النهار كان مليئاً بالحركة والمهمات والتفكير بالليل القادم واستثماره في انقاذ أكبر عدد ممكن من الجماهير التي تضاعف زخمها عن الليلة السابقة ، إزدادت كثافة الجماهير المهاجرة وتصاعد خوفهم ، فهم بالآلاف في الوديان والكهوف ويستضلون الأشجار لتقيهم تأثير الحرارة ، إنظارهم وأذهانهم ترقب الطريق وتختلط العوائل كل يبحث عن ذويه وكل التوجيهات شفوية حذرة ، كل يلتقي بعائلته وحتى اشعار آخر ، ومصيرهم واحد تحدده الليلة القادمة بصعوباتها والمفاجئات المحتملة ، الآلاف يحثون الخطى ، يحتلون الطرق المؤدية للعبور ، وكلي بازي (وادي بازى) كان مرحاً هذه المرة ، مضيافاً نفلاً فتاحياناً للوديان (الگليان) مأثر ولموقفه الشهم هذا فقط نال حقد الفاشية ، كانت قذائفهم متوالية عليه لاتمهله حتى دقائق لتدبير متطلبات الضيافة ، والناس لا تحصى يلوذون خلف الصخور وبدايات الكهوف وتحت الأشجار الجثيمة يحتمون بها ومن ضاقت بهم المواضع يقف جانباً كأنه يحصي الجالسين شارد الذهن أوانه يتحدى كل الأحداث ومن وراءها . وهذه العوائل ليست على هيئة واحدة كل حسب حاله وظروفه في الطريق ، فهناك من لا يملك رغيف الخبز اليابس وأخرين لا زالت في حقيبتهم بقايا أكلة دسمة وكمن يجاهر بالأفطار أمام صائم ودعوات خصوصية وبالهمس حين تقترب أكثر وتكون بين الناس تجذبك تصرفاتهم والأسئلة وصراخ الأطفال ، فلم يعد الجوع وحده قد أنهك قواهم فهناك التعب فوق تحمل الأعصاب والخوف حد الذعر والسهر

الطويل والقلق الدائم ، بكاء وأسئلة جادة وصداع وتشبث بهذا وذاك ... يسألون من يحمل سلاح من أي الأحزاب كان : ماذا تعرفون من جديد ؟ ماهو مصير الذين عبروا بالأمس ؟ أخبرونا أين تواجد البيشمه ركه وكيف تقدرون مخاطر العبور الليلة الماضية ؟ نحن أمانة في أعناقكم وسامحونا إن تركناكم وهربنا الى الحدود التركية ، نريدكم معنا في العبور وتحول الموقف الى مناحة حقيقية من البكاء الشامل ... أمامنا عقبة العبور هذه الليلة وقد تكون نهاية حياتنا . أسئلة من هذا النوع ومشاعر تهز كل ضمير نابض تجدها في كل المواقع . إن الأجوبة المفيدة لهؤلاء ينبغي لها أن تحيط بالعلة بغية إجتثاثها من الأعماق وتعالج حالة الإنكسار الطارئ في المعنويات ، وإلا فأين دور المقاتلين حملة الأفكار والبنادق وكيف لهم تبرير ماقالوه بالأمس في ندواتهم عن الصمود والتحدي لمناورات النظام الدكتاتوري وعن تداعي إمكانياته وعمق أزماته؟ هنا تثقيف الجماهير لا يأتي بالمحاضرة والندوة السياسية ولا بقراءة الكتب ذات الفصول الطويلة . الأمر لايحتمل التنظير والاطالة بل يأخذ شكل الاستنتاجات المنطقية وبضع كلمات واضحة وقريبة من ذهنهم شرط أن لا تتعارض مع الوجهة ورحيلهم الآتي . وتكون وحيداً إن حاولت خداع إمرأة واحدة بسيطة بالمراوغة والتملص من أسئلتها المحددة اللاذعة فهي جماهيرنا التي تعايشنا معها في كل الظروف ولم تبخل يوماً بالملح والزاد ، وبهذه الدوافع الكثيرة المتداخلة ينصقل المرء بقيم الصلابة والالتزام النضالي والتمسك بالخلق ويندفع رغماً عنه ليجد نفسه في بودقة الناس وضمن واقعهم الفعلي وكجزئ منهم . وبدوافع التعاطف الصادق وإيفاءً بالالتزام وإدراكاً أن مهمة الصحفي تملي عليه المعايشة مع الأحداث بحرارتها ، ينغمر في أعماقها وإن تطلب ذلك أحياناً كثيرة مغامرات حد المجازفة فهي مهنة من أمتهن النضال رغم مشاقه وسحرته حياة البشر ، همومهم وقيمهم النبيلة وانحاز بوعي وإصرار لها .

ولكن عجيب أمر هؤلاء الناس كيف استقطبتهم هذه الأوضاع من كل الأطراف ووزعت الأدوار عليهم بهذه الدقة إنها مسرحية حية من قصص

عشرات الآلاف وأبطالها كلهم إبداعاً وإجادة في الأداء ، كيف تسنى لهم أن يغافلوا كل الحواجز ويكونوا كل في مكانه المحدد يؤدي دوره المرسوم بجداره وانضباط عاليين ؟ كيف تسنى لهذا البيت وهو من أقصى مناطق الدوسكي (٦) أن يختصر الطريق وربما حالفه الحظ ليكون وعائلة من قرية بيشيكي في موقع واحد ودور تمثلي مشترك ؟ فهذا شيخ تجاوز التسعين ويستعين بالكربال (باكوره) ولا يستكين أطال الله عمره ، ينادي بالطمأنينة وينصح بالصبر وينهر الأطفال عن الحركة بعيداً عن تواجد ذويهم الجماعي ويدعوا الأمهات بالكف عن البكاء علامة الضعف والإنكسار فهو لا يليق بهم ولا يجدي نفعاً ، إن كل منهن تحرص على أطفالها ، إنها ظروف عابرة كالغمامة وكأنها إرادة الله ، إن الحياة تركت بصماتها على تقاسيم وجهه وصقلته بضوابطها القويمة المهذبة للنفس وروى عنه في مواقع أخرى إنه أجاد أدوارا أكثر تعقيداً ، كانت حياته كلها حافلة بالمتاعب والتشرد وهي اثبات مادي على مدى صلابته وبقاء سجله الكفاحي الطويل مواكباً لمسيرة شعبه الأبي .

وعندما تتجول بينهم تجد النساء أكثر تأثراً بالأحداث وأدوارهن فيها متشعبة ورغم الحواجز يندفع أكثر من يريد المعلومات أن تكتمل واللقطات التنوع ويستعين بالشيخ الكبير مستفيداً من وقاره ويقترب حذراً منهم يلوذ بالكبيرات في الصفوف الأمامية تجد الواقع يسيراً والحديث بمنتهى البساطة سلس ومباشر قالت من كانت أكثر لوعة في الحياة وقساوة في العمر والمشقة : قالت بإشارات لمحطات عمرها وتدعوا الصبايا بالمشاركة في مأساة الشعب ، إن معلوماتنا أيها الأخ لا تفيد في الكتابة فعلى اي شيئ ومن أين نبدأ بالكتابة وحياتنا أمضيتها كل يوم في أرض ؟ وتلطيفاً للجو عقب هذه المساهمة المرتبكة منها تقربت قليلاً كأنها تبلور نكة في غير مكانها لعلها تبدد بعضاً من مظاهر الحزن والكآبة قالت شيئا فانتزعت ابتسامة واحدة من الحاضرين وكانت بهذا قد حققت شيئاً مطلوباً في هذا الظرف .

وهناك أخرى بل الكثيرات يلبسن أبهى ما لديهن من البدلات و أجدها ومغزى ذلك أنه لاظفاء الهيبة وتبديد الهموم وعدم الإنسياق أكثر لما يحلم به عدونا ، وأخرى متمردة تحسب للشدة ألف حساب تجوب المجموعات متطوعة لتقوية المواقف الضعيفة تعطي الكلمة العطوفة مشفوعة بقطعة من الحلوى ، وبعضاً من البسكت المفيد وفي أروقة التجمعات تجد البعض يضحكون على الصعاب ومرحهم من الأعماق يتسابقون في الحركة وحراساً بمعنى الكلمة يسندون من ينال الأعياء منهم ويكتمون الأخبار المحبطة للعزائم ، وكأنهم في تمرين عملي يأخذون بالكثيرين يداً بيد بعيد عن تأثير القذائف التي لا تكف عن مناطقهم لحظة .

ومع تقدم ساعات النهار يزداد القلق وتمتزج المشاعر خليط يتصارع بين الخوف والأمان ، أمان لأن الليل اقترب والبيشمه ركه أعطو عهداً لأن يكونوا معهم عند نقاط العبور وبكل الأسلحة الضرورية لتأمين عبورهم ، وخوف من غدر المجهول وخطط العدو على مقربة منهم ، فلم تعد الأسرار مصانة بما فيه الكفاية ، وها هي الفاشية تزحف من كل المحاور وتقصف المناطق بكثافة فتحرق الأخضر واليابس .

لكن مع هذا فالليل القادم هو الفرصة النادرة والكل يسعى لاستثمارها . عند غروب الشمس في الساعات الأخيرة من نهار ١٩٨٨/٨/٢٦ روج البعض إشاعات (٧) على أن العبور مستحيل وكل الطرق مغلقة وقد خلق ذلك إرباكا في حركة الناس وعكر مزاجهم وخلق الخوف والتردد وعدم استثمار الوقت بالكامل مما أودى بالآلاف أن يخونهم الوقت ويكتب عليهم التسليم في اليوم الآخر . وعندما عرفوا البيشمه ركه بالأمر أسرعوا في تفنيد هذه الدعايا واثارتهم التأويلات للنوايا والغايات وقد تداركهم الوقت وللتأخير العواقب الوخيمة . وبغضون دقائق تعمم الخبر ليكون بشرى للجماهير كل بوسائله الخاصة إنتعشت الجماهير بنشوة مفاجأة وانهارت الإشاعة الزائفة إحبطت آخذة بمروجيها إلى الهزيمة بوجه أسود أمام الجماهير . تواصلت الجهود وفق وجهتها المرسومة في الصباح وأخذ

برنامج العبور طريقه للتنفيذ وتسللت المجموعات المسلحة لتشكيل النقاط والكمائن الضرورية ، وانسابت الجماهير كأنها انطلقت من السجن وبمقدار فرحتهم وتدافعهم للحركة لم يكن بوسعهم تسديد ما بذمتهم في المكان الذي سكنوه نهاراً ونصف ليلة تقريباً . إندفعت مسيرتهم حين عرفوا الطريق مفتوحا وآمناً بحراسة المقاتلين من البيشمه ركه تسير بأقصى ما لديها من السرعة وفاض بهم الشارع وأحياناً الموجة تطفح لتغمر أنصاف البساتين الموازية للشارع ولا يرقبون موطئ الأقدام ، حركتهم عنيفة وتنسيقهم عفوي وتداخل حيواناتهم وقطعان الماشية بالآلاف ويبدوا أن حوافرها استفزت الأرض بفوضى حركتها مما ترك مزيجا مختلطاً من غبار الأرض الهائجة ودخان الحرائق الناشئة من الآف القذائف مما يشكل جداراً كثيفاً متماسك يؤشر حركة سيرهم بسرعة غير اعتيادية ابداً ، لا اظن في التاريخ مسيرة كهذه الحجم والاتجاه والأسباب . كانت مفرزة من البيشمه ركه تتوزع على امتداد نقاط العبور مقابل قرية الكييشكى برواري باله ينتظرون بفارغ الصبر وصول الجماهير لتأمين عبورهم ، هاهي الفرصة سانحة تماماً والتأخير له آفاته كما يقال ، وفي هذا الأثناء من الترقب والتوتر العام تجد نفسك فجأة تغرق في طابور بشري ، تيار يأخذك عنوة إن لم تتجنب خط مساره ، تستهويك مشاعرهم وقوة إصرارهم على إختراق الحواجز فلا وجود لأفكار التردد المدانة ، فالجرأة خصيلة شعبنا الكردي أكثر من غيره ، وسؤالهم الوحيد : ماهي أخبار الطريق ؟ والجواب الاكثر تعبئة لهم ... إن الطريق آمن أسرعوا اكثر ولا داعي للخوف والبيشمه ركه عند وعدهم ينتشرون بانتظار عبوركم . قال واحد من المجموعة التي تتقدم مسيرة الجماهير : إن البيشمه ركه قالوا الكثير لكن الأفعال هي المحك الاكثر صدقاً ولسنا بصدد المعاتبة عسى أن يكون ما قالوه عين الحقيقة . أيقنت بما في خلد الجماهير فهي تحاسب بدقة ولا تتسامح مع الزلات ولا تنساها بالهين .

إذن كانت الفرصة أن نختار المكان المناسب ونتعامل مع الأحداث بجد

وصراحة ، فالليلة ليست كباقي الليالي وينتاب الصحفي الجديد شعور بجسامة المسؤلية حين يتعلق الأمر بمصير الآلاف من الناس ، فيزحف قليلاً يلوذ تحت أجنحة شجرة الهفرست العامرة ليتسنى له ضرب قطيعاً من الطيور بصخرة واحدة. هكذا يلبد على مرتفع ويحتل المكان المناسب لإحصاء المعارف وهم يمرون على بعد أمتار قليلة ويحجز المكان الأكثر إشرافاً بل ونافذة واسعة على الجماهير كشريط سينمائي نادر ، ومن نفس المكان ترى وميض الدبابة قبل غيرك وفي عين الوقت فهذا المكان الأكثر صلاحية للقتال والحركة ، ناهيك عن مهمة الإجابات السريعة التي هي بمثابة الإحماء المباشر الضروري قبل أمتار من العبور وبهذا فهو موقع أقرب الى مهمة الاستعلامات ولتسجيل اللقطات الأساسية التي تغني مشروعنا الصحفي بوثائق ميدانية .

ولكثر اللقطات الجاهزة لابد من الاستعانة بالذاكرة كانها مسودة الآن يمكن مراجعتها في الظرف المناسب لتفريغها على الورق وتتقاطر الخواطر والأحداث حقيقة دون (ترتيش) وكمن يحمل الكاميرا يلاحق اللقطات الأكثر اثارة للإهتمام . والبندقية كانت تطبق تماماً على طلقة حية في أقسامها الداخلية ، وبندقيتي من تلقاء نفسها مستنفرة أيضاً ، أخذتها الحمية كوسيلة اضافية من أدوات الصحفي المعاصر تطلبتها طبيعة المهمة المعانقة للموت في هذه الليالي الغريبة . وعلى بعد أمتار فقط عبرت عائلة تركض بكامل أفرادها وأخرى جاء منها طفلين وامرأة وثالثة جاء منها رجل لوحده عدا حقيبة الظهر القديمة الخاوية وهذا الأعرج الفلاني يتسابق لتغطية ضعفه ... وغيرهم وتخونني الذاكرة لعطل فيها فهي قد تجاهلت لقطات جيدة عبرت دون أن تترك أثرها في الأرشيف المكرس للأحداث الهامة . عجباً هذه السرعة ماهو مبعثها ؟ إنه نفور من الفاشية المقترنة بالموت ونزوعاً للحياة والكرامة . أنين النساء المثقلات وانحناء الظهر وبكاء الأطفال المكبوت بسبب الخوف وزجر الأمهات وفوضى الفلاح من لم يعتاد النظام والدقة في تعامله مع الأشياء فهو لا يطيق الصمت دقيقة واحدة ويسأل عن

الشيء عشرات المرات ويتوعد زوجته بالقتل ما أن تناديه بملاحظة جادة ... الرجل يتمتع بالنزق الإضافي فهو أحياناً يتعب لدرجة تخرجه من طوره فتنطلق كلماته الفاسية لزوجته التي لم تألفها منه طيلة حياتهما . (هؤلاء أطفالك ، قابل ابتليت يطبكم مرض) وهي نماذج قليلة جداً لكنها مؤلمة للغاية . ويمرون افواجاً أفواجاً ووقع الأقدام لا زال قوياً ، ولا ادري لماذا كنت أريد مشاهدة الوجبة الأولى وهي تعبر ؟ ربما لرؤية مدى فرحتهم بالحقيقة كونها المحك الأكثر صدقاً كما قالوا ، والطريق فعلاً أمين . سريعاً بانت طلائعهم الأولى ، فالمسيرة على مقربة من الشارع ، إتسع حجمها ترقب يميناً ويساراً وتباطئت الخطوات واشتد الإنضباط وخف الضجيج وتتوزع الأنظار للقمم المجاورة وللدبابات اللعينة خطرهم الوحيد الجاثم على الشارع قد عبرت تنحط قريبة منهم ... إنها حقيقة هاهم البيشمه ركه أحياء ومعهم أسلحتهم والتزامهم في النهار بتأمين العبور . هكذا البيشمه ركه كما عهدناهم . قالوا نعم يعني نعم . ومن الطرف الثاني للشارع جاءت نسائم منعشة تأخذ بأيديهم الى النجاة ، إنه نسيم اجتياز المخاطر .

إندفعت الوجبة الأولى مفتتحة سجل العبور في أصعب لياليه حتى الآن ، ففي دقيقة واحدة وبضع ثوان اجتازت الشارع دفعة تربوا على الالف بكل تأكيد لتصبح بحوزة النهال المؤدي الى قرية الكشكى وهناك يتصاعد العزم وتشتد الأقدام ويستعيد الأنفاس وتطفح الوجوه بالبهجة والاصرار وتنحرف اتجاهات الجدار الترابي قليلاً نحو الشرق وضوضاء العبور رغم المناشدة بالكف عنها ولكنها تجلب الانتباه وغريب أنها لاتعرف تلك الدبابة الرعناء بذلك .

لقد بدء العبور بنجاح باهر وبسرعة وتنسيبق دقيقين ، حيث ما أن يظهر وميض الدبابة من بعيد حتى يهبط كل في مكانه دون مماطلة ومجرد عبور المنطقة المحددة حتى تندفع الوجبة الأخرى ودقات القلب تفقدهم التوازن والصواب ، هاهم على بعد أمتار ليكونوا من عداد الناجين من الموت ومتوجين تعباً لليالي بثمرة بين الأيدي .

في هذه اللحظات تسيطر مشاعر الرهبة والتوتر والجرأة في آن واحد . وتنفرط تشكيلة العوائل والقرى والمناطق وتعم الفوضى حتى مكان اخر بعيداً عن الشارع ليعاد تشكيلها من جديد وكثيراً ماتترك ام ابنها الصغير مضطرة لتنتظر عبوره في وجبة ثانية وكل ينشغل بنفسه . وهناك من يتعلق بابخس الحاجات اذ ترى امرأة تهم وتتعثر وبيدها اليمنى فانوس بال وفي اليسرى علبة زجاجية خالية . يواجهون التعب المتراكم بقوة اضافية متجددة جاءت بها لحظات العبور الحقيقي ، وطعناً ميدانياً بخلق الفاشيين ، من ظنوه شعباً اعزل تحت قبضتهم الظالمة متى ارادوا . وتتواصل السيول البشرية وما ان يتقدم الليل حتى يشعر الانصار و البيشمه ركه هناك ان الوقت منقذهم دون غيره وفي هدوءٍ من الليل الدافئ والصافي الا من عبث الفاشيين الخونة ، وكلما راجعت المعطيات المثبته في مسودة ارشيف الذاكرة تجدها لازالت تؤشر وتيرةً متصاعدة مع تقدم الزمن لتبلغ ذروة منسوبها في الساعات الاخيرة من الليل . لذا لابد من تشديد الضوابط تحاشياً للخسائر بين الجماهير ، هذه الجماهير الفقيرة ولكنها في حقبة من حياتها ستكون بلا شك جانباً اساسياً من سياج الثورة وليس عبثاً ان لايفرط بنفر منها .

أخذت التوجيهات تصلهم ويتلكأ تطبيقها من قبلهم لا يقتنعون بأغلبها فهم لا يستسيغون لغة الأوامر ولايكترثون بقوة المنطق لوحدة ويريدون كل الأشياء مكشوفة والتبريرات مباشرة وكأن الانضباط الصارم عدوهم ودخيل على تقاليدهـــم ... اقطعوا الصوت تماماً وضاعفوا السرعة واحذروا مداهمة الدبابة الحاقدة علينا واستجيبوا لتوجيهات البيشمه ركه فهمهم الأول والأخير سلامتكم من كل مكروه . وما ان يساوركم الاعتقاد انه قد خف زحفهم بناء على قلة الأصوات وثلاثي العتمة الواسعةكجبل حالك في البداية وتنجلي معالمه والحركة كلما اقتربوا أكثر وهيهات أن يكون الاعتقاد حقيقة فدقيقة واحدة فقط تأخذك تظاهرة صامتة تماماً كل يحمل أثقاله وشبح تطلعاته ، ها انها الفرصة للفضول وحب الاطلاع أكثر بهذا القصد

يتناول الصحفي القريبين منه بسيل من الأسئلة ربما تكون أو بعض منها في غير وقتها المناسب ، يسأل رجل على طرف منهم : من أي المناطق أنتم ؟ يتأخر الجواب وكان السؤال قد اضاف حملاً آخر ، وبعد يأتي الجواب وهو يستنهض انفاسه كأنه توحى من الاجابة مكافأة لطول الشوط الذي قطعوه . اننا من الدوسكي ... ومن أي القرى ؟ من جديد تغيرت ملامحه ما الفرق بين القرى وهل نيها احسن حظاً من الأخرى ؟ وفي غضون حوار بينهما بين الجد والمناكدة ولاحت اشارة الدبابة الأمامية وتمحورحشد منهم ما أن عرفوا مصدراً للأسئلة يريدون مزيداً من تبادل الأحاديث وتوثيق القصص وسيلة للتعارف فمنهم رجل طويل القامة في منتصف العمر لكن هندامه ونبرة حديثة يشكلان انطباعاً أنه ذو تحصيل دراسي معين وهو الوحيد المتحرر من حمل الأثقال سوى البرنو التي أضافت عليه لياقة ورونق معين ، فمن كلماته القليلة الموزونة تبين أنه من السندي ، من قراه البعيدة . وامرأة أخرى تناولت رغيف الخبز بلهفة وهي من قرية كربراصكي هذه القرية التي يشعرون الانصار فيها بالطمأنينة ويأكلون في بيوتها كأنهم في بيوتهم ، الشاب العنيد ذو الأسئلة الحادة في الندوات السياسية : لماذا مفرزتكم قليلة ولماذا سلاحكم غير متطور ؟ ما هي أعمالكم العسكرية خلال هذا الشهر ؟ وغيرها أنه لازال طافح بالحيوية والاصرار ... ومن بعيد جاء صوت اليف مخاطباً بلهجة التعارف القديم ، قال وهو ينحني قليلاً صوب جذع شجرة الهفرست حيث يتمدد الصحفي الجديد ويجري لقاءاته الخاطفة قال : أهذا أنت تلوذ بهذه الشجرة الخاوية ؟ قد ارتاح قلبك وأنت ترانا بهذا الحال ؟ وان كنت بحال ليس أفضل من حالنا فنحن على الأقل بكامل القامة وطليقي الحركة ... اتمعن به جيداً فعرفته الرجل الكبير ذو الآراء النيرة والطباع الطيبة ، ها قد تجرد من مظاهر الأبهة الفارغة التي ابتلى بها فهو كما يبدو لم يعد بحوزته مايضعه في مصاف الأغنياء المصنفين على برجوازية الريف جردته منها الحياة بقوتها لتلقيه في صف الثورة ومتاعبها اليومية وبقيت نفسيته الطيبة ومرحه وضيافته الكريمة .

هكذا انسلخ بين ليلة وضحاها فهذه واحدة من حسنات الأحداث القليلة الى جانب سيئاتها الكثيرة . ويتحول الحديث المفتوح الودي الى جلسة بضع دقائق ... حوار بلا مقدمات كل يدلي بدوره ما أن جاءته الفرصة . وامرأة على جانب تتحدث بصوت خفيف خذلته المحن وهي ترقب الطريق حيث حان وقت عبور الدبابة اللعينة . عرفتها من صوتها المميز ونكته كانت تقولها لنا في الأيام الخوالي الذهبية عندما نزورهم في قريتهم الطيبة حيث كانت تقول : أنتم الأنصار ما أن سألناكم عن الجديد وافق المستقبل حتى قلتم بلغتكم السياسية البارعة أن الانعطاف الجماهيري آت والثورة بخير والنظام زائل ويئن من ثقل الأزمات والمستقبل القريب للكادحين . قالت هذا بأسلوبها البسيط ولغتها الكردية الشعبية وقبل أن تنهي حديثها اختنقت بالعبرة ، فعرفت أن مبعث حزنها خوفها علينا نحن البعيدين عن الأهل وربما لانراهم ثانية . فقالت جملة من القلب وتحول الحوار الى لغة الصمت والتوقف عن الكتابة ، قالت :- (نحن قوم معذبون في كل العهود ولكن أنتم (٨) ما ذنبكم ... يكون الله بعون ذويكم) وأشرت بيدها مودعة وهي تدفع بإبنها الذي طلبت له الدواء عندما زرناهم قبل أيام وأصرت على غسل ملابسنا كأنها أم الكثيرين منا . وسألتنا حين ذاك عن الأخبار وعن الرفيقات القدامى ها هي ترحل مهمومة وابنها يصحبها وهو معافى الأمن مخاوف المجهول . لقد شعرت برابطة عميقة بهؤلاء الناس وبجدوى أن تدون هذه المواقف بأي الأشكال والتعابير . كيف تسنى لكم قطع هذه المسافات بهذا الوقت القياسي ؟ سؤال يقابل بالاهمال التام ، فهم يعطون مقتطفات فقط عن أوضاعهم ولا مجال للتفاصيل المؤلمة . وتأتيك أسئلتهم الأكثر وجاهة وضرورة : أين الربيئة ؟ من فيها جيش أم جحوش ؟ ومتى عبرت الدبابة ؟ وهل معكم آر . بي . جي ؟ ماذا تعرفون عن الذين عبروا قبلنا ؟ هل بينكم شهداء ؟ كونوا حذرين ونحن أمانتكم هذه الليلة إننا بخير مادمتم معنا... الخ .

وتقترب الساعة من الثالثة ليلاً ولازالت أعداد الجماهير على أشدها

وتشتد المخاطر أيضاً حيث أخذت المسافات تضيق بين دبابة وأخرى أكثر من السابق وأحياناً أكثر من واحدة في كل دفعة ، إذاً يجب تحديد وقت توقف العبور قبل الفجر الذي لاحت بداياته ، ولكن كيف يمكن إقناعهم بهذاالأمر وهم على بعد أمتار من الخلاص ؟ فالمجازفة في حساباتهم مبررة بل هذا وقتها وعلى قاعدة (فاز باللذات من كان جسوراً) في الرابعة الا ربع عبرت قافلة من الدبابات وهي أربعة على ابعاد متقاربة وبحركة بطيئة متطلعة لما في المنطقة ، دجى الليل قد تسرب شيئاً فشيئاً ولابد من توقف العبور الآن . وبصعوبة بالغة جرى اقناعهم بجدية المخاطر وإن الكف عن العبور لصالحهم فالليل القادم مرهون بساعات فقط ولكن رغم هذا فقد اجهش العشرات بالبكاء واصابتهم خيبة الأمل الكبيرة . اخذوا يتوسلون للمساعدة وانقاذهم من الخطر ولكن كيف يمكن ذلك ؟ وهل هم بالمئات ؟ أبداً فهم بالآلاف الطائلة ومن يضمن الا تأت الكارثة في اللحظات الأخيرة وندفع الثمن الباهظ ؟ توقف العبور وانكفأت الطوابير وهي تجر الخطوات بصعوبة قصدين وادي بازي ثانية ليكونوا ضيوفاً عليه ومعهم المزيد من المخاطر فقد ضاقت بهم الأرض وفي هذه الليلة فقط ومن نقطة واحدة قد أنقذنا ما يربوا على (١٤-١٥) الف مواطن عراقي مهاجر رفضاً للإرهاب هكذا إنتهت ليلة ١٩٨٨/٨/٢٧ وجاء نهار ١٩٨٨/٨/٢٧ وقصصه الأكثر تعقيداً ومأسي .

مقرنا يشر الرحال أيضا

في صبيحة ١٩٨٨/٨/٢٧ عادت المجموعة من مهمتها في تأمين عبور الجماهير والنعاس يثقل أجفانهم وتعب الأمس (يسطرهم) كمن شرب حتى الثمالة ، كل يترنح كأنه فقد صوابه ، أما الوجهة في مقر الفوج الثالث للحزب الشيوعي العراقي في كلي هسبا فهي محسومة بخيار وحيد لا غيره هو اللحاق بمن سبقونا في العبور قبل يومين وينتظروننا في الأماكن المعلومة لنا ولهم ومنذ هذه الساعة ابلغت نقطة متين (٩) بضرورة التهيؤ للحركة واخفاء الأثقال والأجهزة باستثناء الدوشكه وعند المساء جاءت رسالة من لجنة العمادية (لحدك) بضرورة تعزيز نقاط المراباة في قمم متين وعلى هذا الأساس تحركت مجموعة من قيادة الفوج الثالث للوقوف على آخر اجراء لهم فوجدت هذه المجموعة أن مقرهم في قرية (بيشيلى) فارغاً تقريباً باستثناء مجموعة صغيرة والقيادة كانت في غير مكانها السابق وعند اللقاء معهم تحدثوا بعكس رسالتهم الى الفوج الثالث ففي الوقت الذي يطلبون تعزيز نقطتنا في متين أبلغوا نقطتهم هناك بالنزول على وجه السرعة وهذا أمر أربك عملية المخاطبة مع نقطتنا مما اضطرنا الى ارسال بريد مباشرة للنقطة المذكورة بالنزول بالسرعة أيضاً وموقف قيادة الحزب الشيوعي العراقي في الفوج الثالث كان واضحاً من هذه التطورات وجرت لقاءات عديدة مع محلية العمادية للحزب الديمقراطي الكردستاني الحليف لتشكيل المجاميع وتوزيع القوى على المنطقة لكن ممثلي الحزب المذكور ناوروا بدعوى مفادها أنهم سوف يتصدون للعدو وحتى يوم ١٩٨٨/٨/٢٧ فاعلنوا قرارهم للعبور الى تركيا وحاول حزبنا أيضاً التأثير على حدك من أجل التمسك على أقل بالشريط الحدودي في هذا الوقت ظهر

إن هناك لقاءات مع الأتراك من أجل التسليم لهم . وفي سياق الأحداث كانت أحزاب المعارضة تكثف لقاءاتها وتتدارس الجديد في الأوضاع بشكل متواصل نهار ١٩٨٨/٨/٢٧ لم يعد هناك سوى التنسيق مع من يعبرون هذه الليلة فليس من حل آخر سوى مواصلة المشوار والكل متعبين وينبغي تطويع القوى لمهمات طارئة هي قدر الحياة ففي مثل هذه الظروف تقاس المواقف ، سيما وحاجات الحزب ورفاقه مسئولية الجميع والكل معنيين بها ، كان جل الرفاق يدركون حراجة المواقف وتراهم في حركة دائبة ذهاباً وعودة مشغولين كل الوقت ويقظين أيضاً وساعات قليلة فقط بأيديهم كل يبحث عن المكان الملائم لاخفاء حاجاته الخاصة فهي جزء من حاجات الحزب الهامة كان يوماً مليئاً بالتلاحم الرفاقي والمبادرات الواعية في اللحظات الحرجة وتشاور يجري على أصغر الأمور والعقل الجماعي هو السائد واذكر أن للكل جهودهم المخلصة في هذا اليوم وكما يقال في الملمات تجد الكثيرين ممن لا يملأون العيون في الظروف الاعتيادية الآن لامعين كالرماح لاتحتويها الأغطية المهلهلة ، يقتحمون الصعاب بشراسة يشتبكون معها ليأخذوا منها لقمة ويرفسونها بأرجلهم مبعدين شرورها ويسخرون منها من نواياها الدنيئة .

وهناك الرفاق من يطوفون كل الغرف واماكن الصيف ومخازن الأرزاق وأحدهم خص بالزيارة المقصودة لبرج البراجنة (١٠) فهي جديرة بالوداع اللائق وذكرياتها ستبقى خالدة . اللمسات الأخيرة تضع لترك المقر ولابد من زيارة المواقع ذات الدلالات وفي المقدمة منها الكهف المدور الصغير الذي ائتمن الحاجات في جوفه ولم يفرط بشئ منها ، كان بالإسم مشجبنا لسنوات عديدة لكنه في الحقيقة احتوى الأشياء الكثيرة فهو مخزن للبنادق بأشكالها والعتاد الاضافي وفيه اجهزة الاتصال والبوسترات التحريضية وأوراق التحقيق وسجلات الجمرك والمجلات الصادرة في السرايا ودفاتر الرفاق ووثائقهم الخاصة . فيه الألغام وصواعقها ، وقنابل يدوية وقابوريات في منتصف العمر وأمور أخرى كثيرة ، هذا الكهف الغيور كان الملاذ

الطبيعي لرفيقنا الشهيد أبو ليلى (نزار ناجي يوسف) في قضاء أشغاله الحزبية الخاصة في الأشهر الأولى من عام ١٩٨٣ . وعندما زرنا كهفنا الأمين آخر يوم وجدناه متنكراً وفي حالة الانذار المشدد منذ فترة طويلة فهو يؤكد عندما توثق أننا اصحابه القدامى دلنا على بعض الأشياء التي أخفاها وأنه عاد الى ماضيه في اقتصار مهماته على استقبال الشمس صباحاً ككل المواقع الأخرى وسيبقى هكذا حتى وقت آخر ، واستطرد في تطميناته من القلب أنه سوف لن يبيح بأي من الأسرار التي يعرفها وهي في القلب منه تماماً أنه قمة ما ارتقيت اليه من مجد فقد وسموني بلقب لم تبلغه كل المواقع الأخرى وهذا شرف عظيم . الرفاق يبحثون في منامات من عبروا قبل أيام ويجمعون الأشياء المتروكة من شواجير وأمور للطبابة ونواظير وكتب ذات قيمة كبيرة في حياة الأنصار وأوراق تحمل اسرار خاصة ، وآخرين يأتون برسوم الأهل والحفلات والعبارات المكتوبة بخط اليد ولازالت تحتفظ بعبق المشاعر الجياشة ووجدت داخل ظرف كبير وغلاف أخضر بطاقات العضوية ونسخة من ملحق طريق الشعب الجريدة المركزية لحزبنا والخاصة بالمخربين ، وصورة تذكارية لعدد من الرفاق اغلبهم شهداء وكراسة ديمتروف عن الكادر وتصريح المكتب السياسي لحزبنا عقب توقف الحرب العراقية الايرانية . وفي لجة الحركة لا ينبغي الانشغال الا بالأساسي والأمر يتطلب البرمجة المحددة بيوم واحد هو الأخير في هذا الموقع ، ولكي تسير الأمور بالاتجاهات المرسومة لابد من اليقظة ومراقبة الموقف والتحسب ذو المفاجآت وأول بأول وبهذا الشعور توجهت مجموعة رفاق الى نقطة الدوشكة المطلة على المقر من موقعها الصيفي المؤثر ،كان أحدهم يخفي الآمه وتفضحها شدة الحرارة واحمرار الوجنتين والأنين المسموع اللاارادي توتر الأعصاب وصداع يزداد وقصف مدفعي كثيف ، نعم كانت المدفعية المعادية قد دمرت أغلب قرى البرواري ومن يراقب ذلك يثق أن الليلة القادمة هي الحاسمة والمحدودة لإجتياح المنطقة بكاملها ، وبعض القذائف تسقط على مقربة من أطراف مقرنا وبعضها دخانية فقط

وللرصد . الساعة تقترب من الخامسة عصراً من ١٩٨٨/٨/٢٧ والموقف يمر ثقيلاً كمن ينتظر شيئاً بفارغ الصبر قبيل غروب الشمس انسحبت هذه المجموعة الى المقر استعداداً لمغادرته بعد قليل . حين تكون كل الأمور جاهزة ولكن التباساً في ابلاغ نقطة متين أدى بها أن تتأخر وتعيق الانسحاب فلوقت المحدد ، كانت هذه الثغرة البارزة قد اربكت خطة النهار من أن تنفذ بحذافيرها في الليل ، انفعل الكثيرين ومعهم كل الحق حيث الساعة عبرت الحادية عشرة ليلاً ولم يأت خبر من االنقطة فالكل على النار كما يقال فـــالوقت أخذ يمضي بسرعة ومجموعات أخرى خرجت بمهمات لم يكن في حسابها ومواعيدها مثل هذا التأخير ، وعلى غفلة جاءوا يكتمون الحركة بشكل جيد لكنهم في قمة ضبط الأعصاب فتبليغهم متأخر بترك النقطة ولايعرفون الوجهة الجديدة ومواعيدها وتساءلوا : ترى لمصلحة من هذا الارباك في التبليغ ومن المسؤول عنه ؟ لماذا لا توخذ المهمات بما تستحقه من الاهتمام ؟ اليس من الأسلم في هذه الحالات أن يصعد الينا أحد المسؤولين كي يتم كل شيئ وفق الخطة ولكي لاتتضارب في جوانبها الأخرى ؟ على كل حال اللائمة لاتجد شيئاً والعبرة فيمن يوظفها لاحقاً وعلينا معالجة الأمور بجهد اضافي ، انطلقت المسيرة بكامل قواها وتركنا كلي هسبا (وادي الخيول) هذا لموقع الذي تناولته بالاستهانة الألسن الطويلة الصلفة وطعنه الكثيرين . بعض الرفاق القى نظرة وداع إلى كل بقعة من مقرنا العتيد الذي كان قلعة قهرت ازلام الفاشية سنوات عديدة .. أليست من هذه المواقع وجهت الضربات لمواقع السلطة ملحقين بها الخسائرالبالغة في مئات المواقع ، كانت أمنية للكثيرين أن لاتعتب علينا مواقعنا ونتركها بما يوحي بالهزيمة.

أبداً لا فالأنصار ومواقعهم كل لايتجزأ ويؤمنون بمبدأ المصارحة وبالتثقيف الدؤوب والألفة القلبية الصادقة استوعبت هذه المواقع المفهوم الصحيح لحرب الأنصار وإرادتها تجربة مكللة بالنجاح وبهذا كانت كل المواقع جلدة في وداعنا وعقدت موعداً مع كل منا . وأحد الانصار ردد مع

نفسه وسمعه القريبون منه قائلاً (عذراً مقرنا العزيز) ولكن من جانبنا على الهد مادمنا أحياء لن نحيد عن الطريق ولتكن شاقة . كم كانت الظروف حرجة والوقت ثمين والمسؤولية جسيمة ، فهي ليلة تهم الحزب بأسره فيما تعطيه من نتائج والأصيل يظهر في نهاية الشوط كما يقول المثل القديم .

رغم الظلام والسرعة فقد أخذتنا التفاتة جادة الى تلك الغرفة التي كابدت الصعاب لتكون هي المدرسة الوحيدة في وادي الخيول فهي تجربة رائدة وخطت بمسعاها بعداً واعداً بالنجاح . إن قلقاً مبرراً يسري برؤوس كل الرفاق حيث هنا يتحدد مصيرهم وممتلكات الحزب ... حزبنا الذي لم يأبه بالصدمات يوماً ، وهذا اليوم أيضا يسجل صفحة ناصعة في تأريخه الطويل وقد تكتب بالدم هذه الصفحة أمام أنظار الأعداء والأصدقاء معاً ، وقوات العدو مستنفرة في كل المناطق وعلى امتداد الشارع متأهبة لتنفيذ خططها اللئيمة المحكمة ، وكان السجناء الأنذال تغمرهم غبضة داخلية على أن الشيوعيين سيرغمون على اطلاق سراحنا تحت ضغط الظروف الطارئة وبعضهم خارت قواهم لسوء أفعالهم ولمعرفتهم من خلال المعايشة كم هؤلاء الشيوعيين صارمين في تطبيق المبادئ وقضية الحزب لا تقارن عندهم بأية قضية أخرى . القوى الأخرى ترقب عن كثب فنون الشيوعيين في تخطي الصعاب وهم أهلاً لها . الجماهير ما زالت في ذهنها عهد الليلة الماضية على أننا وإياهم في خندق واحد ، وحتى الرفاق يحسبون كل خطوة بالتقييم ويراقبون كل تصرف في حينه . يضعونه في مقاييسهم المكشوفة الرهيفة ويشطبون بكل سهولة على تاريخ من تنال منه زلة .

اذن يجب الضغط على الجرح واستثارة الهمم وتلقين الدروس للمعنيين بها وقوة الحزب لا تقاس فقط بعدد افراده وسمك عضلاتهم وبالضجيج وفوضى التصرف التي ساورت الكثيرين .

انطلقت المفرزة بسرعة مضاعفة قاصدة العبور على طرف من قرية كركه ، الممر الوحيد هذه الليلة ، ففرصة الأمس لم تعد قائمة وكانت هذه مأساة الالاف ممن لم يحالفهم الحظ في المساء الفائت ، لقد جاءت الصورة ثانية

أمامي ، كيف اقنعناهم بالعودة وعهدنا معهم أن نكون معاً ، ولا أدري لماذا يشعر المرء بالتقصير وينتابه تأنيب داخلي وكأننا قد غدرنا بهم والحقيقة أن الوقت هو خاننهم الأول واعدادهم الغفيرة جداً حملتهم وزر النتائج التي يعيشونها الآن ، ومن كانوا وراء الإشاعات حتى اللحظات الأخيرة وجهوا طعنة دنيئة للجماهير لن تنساها . يمضي الوقت ونتسابق معه حتى أشرفنا على الشارع العام حيث الدورية بكامل يقضتها ونقاط الحراسة نرها بالعين المجردة وحركة السيارات بينهم والليل يجر اذيال ساعاته الأخيرة وكل يمسك بالبندقية بكلا اليدين تحسباً للمفاجآت وأي صوت محرم والإشارات فقط وسيلة التفاهم ونقطة للاستطلاع تتوغل للأمام حيث لاخيار غير المضي والمخاطرة في اقتحام الشارع ... الأرض المحروقة في النهار وبعض الأشجار لازالت تحتفظ في خواصرها خزيناً من الجمر يأكل ببقايا احشائها التي تعتصر آخر السوائل ، وتأتي اشارة بالحركة السريعة والمنظمة صوب النهال (وادي صغير) الذي تغمره المياه وتطوقه الصخور والحشائش المختلفة حادة النهايات . فينسل الرفاق بكل انضباط ووعي وأي تراجع يأخذهم أمام قبضة المقدرات المجهولة . ملامح الصبح لاحت في الأفق وأزيز الراجمات والمدفعية والدبابات تهز الدنيا من أعماقها . في هذا الظرف اعتمدنا أسلوب التسلل الجماعي السريع في داخل مجرى المياه التي تملأ الوادي من تحت الجسر ، هكذا تسرب الرفاق بين الماء والأشجار والصخور دون توقف كطلقة أحدهم يده الآخر بالسرعة والتوازن وهناك من هو بكامل الاستعداد لنجدة من يعثر ويغمره الماء حتى الرقبة ، فدقيقة واحدة فقط كافية للخلاص وفعلاً تم العبور بهذه الطريقة ، والحق أن لقيادة المفرزة دور رئيسي بل الوحيد في إنقاذ الرفاق من عبور محفوف بالمخاطر وقد تحقق التحدي الذي قطعناه في الطريق مع من كانت الدنيا حالكة أمامهم وهؤلاء هم وراء الإشاعة في كلي بازي التي أضرت الجماهير وأرادت الأضرار بنا أيضاً (١١) في استراحة قصيرة بعيدة عن الشارع قليلاً ، تمتعنا باستراحة لدقيقتين تقريباً لنستعيد أنفاسنا ونتجرد مما لحق

بملابسنا من أوحال ونعصرها من المياه الداكنة وبعضنا أبدل جواربه بسرعة بأخرى جافة ونظيفة . ولازالت أصوات القذائف تغزو كل المناطق لكنها تبدو بعيدة وعديمة الخطر علينا ، ربما أنا الوحيد أتمدد على طرف من المفرزة احذر ان تستهويني الراحة فهذا إغراء عواقبه وخيمة وأضراره كثيرة . قاطعتني فكرة أخرى فرضت نفسها ، أخذتني صفنة ، صورة الأمس القريب حين لم نزل في مقرنا العزيز ، هاقد بدأ الحنين اليه الى كل صخرة فيه وكل غرفة ارهقتنا في بنائها ، هكذا بكل سهولة ينال منه الجبناء ؟ وربما حنيناً الى الوريقات العزيزة التي وئدت هناك وصغائر الحاجات ذات المعاني الكبيرة.

ولاشرطة بأصوات أعشقها من القلب وتلخيصات كلفتني ساعات وأيام ورسائل اعتز بها وكراسات حزبية مركزة ، حنيناً للماء المتدفق الذي لم تنال منه كل تقلبات المناخ ، سخياً بدفئه ، صافياً حلو المذاق بعذوبته ، اشياء كثيرة لا تغادر الذاكرة ، والصورة الثانية التي احاطتني وسحرتني بكامل الاحساس ، جذبتني من الاعماق فأجد نفسي الوحيد واقفاً ، كأنه ايعازاً بالحركة فوجتها صورة لا تنفصل عن الأخرى بل امتداداً لها تراءى لي موكب شهدائنا في المنطقة التي نتركها . وقفتهم مشدوهين كأنهم يريدون اللحاق بنا ، ان لاننساهم ، عرفت منهم الكثيرين من بعيد وهزتني منهم صيحات ابوكريم (حاتم نمش) وابتسامة ابو رغد (عباس مهدي) المعهودة وايماءه من أبو اسمر وهو بهندامه القديم وعلى جانب منهم سليم ما نكيش وسليم الآخر ذو الطبيعة الهادئة الأليفة وكل الآخرين اذ لم يتغيب من شهدائنا في بهدينان واحد ، كانو مستنفرين كل بما لديه من أسلحة وعتاد ، وهكذا اذاً يتولد الحنين للوطن وللقمم الشاهقة فيه بشكل خاص . آه كم كانت بلادنا تمدنا بالدفئ والقوة والضحكة غير المفتعلة ، تمدنا بالاصرار والتفاؤل .

قمرية قرية

تقاوم وتثأر لانتزاع مجدها

آفاقت المفرزة مع بشائر فجر ١٩٨٨/٨/٢٨ وأخذوا الرفاق يلوذون بحماية منعطف أخر يهزأ بكل مهاترات النظام وأعطى عهداً أن يكون منيعاً ، يحرص على الانصار كما على حدقة عينه ، انه وادي قمرية ... فالوديان تتضامن فيما بينها لصنع المآثر الكبرى وهذا ما لم نعرفه سابقاً . نسير بطريق يلتوي احياناً وينحرف قليلاً باتجاه الشرق وعلى اليسار منه يأخذك خرير الماء يطرب النفس رغم متاعبها التي عكرتها ، وكلما تقدمنا أكثر في العمق يتصاعد الاطمئنان... قال احد الرفاق : اليوم نحن ضيوف قمرية ، هذه القرية التي سمعنا الكثير عنها ، عن ماضيها وجهادها وعن تاريخ اهلها وطيبتهم ، في مثل هذه الأيام فقط نعرف قراناً ولا ناتيها في الأيام الاعتيادية ، وللأنصار أمثلتهم اليومية إذ يقولون : في الشدائد تعرف اصالة القرى وعمق عدائها للطغيان ، وفي الشدائد أيضا تأخذها الحمية تستفزها الأحداث لتغضب وتقاتل بما أوتيت من قوة وبما تمتلك من أسلحة ، صخورها تقاتل والقمم المشرفة عليها تعتصم ترفض أن يقترب منها عدو

دخيل واشجارها تتسابق لاستضافة الشيوعيين وهي تقدم أفضل اثمارها للمناضلين وتحرمه على غيرهم ، فالأشجار طيبة القلب حسنة النوايا لم يكن في بالها مايجري من مكائد على الحدود ، بل ليس الأشجار وحدها تجهل ذلك إنما الأنصار لم يرد في خلدهم يوماً مصيراً ينتظرهم على بضع ساعات فقط فالأنصار واشجار كردستان وارفة الظل يتقاسمون الطيبة وحسن النوايا ومبدأهما الوحيد والمشترك هو الصراحة أولاً ومن ثم الاتفاق . قرية قمرية قد شملتنا بالاطمئنان الكامل وأبعدت شعور الخوف عنا هذا الشعور الذي تسبب في تبدد انضباط الأمس وحماس العبور بل اكثر استسلمت عضلات البعض لينفذ فيها التعب المتراكم وبعضهم كمن يعيش على بقايا الاحتياط من قواه . كل يجر قدميه للأمام بصعوبة والعرق يتصبب سخياً من جبينه والوجنتين وكل الانحنائات الاخرى وما أن وجد فرصة إلا واستلق على الأرض كأنه جزء منها . كان هؤلاء الرفاق قلة والاكثرية يدركون بخبرتهم الانصارية ومخاطر الاسترخاء في غير وقته ومغريات النوم والشعور بالأمان وهم يعرفون مكان الاستراحة ولايريدون التنقل أكثر من مرة فقد زار بعضهم القرية سابقاً وربما يقصدون بيتاً مضيافاً ليكونوا فيه قبل غيرهم وهكذا انشطرت المفرزة الى مجموعات ثلاثة الأولى أفلحت في الوصول الى المكان المناسب وفريق آخر من تسعة رفاق توسدوا عين الماء أسفل القرية وناموا هناك وفريق ثالث بين الاثنين قد اختاروا ماكنهم كيفما انفق هكذا (على التراش)وليس عبثاً اختياراتهم هذه فقد جذبتهم المزارع اليانعة بكل ملذاتها ، والأنصار قبل غيرهم ذواقين في اختيار الأماكن وتأخذهم (الميانة) بدون شعور منهم ليكونوا والأشجار كالتوأم ومع المزرعة أولى من اصحابها ، ومياه كردستان غالبها باردة، عذبة المذاق بل أهل كردستان قاطبة يعشقونها من منابعها الرئيسية ، ونيرانهم تعتمر على العجل ولاتؤذي ممتلكات الفلاح الذي ربما يحمل السلاح مثلهم . وبهذا تبعثرت المفرزة حيث الأوائل وصلوا البيوت في نهاية القرية وملاجئها الحصينة التي كانت على امتداد القرية بشكل شريطاً

ينحني بانحنائها وتسعة رفاق أخذتهم غفوة الصبح الى ماضي رغيد في الطريق المنحدر من القرية وهناك العدد الأكبر بين المجموعتين كانوا قد توزعوا على عادتهم في البيشمه ركه وانصرفوا كل لمهمة بهدف تهيئة وجبة الصبح والبعض حتى الآن يعتقد أن قمرية عامرة بأهلها ، إذ لايمكن للمرء أن يتصور هذه القرية وبالهيئة التي كانت عليها انها مهجورة ، فليس هناك مايدلل على ذلك وكانت كل المزارع تقطر ماءً ومناظرها زاهية وإنتاجها وفير من الطماطة والفلفل واللوبيا والخيار والبصل وغيرها مبذولاً والرفاق والرفيقات قد تناولوا الأكل الجماعي وكم كان شهياً وعلى فراش من الثيل المعطر ببخة خفيفة من الندى يشربون الشاي ويتبادلون السجائر ويضحكون ولازال تعب الليل يترك بصماته على وجوههم الذابلة ... يتذكرون الصعوبات التي زادت من لحمتهم وعزمهم على تذليلها وللذود عن آمالهم وأهدافهم التي أفنوا سنوات العمر من أجلها أخذتهم صحوة مؤقتة بالحديث وبشئ من السخرية عن عقلية عملاء النظام ومرتزقته ودنائة نفوسهم ، فهم يذبحون آبائهم وصولاً لغنيمة مادية تافهة وإن أفقدتهم قيم النزاهة وشيم الرجال وأولويات الوطنية . وبينما كان الجميع في هذا السياق من الحديث وبعضهم قد تحلل من قيود جعب العتاد المتراصفة كحزام من الطابوق منذ يومين تجثم على أحشائهم ويستلقي في مواجهة الشمس التي مدت خيوطها الذهبية لتكتسح الموقع برمته ، وآخرين لازالوا على مقربة من مائدتهم المتواضعة يتناولون بقاياها بحجة (النكنكة) لكنهم عملياً يوغلون بالشهي منها من سلاطة متكاملة المكونات وقطع اللحم وقد تحمصت في زوايا علبتها وهي على حاشية من الموقد الهادئ وفاكهة تستقطب اللعاب من أعماق الغدد ، وحتى الآن ليس بيننا من لديه تصور عن الذين مازالوا ينطرحون أرضاً كجذع النخيل على مقربة من الشارع ، أسمائهم ، عددهم ، بعدهم عنا ؟ احداً لا يعرف ذلك وعلى غفلة جاء مايبدد هذه الصورة الرومانسية في الطبيعة في قمرية وعكر الأجواء الشاعرية الساحرة التي تحدثنا عنها ... يأتي نداء يدعونا بالسرعة والاستعداد الآني

للإنسحاب ومرتزقة النظام يحتلون القمم المطلة علينا من الجنوب الشرقي بما يقارب المائة متر أو أكثر بقليل كخط نار استخف بعضنا بالخبر ولكن الالتزام تعودناه في الحياة الأنصارية والتنفيذ جماعي ومطلق . نهض الجميع كل يعالج نواقصه والقليلين كان بالجاهزية الكاملة فاتجهوا فوراً الى المنعطف القريب الغير المواجه للقمم المذكورة وآخر من الرفاق شهم انطلق من تلقاء نفسه الى حيث ينام الرفاق التسعة عند عين الماء اسفل القرية وربما كان معهم في بداية غفوتهم هناك ويعرف مكانهم ، لحظات وتبدء رماية العدو الكثيفة ، رشقات في كل المنطقة التي ننتشر فيها وبعض الاطلاقات بين أرجل الرفاق تماماً وطلقة حارقة أودت بكديس الحشيش اليابس إن يشتعل ليشكل خطراً على المحتميين به ، وبعض الرفاق والخطر يداهمهم ابدوا شيئاً من التماسك والمبادرة الواعية في وقتها وفي انتشالهم للبنادق وأولها كان ال بي كي سي الى جانب النواظير والمخازن وحقائب الرفاق البدينة بالأشياء الضرورية والخاصة ، لكن قوات النظام واصلت الرمي بكثافة وظنوها فرصتهم للغدر ديدنهم الخسيس ، فتطلب الأمر الاختفاء التام لحين أن يتسنى للرفاق في المواقع الأخرى الرد والمشاغلة لتأمين اكتمال انسحاب المفرزة المشتتة ، كانوا هؤلاء المرتزقة قد فاتتهم حقيقة إنهم يؤدون مهمة لاتشرف وأيديهم قصيرة وافق تفكيرهم محدود بمدي مايقبضون بأي الوسائل ولهذه الاعتبارات وغيرها ارتبكت قواهم وكانت لهم أصوات أخرى منكرة وخانهم افتقارهم للمعنويات أصلاً وهم ليسوا أهلاً لها . ولازالت بنادق الأنصار مشرعة وأيديهم بالكفاح الثوري متكيفة على الزناد والشعيرة . قالو : هم بدأوها فلتكن ملحمة قمرية المتميزة ولتشهد هذه القرية الأبية ذات التاريخ العريق ان هؤلاء المرتزقة اذلاء وهم مطايا للفاشية البغيضة عدوة شعبنا .

يمر الوقت واطلاقات النار منهم همجية وأصواتهم الخلفية والحق يقال تسمع منهم بوضوح أيضاً كصدى متزامن من الاطلاقة . ونقطة الخوف الرئيسية كانت على الرفاق وقد عرفناهم تسعة خاصة والصعوبات على

بعضهم مضاعفة ولازالت في نفس المكان بعض الأسلحة والأدوات والحقائب وأمور أخرى أنتشر الرفاق على أكثر من سفح وفوق القمم والمواجهة للعدو وايقافهم عند حدهم وواجهت نيراننا بكثافة مضادة وسديدة ومتواصلة حتى الغروب تقريباً .

وقمرية ترتدي ملابس الحزن ومظاهرها مؤلمة تترك في القلب حسرة عميقة، الان عرفناها مهجورة تماماً منذ الأمس كان هذا مفاجأة للكثيرين وما أكثر المفاجئات والخفايا المجهولة ، قذائف ال أر بي جي تنهال على القرية لتحرق الأخضر واليابس وتعيث بالبيوت خراباً ، وأشجار (السبندار) (١٢) فارعة القامة تعانق الجبال هي الأخرى تشتبك مع العدو أيضاً وأجسادها دروع مضادة لهم تقي من يخبوا خلفها لم تحني قامتها له فهي أشجار أروع مافيها قامتها الشماء الى جانب تنديدها بالفاشية وسخريتها من الرصاص المعادي الخائب أما البيوت فهي تحكي العجائب ، تروي قصص رحيل اهلها الطيبين ولكن باللغة الصامتة الحزينة فهذه خطوات من كانوا حفاة ولازالت مطبوعة في الوحل على جانب مجرى من الماء النحيف وذكرتني وبالجرف (١٣) وأماكن النوم كما هي مفروشة في أولى ساعات الليل المكبل بخفايا المستقبل ، لكن قمرية هذه الليلة لم تعد على سابق عهدها أجوائها رغيدة وفي غضون دقائق تقرر تركها كما يبدو في وقت واحد بدليل إن أثارهم تؤكد ذلك مناماتهم في بدء تهيئتها قبل النوم فيها فهذا مكان رجل البيت على طرف وذاك مكان الشاب وزوجته في مكان يؤمن لهم الخلوة المطلوبة وأماكن الأطفال بعيداً عن مصادر النار وهناك بالتأكيد كانت الإمرأة وهي تعد وجبة العشاء لكنها لم تنته منه فالطماطة في إناء مقطعة وبقي البصل المفروم لوحده يحترق وسط بركة من الدهن في مقلاة على نار هادئة ، وأخرى تفتح رغيف الخبز على النصف فوق قطعة الخشب المسطحة (الخانك) (١٤) وقبيل أن يرتديها الصاج المحموم حد الاحمرار تترك الحالة بهذا الموقف وكل يأخذ طريقة للانسحاب ومظاهر أخرى عجيبة . وقمرية تبدو من هيئتها انها غنية بانتاجها فهناك اكداس من الارزاق في

كل بيت والاثاث الفاخرة وصور عائلية بشئ من العناية وأوراق زواج وأواني زجاجية لم تدخل ميدان الاستعمال المطبخي بعد . وغيرها ويترك كل شئ على ما هو عليه بعد ظهر ١٩٨٨/٨/٢٨ دفعنا الجوع الى بيت متروك يجاورنا فقصدناه وأخذنا ما يكفي لوجبة من الرز وقليل من الدهن والأواني اللازمة لطبخها وما عداها فمن المزارع مباشرة ، ورفاقنا بعادتهم يتوجسون في أخذ ذلك على انها ممتلكات الناس وربما في الليل يكونون عندها والتجاوز على قليل منها يعرضنا للإحراج أمامهم في المساء القريب ، لم يكن في بالنا ان هذه الأرزاق وغيرها هي ستكون غنائم المرتزقة ما أن يحل الليل ، تمر ساعات العصر وقذائف العدو لازالت تنهال على قمرية فحقدهم عليها دفين . في ساعات الغروب ازدادت القذائف وظن بعض الرفاق أن تسلل من الجنوب تعرضت له القرية وازدادت الخشية على الرفاق المقطوعين عنا منذ الصباح فهم حتى الآن مجهولي المصير ، وتصاعدت أعمدة الدخان بكثافة في ارجاء قمرية وتولد شعور أن المقاومة القادمة ستبدء من هذه المواقع الملائمة للمقاومة وقهر أي تقدم ينويه العدو ولم يردفي خلد أي منا المصير الذي عرفناه بعد يوم واحد على امتداد الحدود مع تركيا ، كل ما في بالنا اننا تجاوزنا المخاطر الحقيقية وسنرغم العدو على التقهقر يجر أذيال الخيبة . عند الغروب لاح شبح في الأفق من بعيد على قمة من الغرب وصوت من هناك لم نفهم مايقول اقترب قليلاً فاقترب منّا صوته ... إذن رفاقنا في الحياة يا للفرحة فقد خابت كل مراهنات الأوغاد وعار عليهم ما بذلوه من عتاد فلم يحصدوا سوى الهزيمة ، جاء الرفاق وعمتنا البهجة والمصافحة الحارة المهم هذا اللقاء أما التعب الطويل فهذا تبدده عزيمة المناضلين التي لازالت ذغيرة منها لمثل هذه المواقف ... تحركت المفرزة ارتداها جبل عريق اخر فنحن في عهدته ومن خلاله نسير مع الرفاق التسعة بعد أن اشرفوا على الموت الحقيقي وكأن فراقنا معهم دهراً على جانب أجرد نسير بتلاحم ومعنويات قوية وكل ما تسلقنا أكثر نشرف على مناطق البرواري التي كانت اعمدة الدخان تخنق

صدرها ورأينا معالم مناطقنا هناك التي نعرفها بدقة ونحن اليها القمم التي كانت تحتلها نقطة متين وبدايات وادي بازي التي تشتبك مع الموت الفاشي وعرفنا امتدادات وادي الخيول ومعالمه ... وهنا قد لاذت الشمس دون سابق انذار لتطمس بصيغة تآمرية معلنة انتهاء واجبها النهاري المرهق .

تحركنا وملاحظات الرفاق وايضاحاتهم بدات عن قمرية وتاريخها وكم عانت في عمرها من قذائف مدفعية النظام وطيرانه ، لقد أمدت الثورة بالحاجات الضرورية وخاطرت في استقبال البيشمه ركه وحتى هذا الطريق الذي نسلكه الآن لم يبخل يوماً في الأخذ بأيديهم بعيداً عن مداهمات العدو وكان حلقة الوصل الرئيسية بين الثوار ومتطلبات حياتهم اليومية وبينهم وبين الجماهير مصدر قوتهم . في هذه القمة جرت عدة محاولات بجهاز الاتصال المتطور لمعرفة الوضع عند المكتب العسكري المركزي ولكن لم يحصل هذا الاتصال وبهذا انقطعنا ايضاً عن الفوج الأول وانقطعت معلوماتهم عنا نسير بمعنويات عالية وقبل ان يحل الظلام دخلنا قرية أخرى لم يسبق لأغلبنا زيارتها قبل الآن واعتقدناها مأهولة لكن المفاجأة حين عرفناها خالية إلا من رفاقنا ممن وصلوها في النهار من قمم كانوا يحتلونها كأسناد لنا في موقفنا مار الذكر في قمرية . إنها قرية هرور الصيفية (زوم هرور) كان العشاء على طريقة إخدم نفسك بنفسك وأكثر الزاد توفر هو الدجاج الأمن تعب الاعداد والطبخ فقط أما المنامات فكل على ذوقه في الاختيار وبعضنا يطوف في البيوت بحثاً عن لحاف بمواصفات يرتاح لها . بعد تعب طويل كانت ليلة هنيئة ونوم من الأعماق حتى الصباح ومنذ ساعاته الأولى تحركنا بانضباط عال فدرس الأمس استقر في الذاكرة طول العمر ، والإهمال لم يعد مدعاة (للمحارشة) والأوضاع تبدوا جادة في تعقيداتها ولاتشفع لمن يرتكب خطيئة وهو وحده يتحمل ماتجلبه من عواقب . كانت تسير معنا قوات أخرى وجماهير ولم يكن لديهم جديد من المعلومات عن المنطقة أكثر مما نعرف ... الأرض جرداء والطريق مسحوق من كثرة المارة وهذا مما عزز المخاوف من الطيران والمباغتات .

وينشأ قلق لم يكن في البال

ونحن نسير قاصدين الحدود ونقطة تجمعنا بكامل القوة ، جلب انتباهنا شيئ غير طبيعي وحركة الطائرات التركية المتواصلة على الحدود ، وخلق هذا بدايات التخوف ... إذن نحن أمامنا مصيدة والمثل يقول (الطير النجر ينصاد من منقاره) لم يكن في بال أحد منا الحقيقة التي عرفناها بعد يوم من وصولنا كلي شهيدان على الحدود مع تركيا . كان اعتقادنا السائد أن الجماهير تتخذ من المواقع الحصينة ملاجئ لها وبحماية البيشمه ركه ممن توزعوا للالتفاف على العدو وايقاع الخسائر في قواته . وصلنا ظهراً فكان الفرح كبير بوصول الوجبة الأخيرة من الأنصار ، واكتملت القوة بعد مسيرة طويلة متعبة . إزداد الخوف عندما وجدنا من سبقونا بوضع نفسي معقد ، والجماهير اندفعت مضطرة داخل الأراضي التركية ، واشتبكت مع الجندرمة في أكثر من موقع ، ووجدنا اعدادهم الحقيقية تفوق بأضعاف ما كنا نعتقد وقد تعرضت جماهيرنا هناك للإهانات من عناصر تركية حاقدة وهددوهم بالتسليم الاجباري للفاشية بكل صلافة . كانت بعض الاشاعات بالضد من مصلحة الجماهير الى جانب مخاطرها ومضاعفة متاعبها ، حيث راجت اشاعة ان العبور الى تركيا غير ممكن من هذا المحور عند قرية خنوكي الحدودية ، وربما تكون الفرصة مواتية افضل من محور آخر على طريق قرية أورى ، وأمر كهذا يتطلب العودة للعمق العراقي ومخاطرة استفزازية ، الى جانب عدم وجود ضمان بمثل هذه المحاولة للعبور من

هناك مع تأثير الجوع الذي هد القوى وأخذ يغزو الجماهير الفلاحية وعوائلهم الفقيرة وامكانياتهم المحددة ، ممتلكاتهم الأساسية كانت عبارة عن الأرض الخصبة والمياه الوافرة وحيواناتهم التي تشكل ثروتهم الكبيرة وقد ناصبتهم الدكتاتورية عدائها السافر منذ سنوات ، فالحصار الاقتصادي هو السمة البارزة في افعالها وفرضت على منتجاتها المحاصرة المشددة أما ثروتهم الحيوانية وهي مركز رزقهم اليومي فقد تفرهدت بالآلاف بأبخس الأثمان إن لم تسطوا عليها الضواري البشرية ... كانت قطعان الغنم والماعز والأبقار والبغال والخيول والدواجن الى آخره ، تملأ الوديان وتأكلها الوحوش الهائجة . ان الأحداث بما هي عليه من مخاطر ترغمهم على ترك الممتلكات وبهذا تجردوا من مقومات العيش وظماناته ، ويغادروا ارضهم والبيت مرغمين واشجارهم المثقلة بالثمار . ومناظرهم في الانسحابات مأساوية ومؤلمة جداً ، يتبادلون الحسرات يأسفون عدم اغتنام الفرصة لبيع اغنامهم قبل الآن وتحويلها الى عملة نقدية سهلة النقل تحسباً لمثل هذه الأحوال ، فقد كانت اسعارها باهظة لكن للظروف احكامها الجائرة .

إن متاعب مصاحبة الحيوانات لا تحصى وعليه أن يتركها في أي وقت حينما يتعرض للمخاطر أو تداهمه اسراب الطيران وهو في أرض مكشوفه ، أو كمائن الأعداء ، أو عندما ينكشف النهار لتجد الرايا من كل الجوانب ، وبهذه الظروف كثيراً ما تكون ممتلكاتهم ليست من نصيبهم . وعند تعذر العبور في الليالي الماضية بقيت الآف الأغنام محاصرة في البرراري باله مما اضطر اهلها للهروب وتركها هناك سائبة ، فغنموها المرتزقة عند تقدمهم على المنطقة أما التي أمكن ايصالها الى الأراضي التركية وهي بعشرات الآلاف أيضاً فقط هبطت أسعارها حيث التي كانت قبل يوم تصل السبعين ديناراً مثلاً تراجعت الى أقل من العشرين دينار فقط . وكانت القطعان متروكة في الوديان لوحدها . ومما هو مؤلم الصورة التي يغادر بها الناس حيواناتهم وهي تموت أمامهم ولا يمتلكون حلاً لها وكانت هذه كارثة على الجماهير حيث انتزعت منهم ممتلكاتهم تحت ضغط الفوضى

والتعب والمخاطر والخوف والانهاك والتشتت وخرجوا بأنفسهم فقط وتحولت الشعاب الى بؤر لا يمكن اقتحامها من تأثير الروائح من الحيوانات المتفسخه . وبقايا المذبوحة منها . وعند الحديث عن مأساة الجماهير فإن جزاءً من هذه المأساة جلبتها لهم مواشيهم التي تسببت في تأخيرهم وأرهاقهم حتى وصلوا نهاية المطاف فتخلوا عنها. في هذه الأيام نشط تجار السوق السوداء فهي فرصتهم وظهروا (القشورية) (١٥) على حقيقتهم . وحتى البنادق لم تعد مدعاة للاعتزاز في هذه التطورات الشائعة ... الأخبار تصل عن آخر تطورات الموقف على الحدود وهي تثير الهلع أكثر لدي الجماهير والتهديدات في كل نقطة عبور والاف الجماهير يفترشون الأرض ليلاً ونهاراً ويتهامسون فيما بينهم في أن تكون أية اهانة من جانب الجندرمة التركية الحقيرة هي ساعة الصفر للتصادم معهم وليكن ما كان ، فكفى تحملاً ما دامت المسألة تتحدد بالكرامة أو الموت ، فالموت بكرامة لا زال بطولة .

إن هذا الواقع هو الشكل الجديد الذي تجلى فيه تلاحم الجماهير وغيرتهم على بعضهم وتناسي الخلافات السابقة ، وكانت الأوضاع على امتداد الحدود مشحونة بالجديد المرعب والأحلام السوداء تراود الكثيرين وتداعي المعنويات ينتاب بعضهم والوقت لا يحتمل المراوحة على الحدود ، لابد من الاندفاع الى الأراضي التركية فهذا هو السلاح الجديد اللازم للمنازلة في الميدان وهو بهذا الحال اصوب وأمضى من البنادق تحت ضغط الأمر الواقع .

أما انصارنا فحتى الآن يتوزعون في وادي كالح ومكروه وآثار الآلاف تترك بصماتها على امتداده فقد تجردوا هناك مما يثقلهم من ملابس وبطانيات وأمور أخرى كثيرة ، نعم كان الرفاق مهمومين لا تسعهم الأماكن فهم في حركة ووجوههم شاحبة وإن كانوا لازالوا يمسكون بالبنادق ويعززون مخازنها بأخرى اضافية جديدة وتبديل القابوريات بأنواع أخرى أكثر جدة ، ويبحثون عن الزمزمية اللامعة وحقيبة الظهر والناظور والقنبلة

اليدوية وحربة حادة تتوهج ... فمن جديد ينبغي التأثيث لحياة البيشمه ركه في ايامها العصيبة ، وتحدياً لمن القوا بأنفسهم متهافتين في غياهب المجهول المظلم المظلم ، إن هذا مأخذ مادي ملموس على ضعف هؤلاء ووصمه دامغة في تاريخهم وعندما عرفنا ان مفرزة تحركت بحثاً عن مقر مؤقت طفحنا بالمعنويات والنشوة والمرجلة ، وحتى الآن ليس ببال واحد منا أنها ساعات فقط ويفرض علينا القاء السلاح بكامله عندما تعقدت الأوضاع وللتاريخ ان قوتنا بقيت لوحدها حتى الأخير والتفاف قوات النظام الدكتاتوري على كل المحاور الرئيسية وتهديد موقعنا بالتطويق والمخاطر الجدية المميتة . هكذا تولد ثم تعاظم القلق مع تقدم الوقت وكانت بعض المعلومات قد افادت أن اعتقالات واسعة بين الجماهير وبيشمه ركه الأحزاب وحتى مجموعة من انصارنا كانت بمهمة استطلاعية قد شملها الاعتقال ومصيرها مجهول ومهدد ، وفي هذا الاثناء عادت المجموعة التي كانت تبحث عن مكان ملائم كمقر مؤقت وهي بقناعات ان فكرة اختيار اماكن معينة كمقرات ليست واقعية على الاطلاق ومستحيلة حيث كل المواقع التي كانت في البال هي الان تحت قبضة قوات العدو ، فمن جديد تبدد الأمل في امكانية الاستعداد للعودة المعاكسة . تأتي ليلة ٣٠/٨/١٩٨٨ ثقيلة كئيبة بشكل لا يوصف ويتعمق التعب حتى وصل العظم وشل الأعصاب ... تجد مجموعة رفاق يقبعون تحت بطانية واحدة وآخرين يتقلبون على الأرض وجهاً لوجه مباشرة حتى يأتي الصباح يحمل الجديد من الأخبار المفرحة ينصرف كل الى مهمة معينة في المواقع العديدة ، فالانتشار لايستثنى احداً فهو اجراء ضروري ريثما يتقرر شيئ من الهيئة القيادية وربما الواقع يفرض اجراءاته التي لا مناص من الامتثال لها . ان قلقاً واقعياً خلقته الأوضاع والأخبار الواردة كل ساعة وآخر الأخبار أن عددا من البيشمه ركه لم يعبروا الحدود التركية فقط اضافة الى انصارنا بكاملهم واللقاءات تعقد بشكل متواصل لكنها لا تتمخض عما يبدد حالة الاكتئاب المخيمة على النفوس والكل يسلبهم قلبهم عما يحصل للآخرين وآخر التطورات على كافة

القواطع وانقطاع الاتصال لا زال قائماً مع قيادة الحزب ومواقعنا الأخرى رغم المحاولات العديدة . أما الجماهير آلاف العوائل فقد خاطرت واندفعت داخل الأراضي التركية وتدافعت واصطدمت مع الجندرمة في أكثر من موقع ، أما البيشمه ركه فيرقبون نتائج هذا الوضع ... يقفون خلف الجماهير ، يلوذون بها وهم طليعتها كما يدعون ولكن الواقع له منطق آخر لا يؤكد ذلك ، في حين كلمة بيشمه ركه كردية ومعناها (فدائي) ينبغي أن يخوض الوغى قبل عامة الجماهير ليكون أمام الموت من أجل القضية ، ماذا يدور في رؤوس هؤلاء الناس ؟ لماذا بهذه السهولة يعتمد اللجوء الجماعي ؟ وبكلمة ادق لماذا لم تحصل مقاومة للعدو ؟ لماذا اختيرت الحلول الأضعف ؟ هذا كان مأساوية الموضوع ككل . في هذا الظرف الدقيق كان الاجراء الأول أمامنا يقضي بارسال عدد من الرفاق المرضى ومعهم الرفيقات ورفاق لهم ظروف خاصة ، كان قرار صعب جداً لا يستوعبه أحداً فهؤلاء الرفاق رغم امراضهم مناضلين بعقولهم في أصعب الظروف وآثارهم هذا القرار باعتباره اهانة لهم واستهانة بتاريخهم الطويل وكأن ذلك محاولة لابعادهم عن الحزب ، في وقت كانت فكرة القرار ان يكون هؤلاء الرفاق وبسبب ظروفهم الخاصة مع الجماهير يذوبون فيها في القرى التركية ، الخواطر تعكرت كيوم القيامة والرفيقات بشكل خاص دموعهن نابعة عن حرقة قلب حقيقية ، حدقات العيون حمراء تجدح بالغضب معبراً عنه بالصمت والدموع الحارة وهذا قراراً كان مرفوضاً رغم أنه لخدمة الحزب وفرضته الحياة القاهرة . لكن هيهات اقناع الرفاق بتنفيذه فهم يقولون : هذا ليس سهلاً أنه كل شئ ويصعب تحمله . وقبل تطبيق هذا القرار وفي اعقاب احدث الاجتماعات التي درست الموقف العصيب المرتبط بالواقع بالغ التعقيد ، كان الاختيار الذي لابد منه وليس من طريق آخر سوى اختراق الحدود لجوءاً للأراضي التركية اسوةً بالجماهير وبهذه الطريقة تداخل القرار الأول بقرار آخر اشمل منه هو اللجوء الجماعي ، كم كان قاسياً هذا الاختيار بعد ان تبددت كل الآمال للحصول على مواقع تصلح كمقرات مؤقتة . إذن

القرار الوحيد ممكن التطبيق رغم مراراته هو الانظمام الى عموم البيشمه ركه للقوى الأخرى كان هذا مفاجأة للرفاق ولم يرد ببال احداً منهم قبل الآن بل لايراودهم في الأحلام أيضاً انه بمثابة الطعنة لقلب الكثيرين ومن جديد انهمرت دموع اغلب الرفاق لكنها ليست دموع بدون معنى ولا هي تعبيراً عن خوف أو ضعف ، انها قبل كل شئ تعلقاً بالحزب وبالنضال ... وتعلقاً بالأرض التي ترعرعوا فيها والمواقف القوية التي اعتادوها ، جاء التوجيه الآخر بالتخلص من الوثائق وكل الأمور الخاصة بشكل جيد استعداداً للالتفاف بالجماهير في خنادقها وتحمل ما ينطوي عليه هذا الارتماء من نتائج وهذا القرار هو الآخر ذو وقع أليم على الرفاق لادراكهم مخاطر ان نلقي بأنفسنا تحت رحمة المجهول المخيف . ونتجرد من السلاح تلقائيا وهو وسيلتنا المادية لتطبيق السياسة الصائبة . يعون ان لا تضيع من ايدينا المبادرة ولا نفرط بالاستقلالية التامة ، فهي سمتنا الرئيسية عن كل الآخرين ان هذا اليوم كان بمنتهى اللوعة وأمر من العلقم لكن ليس في اليد حيلة فهو الاختيار الوحيد الممكن وهنا تجلت مواقف الرفاق التي كانت مشرفة في غالبها وبعضهم يتردد من أن تغادر اشيائه الخاصة جيوبه الداخلية فهي والبندقية بنفس المنزلة عندهم ، إذ يصعب حرق الرسائل حتى القديمة منها الممزقة فهي خلاصة تفكيره الذي تطور مع تقدم عمره ، كتبها في سني نضاله المشرف الطويل ويسعى لتعزيزها ، ورفيق آخر يحتفظ بصورة شهيداً للحزب في مقدمة دفتر ذكرياته الى جانب صورة زوجته البشوشة التي تحثه على الصمود ومع الصورة طفلهما الوحيد الذي اخذ يتكلم بعيداً عن أبيه الثائر الصبور ، وربما جانب من الرسالة كانت بخطه المتعثر الضعيف وهذا مبعث الاعتزاز بها وآخر يلقي بها بكل الوثائق بين ألسن النار النهمة وينحني جانباً يرقب كيف يغزو سناها الصور أولاً بأول وهكذا تنكمش الأوراق تقاوم وكاحة النار وصلافتها كأنها متشفية بما حل بالمناضلين . وصورة تكبس اللهب أولاً ثم تتقلص لتنقلب وتجدها عن احتفال الحزب وعبارة بخط كبير : المجد لشهداء حزبنا الشيوعي العراقي

العظيم يقف مشدوهاً بها ودموعاً حارة تعبيراً عن النقاء بهذه الطريقة العاطفية وآخر يتوسل أن يعطى له المجال في البقاء حيثما يريد الحزب فهو يقولها بصراحة أنه لا يستطيع بأي الأشكال ترك الوطن ويفضل وهو بكامل الوعي أن يموت فيه على كل الاختيارات الأخرى ان مثل هذه الحالة لم يألفها الرفاق بحياتهم ، فهم حساسين ازاء المساس بالمواقف المبدأية وتثيرهم المساومات غير المتكافئة ومشاعرهم نبيلة ، افنوا شبابهم من أجل الحزب ولا زالوا رهن الإشارة . تمرسوا بالنضال منذ بداياته وواكبوا الحزب ملبين نداءاته وتعلموا قيم الشجاعة ولازالوا على أعرق تقاليدهم التي ارساها الحزب فيهم . همهم مصلحة الحزب وتجسيد وحدته خاصة في تجاوز الصعاب وتنفيذ الالتزام مطلق واعتماد العقل السياسي المرن والمحنك في التعامل مع العقبات الناشئة في طريقه وأمام ارادة الحزب ينحني الجميع وهذا ابلغ درس في هذا الموقف . وهكذا يلقي الجميع بأسلحتهم وملحقاتها في غضون دقائق ويلجأون لسلاحهم الامضى ، افكارهم التي اخذت اماكنها وأعلنت السرية التامة والسبات الضروري وحتى اشعار آخر .

تستعد المجموعة لدخول القرى التركية ولا جدوى من التأخير لكن المشكلة أن الطرق مجهولة والسيطرات تنتشر ومتشددة على النقاط والرفاق يجلبون الانتباه فهم لا يجيدون اللغة الكردية ومجمل ملامحهم لا تنسبهم على شاكلة العوائل المهاجرة من الارهاب والأصعب من كل هذا هو الشعور العام بما تحمله الأيام القادمة من ملاحقة وجرد وتحقيقات تستهدفنا أكثر من غيرنا . وكم يشعر المرء بالضعف بعيداً عن سلاحه والوطن وهو يركض باتجاهات مجهولة وتثير الريبة ولكن بهذا وحده تحدداً لاختيار . تتسلل المجموعات وأيديهم متشابكة خلف الظهر كمن يتعرى تماما أمام الناس ، تسير هذه المجموعات كل وفق تقديراته ومجازفات البعض فيها غير مبالين بما تحمله من مخاطر ، في الليل في أولى ساعاته تتدفق جموع الرفاق من هنا وهناك لتكون داخل الآف العوائل ... وبمقدار تردي الظروف في هذه

المواقع فكل أخذ يلتزم بالمقربين له فقط وتحولت الحياة الى التزامات وتضحية ومآثر . وأحياناً يراود البعض شعور بالاحباط والغربة القاسية جداً ويتلمس تجربته الشخصية رغم بساطتها ، علها تضعه على الطريق القويم والمغامرات احيانا تشكل في حياة المناضلين محطات نادرة جديرة بالاقتداء والتطوير .

أذكر وأنا التمس الطريق اتبين محط الاقدام على سفح أملس لايستقر على ظهره الماء كما يقال ، وفي غفلة لعينة اهتزت قدمي اليسرى وزلت عن موقعها لتأخذ بكامل الجسم الى مهاوي الانحدار متدحرجاً وسط الاف الصخور متباينة الأشكال والأحجام مالايقل عن المائة متر تقريبا ، وأموالي جميعها منقولة دون عناء (مشياً أو تدحرجاً) وهي عبارة عن بطانية توشحت بها مقايضة بالسلاح وكنت مع هذه البطانية الفاخرة كتلة واحدة لاتتجزأ . الى جانب حقيبة الظهر قليلة المحتويات.

وجدنا العوائل هناك حياتها مربكة ، حاجاتها لا تحصى ، لم تألف التجرع بهذه الحياة والظروف وتخشى أيضاً والحق معها مستقبل التعامل ، ودقائق ويذوب الرفاق بين الجماهير ليكونوا جزءاً لايتجزأ منها ، لإزالة حالة الإنكسار التي تشكل حاجزا امام سرعة التفاعل والانصار يتحاشون الأسئلة ولا يحبذون الحديث المسموع ويهجرون الكلمات المثيرة للمشاعر القومية ويروضون السنهم عن كلمات الكفر والغزل ولا يتسامحون مع من يستهين بذلك . ويعتبرون الأسئلة استفزازية وموتورة حتى عندما قد لا تحمل من ذلك شيئاً وأكثر الأسئلة ازعاجاً : ما هو مصير سلاحكم ؟ أحقاً كنتم لا تعرفون بهذه الأمور قبل حدوثها ؟ كيف تعاملتم مع السجناء عملاء النظام ؟ هل قاومتم التقدم ؟ وتبقى الأسئلة أو أغلبها دون أجوبة ناطقة والسكوت وتقاسيم الوجه هو أجوبة بلغة الصمت المتميزة ومع الجماهير رغم انكسارها يشعر المرء بما يمنحه القوة وتستنهضه بوادر التمرد الإنساني الضعيف .

كانت حياة الناس ائتلافية ، ونشطت المقايضة فيما بينهم ، والراديوات

القوية خاصة منتداهم ونواة تجمعاتهم عند الغروب ، والكثيرين منهم يفسرون الأخبار على هواهم وبغير حقيقتها ، وكل يروي النوادر التي تعرض لها ، ويأسف على حاجاته التي يمكن بوسعه نقلها ويفضل حتى حرقها كي يرتاح قلبه . ومع تقدم الأيام يتطبع الناس على هذه الحياة ، ومنهم من يعيش على الماء والبسكت أياماً طويلة ، وبمقدار ماتحمل الأيام من صعاب تحتفظ النفوس الأبية بالكبرياء ولاتتنازل قيد شعره عن مواقعها الرفيعة ومبادئها الانسانية السامية .

في لجة الأحداث المرأة طاقة هائلة

من يستنطق الأحداث يجدها أصدق محكاً عملياً لمعرفة جهد هذا وذاك من البشر ومقدار التضحية قد لا تصدق ما لم تقرأ آلاف القصص النادرة في كل يوم ولكل موقع حوادث ومغزى . وحين تسأل تجد الجديد الذي لم يوثق لكن الرواة يعكسون حدوده الدنيا فقط . والرجال لازالوا لم يختبروا نسائهم قبل الآن حتى جاءت معطيات الحياة لترغمهم على الإنحناء الاضطراري أمام المرأة وجهدها المجهول فهي في كل الأوقات جسورة باعتبارها وليدة هذا الشعب المكافح ، تحمل تراكم معاناته ، لا تهاب المواقف الحرجة كأنها بالأنذار في منتصف الليل أو في الظهيرة ، فهي اول من تقدم لعبور الشارع ، وتهزأ بكل المواقع المعادية ، عذراء كانت أم منتصف العمر غير ابهة بمن يصحبها رجل كان أم رتل من الصغار قد يشكلون عبئاً عليها . وهي عرضة للأمراض أكثر من غيرها ، كحالات الولادة التي لم تتوقف تأثراً بالأوضاع الى جانب أمراض النساء الخاصة ، التي تجري في ظروف عسيرة تفتقر لأبسط المستلزمات مما يتسبب بالأحراجات ومخاطر الموت من مضاعفاتها فحالات النزيف والاغماء والتقيؤ والاسقاط تجري في كل الأوقات ، مع انعدام الأدوية والراحة حتى لمدة ساعة واحدة ، وقد ازدادت الوفيات في الوسط النسائي وبين الأطفال الذي سائت تغذيتهم بسبب تدهور صحة الأم وتعبها وتردي تغذيتها وهي التي لا

تفرق بين أولادها ، وربما الصغير اقرب الى قلبها فهو وليد المحنة كما تقول ووراء المتاعب والشقاء المر الذي صاحبها وتسبب في سهدها وعدم قدرتها على الوقوف بكامل القامة . إنه عذاب يا الهي ماذا جنينا كي تكافئنا بكل ذلك ؟ حالات تحصل على غفلة وبعيداً عن الطبيب وفقدان الاستقرار ووسط المخاوف والفوضى لكنها لم تذرف دمعاً ولم تلوب بما يجلب انتباه الآخرين ، بطولة النساء خاصة الأمهات بطولية وصبرهن رهيب فهي تكتم الآلام وتستنجد بزوجها دون غيره لتبيحه كل أسرارها وهو الأكثر قرباً منها وارتباطاً مصيرياً معها . وهي تلوذ خلف شجرة لا تؤمن لها درجة كافية من الستر ، فهي ولادة امام الأنظار . عرفت بما لا يعطي المجال للشك ان النساء طاقة هائلة في كل شئ حيثما وجد الرجل كانت معه عضيدة تتحمل عبئها بجدارة وقوة كانسانه صقلتها الحياة بخشونتها الضرورية فهي تظلل على الأبناء ولا تفارقهم لحظة ، ومع الآباء لا تنام الليل تبدد الهموم بشجاعة لائقة بها في كل تجمع ، وبوجه أي ضابط حقير باع نفسه للفاشية ويتطوع لتطبيق خطتها الاجرامية ضد شعبنا ، تحرس على الصغار وتحافظ على الممتلكات ، كأن البؤس قدرها الوحيد تقاوم بحدود لا تصدق امام التعب والجوع والسهر الطويل والعطش القاتل ... الخ .

فهي اخر من تنام وأول من تنهض ما أن تسمع صوتاً غريباً وتبلغ عن التنوير المعادي وشدة القصف المدفعي ، وأحياناً للنساء مبادراتهن في تشكيل المجموعات للحراسة على بقايا ضوء القمر ، ولتلبية حاجات طفلها وتحسباً لمتاعب اليوم القادم ومفاجآته . أما على الأطفال فتأثير الأحداث فوق طاقاتهم وبعضهم انذهلوا بها ويعيشون حالة من التوتر ولا يأخذهم النوم وعبثاً يحاولون ذلك حتى في وجود الاستراحة ، صغارهم كالبراعم لا يجدون ما يسد الرمق وليس بوسعهم مواجهة الأرض مباشرة وتخيفهم عقاربها الهائجة تضامناً مع الفاشية العفنة . ولكن دود الأرض ليس كله معادي وعار على العقارب اختيارها غير المشرف . لقد اعتاد صغار كردستان مشقة الحياة الاستثنائية واستباح الداء الآلاف منهم الفوا صوت

الطيران وتطربهم انفجارات المدافع وعندما يكتبون شيئاً أو يطرزونه على الأرض تجده طيارة وجبل ومقاتلين . أشياء كثيرة خاطئة فرضتها الظروف عليهم ووسمتهم أحياناً (بالمشاكسة) ، ومفاهيمهم مأخوذة من الجهالة ، ويعيشون في وسط متخلف وليس للوقت قيمة عندهم فهو يمضى هباءاً ، ومدارسهم مغلقة وليس لاشعار آخر ، ولم يعرفوا التلقيح ضد الأمراض واعداد الأطفال كبيرة ومناظرهم مؤلمة جداً ، فالفلاحين لا يؤمنون بطريقة التحكم بتحديد النسل بل يريدونه كثيراً لعدة دوافع ، فهم أولاً يريدون لشعبهم الكثرة لمواجهة شوفينية القوميات الأخرى ، كما ويعتقدون أن صنع الأطفال مرتبط بإرادة الله دون غيره . والبعض يريدونهم لتعزيز ارزاقهم ، وللمرأة قصد آخر بكثرة اطفالها الذكور خاصة لاغراء زوجها وكبح تطلعاته من أن يأتي بزوجة أخرى ، إن مثل هذا التفكير يخيف النساء ويدعوهن لمعالجة حالة الجفاء مع الرجل دون أن تتراكم . ويصل الأمر ببعض النساء ان تتعامل مع زوجها كأنه طفلها المدلل . وعندما تتحدث عن الامهات فلابد أن يتداخل الحديث ليشمل الأطفال كجزء من الكل . وتجد بعض النساء تؤدي دور ليست معنية به ، فهي تعمم الأخبار المشوشة عن المدن ومواقف الجماهير فيها ، وتستمع لأحاديث السياسة ، وتتنبأ وتفند وتعطى احكاماً مطلقة عن افق مضئ تراه وشيكاً ، وتبشر بفكرة كما تراها ! ، وعندما ينشب نقاش بين اثنين كانت ثالثهم ، تتدخل دون سابق انذار لتراها وسط الحديث الجاد بكامل كيانها لكنها تدلي برأيها دفعة واحدة ، وعندما ترقب انظار الآخرين تشعر بالفضول لاحقاً فتنسحب بأدب وبراءة ، وللاغاة ما حصل تستدرك بلهجة وجلة اعتذارية قائلة : عذراً أنا لا أعرف عن السياسة شيئاً وربما كلامي بغير مكانه ، ولكن كنت طفلة عندما كان والدي من أوائل البيشمه ركه الاباة واستشهد على هذا السفح من جبل متين وهو يقاتل حينما كنت احبوا على الأرض ، ومن حينها عرفت أن ابي فداء لقضية ... تبديداً للشعور الذي ظننته لازال قائماً في ذهن من تناقشوا ، على انها امرأة كسيرة الجنح وان ادعت عكس هذا ، لذا تراها تتباهى ، تحمل بندقية

زوجها وكامل العتاد وهي تتغاوى بها دون استهانة او افتعال ، فهاهي قد استحدثت لها مهمة جديدة ، فقد تحولت الى مقاتلة وداعية في آن واحد ، ووجودها في العائلة لولباً واطاراً يوحدها يبث فيها التعاضد والاصرار والاباء .

الخلاصة الحرية

إن ماتقدم من موضوعات هي حصيلة استعراض تفصيلي ومبسط في وصف حالة واحدة حصلت بالمعايشة الفعلية والمشاهدات المباشرة وإن لم تحالفني الموفقية بدقة الوصف ، وهناك جوانب كثيرة تجاهلتها ، كونها وجه مظلم للأحداث لا تستحق الاهتمام والتوثيق ، فالصحفي الذي تردد في البداية الآن تكلل جهده بانجاز مشروعاً طويلاً وحاول فيه أن لايكون محايداً أو بعيداً عن تحمل عقبات الاخفاقات في اطارها العام .

قد يلاحظ على تناول الأحداث وجود النبرة السياسية ، وضعف الصيغة الادبية ، وهذا اسلوب تقصدته كي تمتزجان الصيغتان فيما بينهما ، لوجود الترابط الموضعي أصلاً ، وإلا أخفي حقيقة ان كتابتي للمادة اردتها مقروءة بوضوح باعتبارها من مقاتل يحمل البندقية ويواكب الأحداث وليس فقط منسوباً على سائر المعارضة من أي الفئات كانت .

فالأحداث رغم مرارتها ، حاولت تطويعها رغماً عنها ، ترتيبها لتكون جوانب مشرقة من سجل شعبنا النضالي ، وتجسيداً لدور مقاتليه في تفاعلهم في بحر الأسى الطامي بحثاً عن الأجواء الملائمة للانطلاق من جديد وبزخم أقوى واستنباط المهمات الرئيسية الراهنة أمامنا .

لقد عرفنا من حصيلة تاريخ حزبنا ومجمل الحركة الوطنية ، تلمسنا ذلك عملياً في الآف المحطات إن الصعوبات بأشكالها ، كل أبواب الردى ليس بوسعها اطفاء شعلة نضالة . وأنه بمقدار تصعيد الارهاب ضد الشعب وقواه الوطنية ينبغي للموقف الثوري حقاً ، الموقف الذي فيه الكلمة امضى من الاطلاقة ، تنبض بقوة تخترق الشفاه دون أن ترتجف ، تخرج بحرارتها وبمعناها المبدأي لتبلغ مداها الثوري اللازم خاصة في المنعطفات الحادة .

إن المواقف المؤلمة كثيرة والمعاناة يومية وصفحات كثيرة ليس بوسعها ارشفة ما حصل ، فالقصص حية ونوعية في غالبها وابطالها ينتشرون في اغلب بقاع العالم وهم يتكيفون مع الجديد الذي لم يكن في أحلامهم ولم يقراوا عنه في كل الكتابات القديمة عن الصعاب . ان المعطيات الثابتة للأحداث هي المراجع الأساسية في تقييمها الضروري ، فلابد من دراسة الأحداث بحرارتها ومؤشراتها ، وليس فقط تناولها من جوانب انتقائية . فهذه طريقة تزييف للحقيقة ، ومرفوضة ان ما حصل باعتقادي هو ليس مهمة صحفية وان نقل الآلاف من الجماهير الى العمق التركي وما رافق هذه الطريقة من اضطرابات نفسية ومعاناة هي وحدها لا تحتويها المجلدات . ناهيك عن رتابة الحياة والقلق اليومي وتفشي الأمراض متعددة الأشكال والمسببات والاشاعات وغيرها . ان الفصل الأول من الأحداث رافقته شدة الانكسار المعنوي وتطاول العواطف بمسعاها اللئيم وتراجع زخم التفاؤل الثوري خطوات الى الخلف ، ولكن الخلاصة بايجاز ان السبيل للنجاة ليس سوى اختيار طريقة الثورة بمعناها ... الثورة كما عرفناها في قصص الدنيا حولها وكما نريدها ونقرأ الجديد عنها ولن يتم شئ بدون هذا ... المجد للرفاق وللرفيقات في المقدمة من تمسكوا بوحدة الحزب ووصاياه الخالدة وصانوا اسراره وقيمه الأصيلة ، فهذا بحد ذاته وجه مشرق للحزب لتاريخه المشرف الطويل .

بدء الصراع مع الحياة الجديدة

في أعقاب وصول الجماهير الأراضي التركية وتطور الأوضاع في كردستان واستحالة الاتصال بها بسبب اكتساحها من قبل القوات الحكومية واستباحتها لكل ممتلكات الناس ، مزارعهم وحيواناتهم وأثاثهم هكذا تعمقت متاعب المهجرين واشترطت حياتهم الجديدة تعاملاً ميدانياً صبوراً وتكيفاً مع الظروف الناشئة وتفاعلاً عسيراً وحركة يومية ، وتحولت الحياة في تركيا الى نمط أخرى تماماً لم تعد كما كانت قبل ايام ، رحيل متواصل وجوع حد الإعياء وبنادق مشرعة بوجه المجهول ورفض قاطع لفكرة التسليم لأي كان . فالتسليم سلوك مرفوض من أساسه آنذاك اما الان فرحيل الأيام المتواصلة تمخض عن ولادة طور جديد لكنه جلف ... قلق في كل لحظة وفوضى الحياة بكل تفاصيلها وأهاناة وحاجة لكل الأشياء التي تشكل أولويات حياة البشر ، أي أن المجهول الذي كان شبحاً في مخيلتنا الآن أوغل أكثر في تهديداته وسطوته الغادرة كأنه عاش في رحم الفاشية وانبثق عنها متشبعاً بسجاياها الإرهابية الشاملة .

هكذا تولد الشعور الدائم بنوايا الأتراك لإعداد طبخة طالما حلموا بها سنوات خلت . ها إن المعارضة العراقية المتمرسة بالنضال ، هذه الطلائع السياسية ذات التاريخ الطويل والوجهة العملية المناهضة للفاشية والعزم على اسقاطها وقبرها الى الأبد ، هذه المعارضة جاءت بها الضرورة ووطأة الإرهاب الذي لا نظير له . جاءت بهم كل تلك العوامل ليكونوا بين أحكام أسلحة الحلفاء سيئ الصيت ... آن لهم تدشين نسيجهما المشترك المكرس للانتقام من جماهير شعبنا العراقي .

كان التنسيق بين الجانبين يجري على قدم وساق ويتمحور حول مصالحهما المشتركة التي تبيح لهما المواقف الخيانية المتأصلة في طبيعة

نظاميهما . وساءت ظروف جماهيرنا ، أمام أنظار وأسماع العالم فهي في مواقع غير آمنة ، وليس من انفراج قريب في الأفق ، تحيطهم بنادق الجندرمة صدئي القلوب الى جانب سلسلة الممنوعات والأسلاك الشائكة المجوجة ويلاحقهم الخوف من التسليم المباشر للسلطة الفاشية الغارقة في الفطرسة والإجرام . نعم إن عهد الأتراك لايبعث على الاطمئنان وتواطئهم في كل الأحوال .وارد بهذا الشكل كانت ايام ايلول ١٩٨٨ الأولى ، ووضع نفسي متأزم ومشاعر الخيبة تلقي بظلها الثقيل وغابت عناصر التفاؤل كأنها تسبت خانعة أمام ضربات لا تكف عنها لحظة كي تستعيد أنفاسها وتتململ الارادة انطلاقاً من مصادرها العميقة لتشتبك مع الجرح النازف البليغ وتكبح جماحه ، تردعه عن التمادي أكثر في تبذير سوائل الحياة الثمينة . فجديد الحياة رغم طعمه العلقمي ينبغي للثوار تجرعه ببأس لا يلين .

كثافة الناس بمستوى قياسي . وحفيف الأشجار الكثيفة يستقطب الآلاف . وخذ مثلاً شجرة واحدة لكنها مضيافة ومتحسبة للطوارئ والإحراجات من هذا النوع كانت تظلل في النهار ما يربوا على المائة فهي ردهتهم الطبيعية في الليل والنهار ، أما الأرزاق فهي بالكاد تنتزع بالغرامات وحتى مياه الشرب شحيحة وحارة متعكرة كأمزجة الآلاف ، كيف لا وهي منحازة لهم بدوافعها الانسانية النبيلة في يوم محنتهم ومتضامنة بحرارة فهي معهم في خندق واحد . النوم في غالب الأحوال في العراء ماعدا الأطفال فالآخرين يكتفون بالقليل من الأكل ويسهرون الليل ولا يهجعون الا قليلاً في ساعاته الأخيرة . كأنهم حراس في كل المواقع يعالجون زخات المطر الحاقدة الاستفزازية من أن تجثم مباشرة على الأجساد العارية ، يكتفون من تراص الأطفال وهم يلتفون بقطعة من النايلون بائسة لتقيهم شر الظروف القاسية التي المت بهم ومن لديه قطعة مما يوضع على ظهر البغال يمتدح حظه ، يقبع بها ولا تستفزه كل الروائح الكريهة ، فليس في اليد حيله هذه احكام الحياة وقد حرمت عليه الروائح العذبة ،

والأمهات يروضن أطفالهن بالقول الساخر والواقعي (ريحة بغل ولا ريحة كيمياوي) الكثيرين يتابعون حركة النيران التوسعية من أن تطال السنتها المواقع القريبة . فعلى مقربة منها يرقد الأطفال في غيبوبة يتوسدون ما يملكون من حاجات وأرزاق اما الكبار فلاينامون يتابعون الأخبار وإن وقع الأحداث عليهم أذهلهم والمثل يقول عندما تبرد الجروح تزداد آلامها . المراجعة للمسلسل الطويل من الأحداث تثير الأفكار المخيفة عن مصير الأبناء المفقودين وعائلة تشتت وآخر ترك زوجته وأطفالها ويلتحق بمفرزته القتالية التي حوصرت بموقف صعب ولازالت أخبارها مقطوعة تماماً . الجيش العراقي والمرتزقة يحتلون القمم المطلة على المواقع الحدودية التركية حيث تنتشر الجماهير العراقية . ويهددونها في كل حين بخطر المداهمة ، والموقف التركي مهزوز ويبعث على الخشية ، لكن مواقف الجماهير فيها شئ من خزين القوة المدخرة الى جانب وجود الأحزاب الذي يجد تعبيره في تفسير الأخبار والتحرك البطئ المشوب بالحذر وللتخفيف من عمق الحزن الذي يسيطر على الناس . هناك مساهمات بدرجة معينة لتحليل الواقع وخيوطه المتداخلة وإيضاح بوادر الأفق القادم وإحتمالاته ، فرغم حالة الاحباط لازالت عناصر الحركة قائمة فلدى ممثلي الأحزاب بصيص من الخبرة وامكانية التحليل وقوة الاستنساخ على ضوء السياسة العامة وكان اضعف العناصر هو امكانية المعالجة والتغيير العملي وهذا الجانب هو الذي تكبل بالجديد الشائك الحرج . وبدأت النقاشات في المجالس تحت الأشجار وللكلمة الواحدة ألف أذن صاغية وعين ترنوا باهتمام أو تبددت روحية الاستئثار وحرفية النشاط السابق والمراهنات على اكتساح الساحة تكريسا لهيمنة حزب معين واستحالة خضوعه لحالة الانكسار والهزيمة . هنا في هذا الواقع المشين ذابت المهاترات كجمرة في ماء انطفأت جذوتها وتساوت الامكانيات وتوحدت وجهة الحديث وخفت وتلاشت مبررات المزايدة الفارغة . وربما السبب الرئيسي لهذه المواقف الناشئة ليس اعترافاً بخطيئة سابقة بل نتيجة الانقطاع عن قيادات الأحزاب المباشرة عموماً والتواجد في

أرض بلد آخر يحد من امكانية فرض السياسة بالقوة والتهديد ويمكن أن التفاهم لدي قواعد الأحزاب أسهل منه لدي قياداتها لأسباب كثيرة ومعروفة من تجربة التعامل والتحالف السابقة أخذت الأحلام تراود الجميع والأماني لكل شئ سوى فكرة التسليم بالاكراه للعراق فهذا شبح مخيف نصب أمام مخيلة كل طفل وامرأة اكثر من غيرها ، الحياة رتيبة وتوقعات بالتضامن الفعال أماني تستهوي النفوس مع الادانة الواسعة لجرائم الفاشيين الطغاة . ماذا سيكون مصيرنا ؟ هل سنبقى هنا في هذا المكان الخطر ؟ وهل معقول أن تتصرف السلطات التركية بالضد من مصالحها ؟ وتتخلى عن علاقتها مع النظام الدكتاتوري في بغداد الملطخ بدماء شعبنا العراقي ؟ الحياة مزرية وثقيلة بكل النواحي والوضع النفسي اكثر سوءاً واضطراباً ، واذاعات العالم الغربي وجدتها فرصتها النادرة للتهريج الفارغ والترويجات الخداعة وتتلاعب بعواطف المهاجرين وأبدت اهتماما مزعوماً بأوضاع الشعب الكردي المظلوم ، الحركة بين القرى ممنوعة والتي تحولت من قرى بسيطة الى نوانات لمدن كبيرة بين ليلة وضحاها وظروف العوز والمشقة وتدهور الوضع المعنوي هي السائدة لدى الجماهير بأي القرى كانوا . وهكذا نشبت حالةجديدة ولدتها الحاجة للحركة بين قرية وأخرى رغم صعوبة تحقيق ذلك . أن نتباحث في مصيرنا وأخر ليس بوسعه شراء حاجات يوم واحد الى جانب الهوة الواسعة بين الامكانيات الفعلية مقارنة بحاجاته الأساسية . فهم لايملكون من المال مايتناسب وباب الصرف الذي يطفي حاجاتهم .

ومنذ البداية تتباين الحالة بين قرية وأخرى فقد تميزت قرية كرميس مثلاً عن قرية شيفريزان حيث الأولى حافلة بالأشجار والمياه المتدفقة والحياة أخذت تجري على نمط عفوي وترتقي بعد لمستوى البرمجة والتنسيق خاصة وهذه الجماهير جاءت بخلفية منقولة معها عبر تخلفها السحيق وانتماءاتها العشائرية الضيقة وصراعاتها الطبقية غير القائمة بجلاء . كما أن اسلوب الادارة للشؤون الحياتية هو الآخر لم يتبلور بعد ... هذا الى جانب الخوف

والقلق الذي ينام مع كل واحد ، هناك من ينام وفي ذهنه فكرة كي يكون الصباح القادم فرصته الوحيدة لاختراق الحراسة المشددة على مداخل القرى وبأية وسيلة . ولكن ما أن يحل الصباح نفسه حتى تصطدم كل المشاريع المثارة في الليل بعثرات النهار الجادة ... يتبدد العزم وتأتي العراقيل بقائمة طويلة وتجابهك كلمات الممنوع والتهديد والزجر والمدافعات ومكالمات تليفونية لا تعرف القصد منها، وغيرها من التوسل والالتماس الذليل والحرارة هي الأخرى تشهر سيفها ، ومن يشاكسها ترميه بسهم من لهيبها المهلك ، ملحقة بالكثيرين ضربة الشمس كمرض جسدي ومن يصمد أكثر في الزحام يجد نفسه يسبح في موجة من التراب الخانق جاءت بها سيارة قادمة اقتربت فصعدت من سرعتها تخلصا ممن ينتظرون على جانبي الطريق الترابي الرث هكذا ، ويقترب الليل يدنو ليؤذن لهؤلاء بالانصراف الاجباري ومعهم المزيد من الحمى والخيبة والاستياء . ولكن ليس من حل آخر ، أنه تواجد مفروض ، وحتى كمن يعيش في قفص سميك الجدران .

منذ الصباح ينتشر المئات على امتداد الساقية النحيفة ، ذات المياه الشحيحة المنشبعة بالأوراق ، ونتاج غزل الملابس والأواني والأجساد في آن واحد وهنا تولدت المخاطر الحقيقية على حياة المهجرين .

ولكن هذه هي الحياة ، كل شئ فيها قد آل للانحطاط ، بما في ذلك النظافة ومستلزماتها . اخبار البيشمه ركه من لم يعبروا قد انقطعت واذاعات العالم تلقي ضوء على الأحداث يومياً ولكن تمسها فقط من زوايا محددة خاصة في نشرات المساء الاخبارية ، وتجري حوارات مع المسؤولين الاتراك عن عدالة القضية الكردية ومسلسل نظام بغداد الاجرامي . في النهار يدور الحديث كل كما يروق له وهناك من يعتقد ان ما حصل من نتائج يزكي رأيه القديم الذي دحض في حينه حول شعار ايقاف الحرب فوراً ، وعدم امكانية النظام من اكتساح كردستان بغضون أيام وعدم فعالية الجبهة الكردستانية لمهمة كهذه . وآخر موتور طول عمره والآن يكشر عن

أنيابه الفتنه متناولاً كل الأحزاب ومواقفها بالطعن ومتطاولاً على ماضيها القريب ، وكأنه قد تحرر من قبضتها وخرج من دائرة نفوذها ولم يعد معني بالولاء لها . وهذه حالة وان لم تكن واسعة لكنها استفزازية ومزعجة . الأحاديث السياسية المباشرة يهتابها الناس لما قد تجلبه من نتائج واثارات هم في غنى عنها في هذا الظرف الاستثنائي ، ولكن هناك من يخوض المساجلات الحادة لعله بهذا يسهم في تبرئة ذمم الأحزاب ذات السياسة والمواقف العلمية والتاريخ المشهود والتي لم تخف سياستها عن كل المحافل العامة ، ولم تجلب كل الأحداث بنقيض لهذه التحليلات السياسية الصائبة في اطارها العام النظري المرسوم ، على العكس تماماً مما يزعمون ... إن كل ما حصل هو تزكية لهذه المنطلقات التي بلورت وصاغت الشعار العتيد (ايقاف الحرب فوراً كمهمة آنية تتواصل بشكل لا ينفصم عن المهمات النضالية المركزية الأخرى) .

ولكن من الجوانب الأخرى فإن التعبئة الضرورية بهذه السياسة ، وتحشد كل الطاقات بالاتجاه المعاكس لإرادة النظام ومخططاته العملية اللاحقة ، ولتقويض مواقعه ... الخ ، هي النقاط التي عانت من الإهمال والقصور والضعف حد الترهل . حيث نشطت في هذه الأجواء الاشاعات ، وتعمقت المشاكل اليومية ، وأخذ الحديث اتجاهاً يرتبط بوجهة المستقبل القريب ، وتتباين الآراء والتكهنات وتصريحات الاتراك حذرة ، فيما تعطي لوكالات الأنباء . فهي تتقصد الغموض عندما تدلي بشئ وتخشى الايغال أكثر في ايواء الجماهير العراقية ، وتخاف المواقف وردود الفعل ، ولاتجرأ على قول الحقيقة في ادانة النظام العراقي صراحة . ويتجنبون مثلاً لاعلان عن استخدام نظام بغداد السلاح الكيمياوي كأسلوب لابادة شعب بأسره . بهدف التخلص منه ، لكنهم من جانب يطمئنون هنا وهناك في أنهم يسعون لمعالجة النواقص وتوفير الأرزاق وتنظيم الحركة بين المجمعات وفق ضوابط ضرورية . وتسعى سلطات تركيا على صيانة مشاعر الجماهير ، وضمان الجانب الأمني لها ، وتتحاشى المواجهة المباشرة مع العوائل ، وفوضى

حركتهم في كل الأوقات . بدأت عمليات تسجيل الأسماء بقوائم طويلة ، الى جانب توزيع بعض الأرزاق الأساسية كالطحين والدهن والحلاوة ، وبعض العوائل تتردد في الاقبال عليها بدوافع الخجل ، وكأنهم يستجدون وهم كذلك تقريباً وهم في زمان القحط ، وحين تحققت بعض الاتصالات بين المجمعات ، تبين أن أحوالها متقاربة ، وأن وجدت فوارق فهي طفيفة ، في وجود الاشجار التي يستظلون بها ، ووفرة المياه ... ومجمع شيف ريزان هو الأسوأ ، حيث المياه هناك حارة وقليلة ، والجماهير تحت رحمة الشمس اللاذعة مباشرة .

عصر يوم ١٩٨٨/٩/٥ ، وفي العودة الى مجمع اروش ، في الطريق كانت نقطة التفتيش لا يفلت من يقظتها أحد ، وكلمتهم الدارجة الممنوع (يصاغ) ، كأنها ولدت معهم ، أو أنها مستخلصة من وثيقة سماوية لا ينبغي لها التحريف . ولكن ليس من سبيل سوى اختراق الطريق مجازفة ، وهو محفوف بالمخاطر ، اوقفنا أحدهم خشن الملامح كأنه عريق بعدائه لنا ، توسلنا به لكنه يقاطعنا قبل الانتهاء من كلامنا ليدلي بكلمته المعهودة (الصياغ العفنة) ، مؤشراً بيده من بعيد طالباً العودة الى حيث أتينا ، وكانت الرفيقة التي برفقتنا قد عانت من الاحراج والمخاوف المضاعفة وترددت كثيراً في اتلاف وثائقها الخاصة التي تخفيها بعناية وذكاء حتى علينا ، على طرف منهم توقفنا قليلاً مشدوهين ... حناجرنا جفت من سوائلها ، ماذا نفعل ونحن لم نعتاد توسلاً لهذه الدرجة والركوع لإرادة خسيس كهذا الجلف . وثانية تقدمنا خطوات للأمام بشوط آخر عله يسفر عن نتيجة مجدية ، ابدينا اصراراً على ان عائلتنا في مجمع آخر ونروم الالتحاق بها ، واعتمدنا مضطرين اسلوب (المسكنة) وفجأة لانت عنجهيته المتحجرة ، اقتنع وأومأ بيده ايذاناً بالعبور بسرعة .

انخرطنا بسرعة مذهلة عبر مسلك مخفي احدثته السيول الماضية ، تحركنا ولحظات حتى توارينا عن انظارهم كأننا تحررنا من قبضة الفاشية في بلادنا . وعلى السفح الشاهق ، الحوض الدائري الكبير الذي يواجه كل

المجمعات الثلاثة ، هناك جلسنا قليلاً واستعرضنا محطات حالنا والظروف التي جاءت بنا الى هؤلاء القساة ، وخلصنا الى القول : هكذا هي نوائب الحياة ما أن تجور لا ترحم ... واصلنا المسير وكأن اشلائنا قد تمزقت ومشاعرنا فاضت بالحزن والندم ... نمشي بتوجس من السيطرة الثانية على مدخل أروش من جانبه الشمالي الغربي حيث نقصد حينذاك الشمس انحدرت خلف الجبال كأنها تقصد شيئاً هناك غير عابئة بما قد يحل بنا تحت جنح الليل من جراء رحيلها . هكذا تركتنا دون حياء ولا استئذان مسبق ، فمقتناها حينذاك كأنها عاشت مع (اليصاغ) في بودقة واحدة طول عمرها . الطريق لا يخلوا من المارة ممن يندبون حضهم العاثر من أمثالنا ، وأغلبهم يبحثون عن ضالتهم مثلنا ، سألناهم عن أخبار الطريق قالوا : سالكه وإن عارضتكم السيطرة تجاهلوها وخذوا طريقاً آخر الى اليسار منهم وحثوناً على مضاعفة السرعة واغتنام الوقت ومن جديد تمحورنا خلف صخرة تحيطها بقايا العشب القديم وسبرنا الطريق باتجاه الموقع المحدد فعرفناه خالياً فعلاً فانطلقنا لنكون في ضجة مجمع أروش من جديد .

في اليوم الثاني كانت المحاولات باتجاه آخر أكثر تعقيدا الى مخيم أشوت الذي يبعد قرابة أربعة ساعات كاملة مشياً على الأقدام ناهيك عن جملة من التعقيدات على امتداده ، تخطيناالنقطة الأولى التي كانت طيلة الأيام السابقة عبارة عن سيطرة ، فوجدناها هذا اليوم قد تحررت بجهدها المثابر من واقع الأحداث العسكرية أخيراً ابدى هذا الموقع تعاطفاً معناً وامتعاضاً وكرهاً للنزعة العسكرية التي لا تعرف التفاهم ، تبادلنا معها الوصايا وحثينا الخطى قاصدين أشوت نفسها حيث الآلاف هناك ، نسير متطلعين لسيارة قد تأتي صدفة لنستفيد منها لكن المتاعب لنا كانت كالضرورة هذا هو يوم ١٩٨٨/٩/٦ ، نسلك طريقاً ترابياً يلتوي أحياناً متأثر بالتواءت الوادي الموازي له ومن بعيد رأينا الحركة واضحة على امتداد الشارع عند مد الشوف جيشاً تركياً وجماهيراً عراقية بكلا الاتجاهين ، تعثرت مسيرتنا عند نقطة العبور وقبل وصولنا لها اخبرتنا

مجموعة كانت عائدة بعد ان ردت على أعقابها بعدم جدوى اضاعة الوقت هباءاً ، فالسيطرة متشددة ولاتسمح لأي كان بالعبور ، تبادلنا المعلومات وتقاسمنا الهموم فوجدناها بمستوى واحد تقريباً وإن تباينت أشكالها ومواقع حصولها ، وقد كانوا صادقين فيما قالوا عن المتاعب لكننا لازلنا نعمل على قاعدة التشبث حتى بمن لا يستحق التشبث واصلنا الحركة وقلوبنا لاتتمالك نفسها ، ارتبكت ضرباتها وأخذت تطرح مشاريع عديدة منها مثلاً العودة الى حيث أتينا وتحاشى المخاطر وعواقبها لكننا تظاهرنا برباطة الجأش وأرغمنا قلوبنا على التماسك وألزمناها أن تحتفظ برأيها المتخاذل فمحذور عليها التبشير به وهي غير مسؤولة عن النتائج . من بعيد رأيناهم يلوحن بأيديهم إيذاناً بالرجوع ويثرثرون بكلام حاد لانفهمه لكنه واضح من الاشارة أن لامجال للعبور مطلقاً ، وقفنا برهة لمراجعة الموقف ومعالجة الجديد من خلال اساليبنا المبتكرة علناً نبدع في ميدان تخطي الحواجز فهي تجربة ليست دون فائدة مستقبلية بدأنا من جديد على نفس الوتر السابق نبذل جهداً محاولة لنيل العطف والاقناع لكن كل الجولات الأولى أخفقت وبعضنا ادعى المرض الحاد وعدم امكانية العودة وقطع الطريق الطويل ، لم نفهم من كلامهم حاد النبرة سوى أن قضية الحركة بين القرى تربك عملية الاحصاء للجماهير وتعيق ترتيب توزيعها ، ولهذا الحركة ممنوعة من جهات علياً ، وكان مسؤولهم القصير الممتلئ حليق الشاربين وسيم المعالم يدلي بهذه الأمور ويعطي الموقف الجازم كما يقول ، وهو متشدد ثم غادر النقطة فجأة الى موقع قريب على مرتفع منه وجاء مكانه شخص آخر برتبة أدنى ذو وجه يميل للبياض الشاحب قليلاً كان عطوفاً علينا ومتمرداً على أوامر مسؤوله الأول اقترب قليلاً وأومأ برأسه وبحركة من عينه اليمنى بالصعود لسيارة عابرة لازالت قيد التفتيش لتواصل سيرها الى آشوت حيث ننوي الذهاب ، كم كان متحمساً لقضية عبورنا وحينها ايقنا الى أي درجة قد أجدنا التمثيل وإلا لماذا ؟ واذكر أنه مادمنا نراه والسيارة تبتعد عنه يلوح بيده مودعاً . وصلنا آشوت فوجدناها متخمه

بالبشر وحالهم أكثر بؤساً من ما تعيشه اروش هناك كانت الحياة لاتطاق والوادي ذو البداية المعقوفة قليلاً راسخاً وعميقاً في كبد الجبل يريد معانقة الشريط الثلجي على السفح الشاخص كالعلم الأبيض حيث لم يزل الثلج في الثلث الأول من ايلول ومثل هذا المنظر هو من مفارقات الطبيعة . نعم الثلج تراه في عز شبابه يغذي التجاويف القاطنة على مقربة منه ومن بعيد تخزره أعين تجدع ناراً بالغضب وقلوب تهفوا ذاوية اظمأها غدر الشمس التي شملتهم بحقدها على تجاوز الثلج في غير وقته أغلب الظن أنها رأت في تواجد الثلوج بهذه الصلافة تحدياً لها واستفزازاً واستهانة بقدراتها الحرارية ، لم نعرف لهذا الوادي نهاية مادمنا هناك ، عرفناه يتوسط الآلاف من العوائل ، يخترقهم باقتدار ليرميهم على ضفتيه بما لايقل عن الكيلومتر وهو مصدرهم الوحيد لمياه الشرب وطهي الطعام وكل المستلزمات الأخرى كانت الروائح من كل صوب وفي بعض المواقع بقوة تطرح الطبور كما يقال في الليل جل العوائل لايمتلكون أكثر من بطانية واحدة يضعونها على الأرض مبعدين شرورها ، أما التغذية فهي هزيلة بدرجة لاتكفي للطفل وأبرز مافيها الخبز والحلاوة التركية التي ذوبتها الشمس وغيرت من قوامها وملامحها ، أما الشاي العراقي المعهود انطفأت شمعته فجأة واندحر منكفياً وحل بديلاً عنه تسلط الشاي التركي ليضيف للمياه مراره أخرى .

في هذه الظروف كان رفاقنا من أكثر الناس متاعباً وأغلبهم ينامون على الأرض مباشرة ويواجهون السماء وجهاً لوجه ، يحسبون مايبعث الضوء فيها ، ومنظرهم هذا يخيف الجيران بعض الشئ ويستدر عطفهم في عين الوقت فهؤلاء بالأمس كانوا مقاتلين مدججين بالأسلحة والأفكار والأصرار والآن تراهم يصطفون كجذع النخيل الجاثم على الأرض وقد فقدت جبروت ارتباطها بالأرض ومصدر الدفئ فيها ، يلتمسون بعض العوائل ليكونوا على ملاكها في التسجيل وحالة كهذه في مثل هذه الظروف لاتقابل بالارتياح والرضى الا ما ندر للأسف ، وحتى لدي أقرب العوائل اذ كانت ترتسم على الوجوه علامات الجفا والامتعاض . في هذه الفترة ساءت

المعنويات وارتفعت وتيرة اليأس وانتشرت الاشاعات المخيفة اخذ البعض يطعن بالأحزاب والجماهير تتآكل من الداخل وتضعف قوتها وانتشرت الأمراض المختلفة . في ١٢ ايلول ١٩٨٨ صباحاً نقلوا مجمع آروش وكان حالهم المأساوي في النقل انذار لنا وكانت المشاعر حينذاك باتجاهين . فرح لأن الآلاف ابتعدوا عن المخاطر والمتاعب وخوف أن تفرض التفرقة والتشتت على هذه الجماهير لاحقاً لغايات دنيئة غدارة ومحتملة.

قافلة ذكرتنا بقطار الموت ١٦

كانت أفكار الجماهير منشدة الى أجل يرحلون به فقد سأموا الحياة القلقة ولايعرفون أي المواقع هو الأفضل لهم ، وأسمائها لايعرفون منها سوى أن منطقة سلوبيا التي يفضلونها مقارنة بمنطقة كفري البعيدة المهددة بالبرد المبكر . يريدون بكل الأحوال للمواقع أن لاتكون قاصية عن الحدود السورية وهذا هو تفكير رفاقنا خاصة والكثير من العوائل الأخرى والمزاحمة بين مجمع وآخر في اختيار المكان القادم كأنها بمشيئة القدر . عصر يوم ١٩٨٨/٩/١٣ جرى الاعلان والتبليغات بالاستعداد للرحيل منذ فجر اليوم القادم ، كانت ليلة صافية وفيها لسعة برد ولكن رغم هذا فالناس انتعشوا قليلاً ، استبشروا خيراً بمغادرة هذا المكان وتوترت اعصابهم وتقلصت ساعات نومهم وأغلبهم ليس لديهم من المستلزمات ما يتطلب التهيئة ، لأنهم يفتقرون لها أصلاً وهمهم الوحيد إلى أي المواقع سيرحلون ؟ لم يكن هناك من يعرف ذلك وحتى الأتراك يكتمون مثل هذه الأسرار فسائقي الشاحنات نتوسل بهم الاباحة بشئ لكنهم كعمال يتقيدون بالانضباط العام . في هذه الليلة أخذت النيران تتسع وتتصاعد ألسنتها مبعدة دائرة مكتظة من حولها فهم يقضون دقائق فقط قد أجروا جرداً لممتلكاتهم فوجدوها لاتتطلب إلا واحداً منهم لنقلها الى الشارع العام حيث تنتظرهم الشاحنات . منذ الفجر انتفض الجميع من نومهم فوجدوا نيرانهم الشرهة قد تطاولت وأكلت معظم الجدران التي كانت تظللهم في النهار وتصد عنهم الرياح وبرد الليل المفاجئ ، أصبحت حياتهم مقننة من الوقت

ولايضعون باباً للإدخار فلم ينفعهم ما ادخروه سنوات ، ووجبة الفطور قد سطت على ما تبقى من ذخيرة اللحم التي غزتها رائحة التلف وبعضهم اكتفى بلقمة واحدة وقدح من الشاي . على الشارع العام كان طابوراً من الشاحنات التركية الطويلة متباينة الأشكال والأحجام ، والحركة لاتجري الا جماعياً وهناك من هو بعيد عن نقطة الحركة وعليه عبور الوادي الذي يشكل حاجزاً مائياً وهكذا فقد تسابق البعض وألقوا بحاجاتهم على الشارع ظناً منهم أن الأولوية لمن في الشارع وبهذا فقد امتدت الجماهير لتشكل مايشبه التظاهرة لكنها غير منتظمة بعضهم يبحثون عن الشاحنة الأكثر جودة ويتطلعون باهتمام الى السائق الأكثر وقاراً ويخيفهم الشباب وكثيري الكلام وبعضهم منهمك بكتابة أسمة على واجهة الأكياس التي ابتلعت كل حاجاته ولم تقتنع بها تجدهم جميعا يتراصفون فوقها كأنها تضم شيئاً ثميناً . جرى تشخيص الشاحنات بأسماء القرى وباءت الجهود العشوائية بالفشل فعرف كل واسطته المعينة للنقل وبدأت المقارنات بين هذه وتلك من الشاحنات واختياراتهم عديدة وبعض الألوان تجذبهم أكثر من غيرها والارتفاع كل ماكان مناسباً افضل وأخرين لهم اهتمامات أخرى وهم يركزون على الموقع الأكثر بعداً عن تراب الخلف الخانق ، ينبغي التخلص منه قدر الامكان ومعلوم أن سطح الشاحنة سوف ينشغل بكل بقاع جسمه وأذكر على سبيل المثال أن سيارتنا ذات اللون السمائي الجذاب كان نصيبها من البشر مائة وثلاثة من الركاب بمختلف الأعمار والقابليات طبعاً والأطفال لم يألفوا هذه المعاناة في حياتهم وجلهم لم يعرفوا السيارة قبل الآن ، عرفوها بهذه الطريقة المأساوية ومن جديد سادت الفوضى .

وبكاء النساء المؤثر ، وعويل الأطفال والمشاحنات على صغائر الأمور ، وقد تبسمر كل في مكانه المحدد فقط بقاعدته الخلفية ووجوههم متباينة الاتجاهات وبين النساء بشكل خاص من اصفر وجهها قبل المسيرة فقد تجلت نزاكتها هنا فقط في رفضها على أساس العمر وتبدأ أحاديث النساء المعهودة وغير المبوبة والنقاشات العقيمة .

فواحدة تعطي نكتة على صاحبتها على أنها يوم زفافها لم تجد مثل هذه السفرة الخريفية الميمونة وأخرى تشير للعربات التي تسبقهم وهي أكثر سعة وحداثة وثالثة تزحزحت قليلاً فانفضح أمرها في اخفاء الزاد الجاهز بين ملابسها فسكتت كالجمرة في الماء وغيرت وجهة حديثها . لازالت الشاحنات لم تتحرك بل تماطل ولاتعير اهتماماً للانفعالات التي تتصاعد وتصاعد حرارة الشمس . طال الانتظار لكن الحركة ممركزة بالقيادة العسكرية التي ترافق القافلة وتتقدمها بضعة امتار وهناك من حدد مكاناً مناسباً للطوارئ وهي كثيرة وبعضهم يخشى حالات التقيؤ الواردة وأخرى تريد لطفلها حيزاً للحركة وللنوم ، بدأت حرارة الجدران تكتوي بها كل الأجزاء المكشوفة لتسري من خلالها لباقي انحاء الجسم والأطفال أكثر من يتأثر في الشدائد لم يعتادوا مثل هذه الحياة ونقصاتها ولهذا فسرعان ما تزول ملامحهم الاعتيادية ويتعكر كيفهم وتنال من وجوههم لفحة الشمس الحارقة وأغلبهم يرتدون الملابس القديمة غير المناسبة لهذه الأجواء فهي في الليل لاتفي بمواجهة برد ساعاته الأخيرة وفي النهار تشكل غطاءً لا يطاق خاصة عندما تزداد حماوة الظهر وعرق الطريق الذي يستقطب أعمدة الغبار الجامحة والتي تشكل طبقة دخيلة على الجسم تضاف للطبقات المتراكمة كل يوم . في العاشرة صباحاً تقريباً انطلقت المسيرة فانتعش البعض في البداية لأن الحياة في هذا الموقع كارثة حقيقية يصعب على المرء أن يتصورها . قبيل أن تغادر الشاحنات أماكنها استولى الفلاحون في المنطقة على بعض الأشياء المتروكة من أرزاق وغيرها وحتى أغصان الأشجار التي كانت تظللنا في الأيام الماضية أنهت مهمتها المؤقتة مع جماهير المهجرين ولم تصحبهم في التوديع بل عادت من هناك الى أصحابها الأوائل . والجيش التركي الذي تواجد حيث تواجدنا وشاركنا بعض أحزاننا أنهى هو الآخر مهمته أيضاً وانصرف للحياة الطبيعية . كانت وجهة الحركة في البداية باتجاه الشرق والشمس حشدت كل قواها وتضامنت والتراب اللعين في خلق العذاب ، أما تاكلات الأرض وتخرشاتها

فقد اربكت العجلات وأنهكت الكثيرين في الساعة الأولى .

هاقد واصلنا البعد عن العراق مرغمين من جراء الحاكمين فيه ، كان بحوزة هذا الرتل من الشاحنات ، هذا الضعن الذي يدمي القلوب بين هؤلاء الناس قوى وأحزاب وآمال وأنفس لاتستسيغ الذل ولاتتجرع اليأس بسهولة وهناك الكثيرين رغم المحاذير يحافظون على قيافتهم الأنصارية باستثناء السلاح وملحقاته أما الكبار الطاعنون في السن فهم يضفون على المسيرة معنى آخر فهم ذوي الخبرة الحياتية الطويلة ويبعثون في نفوس الصغار الطمأنينة ويبعدون الوحشة عنهم . في فترات معينة تسود حالة من الهدوء التام ، وجوم جماعي يسرح كل مع ما في خاطره ... في اي الأماكن سنكون ؟ وكيف يمكننا التعايش بعيداً عن الوطن ؟ الانذكر الأحداث القريبة ؟ اليسوا هؤلاء هم الذين حشدوا قواهم في هجومهم الغادر في ٢٥/أيار/١٩٨٣ . على مقرات القوى الوطنية هذه التي يحملونها الآن الى حيث يريدون ؟ كم اسهموا في مخططات الفاشية في بلادنا انذاك ؟ لقد اثبتت الحياة جفائها لنا ولكن على كل حال لسنا وحدنا فقضيتنا ترتبط موضوعياً بمصير شعبنا . انحرف الطريق قليلاً نحو الشمال واستقام وتواصلت الحركة كالسباق كل يفاخر بسيارته كأنه في ميدان الفروسية وايماءات من هنا وهناك بضرورة ترويض السائق الطائش فبعهدته أرواح بشر وليس قطعياً من القطط ، وعلى طرف من نهر غزير المياه توقفت الشاحنات فترة استراحة قصيرة وهناك من لم يستفد منها فنزوله بعض دقائق ليس بدون متاعب أولاً والمكان الذي يمكنهم قضاء الحاجة فيه بعيداً نسبياً وهذا المكان الذي يحتله وتكيف معه بما يشبه القالب وتفاهم مع القريبين منه قد يفلت من يده ، ولعل الخشية الحقيقية نابعة أيضاً من تهديدات الأتراك التي قد تصبح حقيقة بترك من يتأخر .

تحاملت الشمس أكثر وربما أثار حفيظتها روحية التحدي والصبر لدى هؤلاء الناس الذين أحبطوا كل تهديداتها في الانتقام في أن تجعل من هذه المسيرة الشاقة تكراراً لمأساة (قطار الموت) تلك الحادثة التاريخية العالقة

بذاكرة شعبنا العراقي عام ١٩٦٣ الأسود . كانت الوجوه بلون الأرض وتشوهت المعالم الخارجية كل يتكئ على ركبته ويبسط الكفين أمام وجهه صاداً كل ما يفسد الأجواء والتذمر الأكثر بين ذوي الأمراض القديمة والضعف المزمن وحالات الدوار والتقيؤ . وبين فترة وأخرى يزداد الضجر والعصبية فينادون الى السائق بتخفيض السرعة قليلاً مشفوعة بشتيمة الى جده السابع ولكن كيف يتوقف دون الآخرين ؟ وهل هناك من هو أفضل حالاً ؟

في هذه الأثناء تضاعفت المعاناة والذي كان يدعي الخبرة بتفاصيل الأرض قبل الحركة انسحب الآن أمام استفسارات القريبين منه متى نصل الماء ؟ وهل هناك قرية قريبة ... ما إسم هذه السلسلة الجبلية الكالحة ؟ .... إلخ . لم يعر اهتماماً لهذه الأسئلة الوجيهة . بل ازداد نزقة واجتاحته موجة غضب فصرخ بصوت أسمعه لأكثر من شاحنة كأنه يخطب في جموع ثائرة ... ان مواجهة الكيمياوي والموت على أرض العراق أفضل من هذا التعذيب واعلموا أن من وراء هذا التلويع يد قذرة وقصد يرتبط بإرادة الفاشية نفسها ، أنهى حديثه العصبي الارتجالي المقتضب هذا والذي أراده هتافاً وشهادة من أهلها فانهملت دموعه وأجهش بالبكاء وبحركة حزن وأسى هبط في مكانه ليحتظن زوجته الجثيمة كأنه ينوي سوءاً فعلقت عليه بقولها ها لقد أفلحت في حماسك وحققت هدفك القريب .

عصراً اعتدل الهواء قليلاً ورويداً رويداً أصبح الجو منعشاً لطيفاً حين اندحرت الشمس وهي تجر أذيال الخيبة ، من جديد انبرت الأمزجة التي لازالت تختزن بقايا الابتسامة فهذا وقتها يوم الحداد الحقيقي وقبيل الغروب تسلقت الشاحنات الطويلة المثقلة بالحمولة البشرية طريقاً يلتوي كالأفعى المستلقية باسترخاء ، بدأت تصعد عشرة انحناءات طويلة وعسيرة ومتواصلة وتعالى الخوف وصيحات المناشدة المؤثرة وانخطف لون الصغار تلك الغصون التي لم يأخذ بها العمر بعد الى حيث القساوة بهذا الحد هنا كانت قمة الخوف والتوتر والقلق الحقيقي حتى في حالة العطل البسيط

في أي المواقع من الشساحنات العزوم المصابة بالحمى الحادة . وكلما تقدمت السيارة للأمام أكثر تعالت الشهادة على أن السواق الأتراك هم الأمهر في الدنيا قاطبة ، واحداً لا ينظر الى الخلف ، كل يجمد في مكانه استجابة للقدر وانتظاراً للنتيجة ، فحياتنا في هذه الجولة ليست اعتيادية بل صراع مع الموت واختباراً لقدرة الأعصاب على التحمل وطعناً ميدانياً بكل النوايا الشريرة . في هدوة من الليل وأنين من هنا وهناك وتشبث بكل ما يبعث الدفئ وتقارب تفرضه الحاجة بعيداً عن لمسات الجدران الحديدية المتذبذبة تبعاً لمصالحها الأنانية ، فهي متطرفة تتحول بغضون ساعة متنصلة عن كامل سجاياها فهي من الحرارة فوق الاعتيادية التعذيبية فجأة تنتقل الى طور آخر يتباين كلياً مع الأول كأنها تعرضت الى نوبة قشعرية لكل برغي فيها ربما هي حالة ملاريا الشاحنات أولاً كمدخل تمهيدي لملاريا الانسان المهجر ؟ اذن في الحياة التناقض حالة واردة والليل قد يتناقض مع النهار ناهيك عن شمسه الحارقة ولكن أن يكون أسوأ افعالاً منه ؟ ما الفائدة يا ترى من هذا التناقض على حساب الأبرياء ممن يقال عنهم أثمن راسمال ؟ البرد بدرجة لا تصدق وكل يستعين بما يملك وام تجمع أطفالها الستة وهي سابعهم تحت بطانية بالكاد تكسي انصافهم المتعانقة وناموا كأنهم فارقوا الحياة . وليس من أحد يستطيع الصمود الى أجل غير مسمى ، من بعيد يرف القلب لاشراقة دالة ، كهرباء متناثرة الأعمدة يستدل منها على وجود قرية أهله بالناس وأغلبهم لم يستسلموا للنعاس فهم على موعد كما يبدوا مع مرور القوافل وبسرعة نجتازها لتخترق الظلام الدامس من جديد وتبقى الأنظار منشدة للأيدي وهي تلوح تارة وتتشابك بقوة اشارة للاعتصام والتضامن تارة أخرى . ليتنا وقفنا قليلاً في هذه القرية الهادئة التي عبرناها ، نقية الأجواء نقاء ماء العين في كردستان . ولكن كيف لنا أن نتوقف ونحن في حالة لا نحسد عليها ؟ استعد الليل للرحيل مكتفياً بما حققه من متاعب تاركاً أجساداً شبه مشلولة لتأخذ الشمس المتحاملة دورها الغادر الغني عن التعريف فتضيف لكل الأجسام حرارة اضافية كاحتياط

لابد منه ورغم هذا تواصلت المسيرة كانت الأرض منبسطة والطريق أقل تراباً والاتجاه صوب الغرب تماماً وقرى كثيرة بل كل القرى تتأهب لاستقبال ضعن المهجرين العراقيين ، احتفاءً بهم وتعاضداً معهم ، حشود جماهيرية غفيرة على امتداد الطريق وهتافات تضامنية نفهم منها (الموت للمجرم صدام ، عاشت البيشمه ركه ، وتماسك اليدين بقوة رمزاً للوحدة والتكاتف .... الخ) اضافة الى أشكال المأكولات والسكاير والمساعدات العينية الأخرى ، يلقون بها بقوة دون تسديد مسبق لتكون بمتناول الراكبين واحياناً على رؤوسهم أو على سفح منها ولا أنسى صورة المرأة (كبيرة السن ذات الحزام المخملي) التي كانت تركض وتحتضن صندوقاً من البسكت وعيونها على السيارة التي لم تستطع اللحاق بها ، كانت تصيح كالطائشة بصوت لا أفهم معناه لكنها وبسبب أنهاكها والسمنة التي اثقلتها سقطت أرضاً على وجهها وأجهشت بالبكاء رافعة يديها كأنها تعتذر عن التأخير لمن صفقوا لها على ظهر الشاحنة العزوم وشكروها على جهدها النبيل . لم ينقطع هذا السيل من التضامن من المباشر المعبر عن طيبة واصالة الجماهير التركية على امتداد الطريق وفي أية قرية تلقي تفهماً وحضوراً منهم فهم يعرفون مسبقاً أبعاد الجريمة التي دبرتها أجهزة الفاشية ضد شعبنا الكردي في أرضه وخيراته ورفضهم لمخططاتها الرامية الى الغاء وجودهم القومي .

ظهر يوم ١٩٨٨/٩/١٥ وفي غمرة حرارية لئيمة وانهاك حد الأعياء وتعاضد الاثنين معاً كل يشد ازر الآخر لمصادرة كل الأذواق الرطبة والضحكات الطويلة ومرح الصباح الموقت . من جديد ساد الصمت وانشلت الشفاه وأوكلت مهمة التفاهم للعيون الغائرة وهي تجدح ناراً جراء تفاقم العذاب .... حينذاك أحداً لاينظر الى معالم المنطقة وفاتتهم فرص كثيرة نادرة للتعرف على مناطق قد لاتتاح لهم فرصة أخرى لرؤيتها في حياتهم هذا لسوء الحظ قد اقترنت هذه الفرصة بتردي المزاج ووعكه الحواس الهامة في أغلب انحاء الجسم الذي من جديد يرغم على الامتحان بصنفوف

عديدة من العذاب الجسدي ، (خنطلت) الرقاب اينعت كل يحتظن القريب منه والماء هو الكلمة التي لاتفارق الشفاه ولكن هيهات أن تتحقق الأمنيات في هذا الحال المأساوي . ومع السرعة القياسية طيلة هذا الطريق البعيد فجأة في وقت واحد تقريباً يفيق الجميع لشئ حصل حرك مشاعرهم من الأعماق وصعد عزمهم الباطني ونظروا على امتداد الطريق من جانبه الأيمن فإذا بمدينة عامرة مترامية الأطراف منتفضه تضامناً مع الشعب العراقي وقواه الوطنيية فتعالت الهلاهل والهتافات والدموع والتصفيق غير المتكافئ ، لأن الانكسار قد وصم مسيرتها كذلك بانكسار الخواطر والعيون . فلأي الأشياء نصفق وبأي الألسن نتحدث مع أهل الجزيرة التي نهضت عن بكرة أبيها وأحاطت بالشاحنات من كل جانب تلقي بالمساعدات والأرزاق وأشياء أخرى نلت معاني كبيرة . هكذا عرفت جماهيرنا لأول مرة في حياتها كم هي عريقة بالأصالة هذه المحافظة وكم هو عميق ايمانها بالشعوب ومقتها للطغاة . لقد ذكرتنا الجزيرة الباسلة بواحدة من محافظات بلادنا . بطيبة السماوة حين هبت لاستقبال المناضلين عام ١٩٦٣ حين اريد لهم الهلاك الاجباري دون علم الشعب العراقي ، ورغم ان قطار الموت كان ابشع صورة مما نحن فيه ولكننا لاننسى أن هذا التعذيب يستهدف شعباً طائلاً ولا يستثني صغاراً ولاكباراً ومناضلين ومرضى نسوة ورجال ، وسلاحهم بذلك فتاك لم يكن انذاك بذهن الرفاق وهم بين جدران الصندوق الحديدي المميت . القطار ذو الجدران السميكة المغلفة بأحكام والساخنة كأوضاع بلادنا في الوقت الراهن فما أشبه اليوم بذلك اليوم الغادر ولكن شتان بين السائق الوطني في قطار الموت ذو الضمير النابض بالقيم وهي تهفو لخدمة الانسان ايماناً بحريته . عن هؤلاء ذوي الرؤوس الكبيرة والأدمغة المغشوشة وهم يذعنون لتهديدات الفاشية ويقابلون طلبات الآف الأطفال الأبرياء بالرفض وبقلوب صدئة وكلمات حقيرة .

كانت مسيرة حزينة ومؤلمة الى أبعد الحدود ، ومشاعرنا حساسة ومرهفة والبهجة لا تفتعل ، فالصمت الجماعي هو المناسب وتضحيات

مجهولة هي أوسمة رفيعة للمستقبل والجروح البليغة لمن يتعض اسلحة نوعية جديدة ، فمع الشعب حيثما كان ورغم جراحه.

بعد اجتياز الجزيرة ، حس الكثير بجدوى الصمود وضرورة العناد الواعي وبسالة الأصرار على المواقف التي ترتبط بها البشرية وقدسية وجبروت جهادهم الموحد بوجه أي ارهاب سافر ، ضلت الانظار ترقب الأيدي المودعة وصدور تضيق بالعبرات وقلوب تقطر بالنيل .

واصلنا الحركة في شارع قاتم مستقيم كالأفعى الأفريقية بعد ان انشطر الطريق الى شقين ، الأيمن هو سبيلنا الى النهاية المجهولة حتى الآن ، تضاعفت السرعة وازدادت الاجراءات التركية لكننا في البداية لم نعرف سبباً لهذا الاستنفار ، عرفناه لاحقاً كوننا على مقربة من الحدود السورية ويخشون من هذا الاقتراب واشكالاته ومن جراء تصعيد وتيرة الحركة وحالة الفوضى خد السباق والمزاحمة حصلت حادثة حريق في احدى الشاحنات فاربكت الحركة واندفعت الجماهير في تظاهرة كل يعتقد ان كارثة قد حلت بذويه والمعارف وتدخلت عشرات السيارات للشرطة والمرور والنجدة والاسعاف لتطويق الحادث وتنظيم السير تخفيفاً للازدحام ولمواصلة المسيرة حتى المحطة الأخيرة وعند هذا وصلنا مخيم ماردين عصراً من يوم ١٩٨٨/٩/١٥ وبدأت الحياة فيه والتي نقتطف لمحات بسيطة منها في أبرز جوانبها .

مخيم ماردين منذ يومه الأول

يروي أن ماردين كلمة جاءت من تحوير الاسم مارينا التي اصيبت يوماً بداء وخيم فوصفوا لوالدها المكان الشاهق النقي عسى أن تشفي من مرضها فجاء بها الى قلعة ماردين الحالية الشماء والرواية غير مؤكدة .

على بعد ٢٤ كم جنوب هذه المدينة القي بنا في الرابعة عصراً من يوم ١٩٨٨/٩/١٥ في أرض صحراوية جرداء قاحلة محاذية لشارع عام يمتد جنوباً ليرتبط مع سوريا والعراق ، هناك كانت مواكب الآلاف تثير الحزن وهي كقطعان الماشية تحاصرها الضواري ، لايستكينون لحظة وهم يتطلعون الي اسراب الخيم تغازلها الرياح لتاخذها علي غفلة فتتسلل بدا خلها وتبدأ بهزاتها العنيفة ، بهذه الطريقة تنال منها لتضعف من مقاومة اوتادها المشدودة ، بقوة الى جوف الارض ، لقد عادت بنا الحياة الي الوراء حقبة حتى عهد القرون الغابرة ، راجت الكلمات الكئيبة واعتصرت القلوب باللوعة هاهنا نعيش ، يالليؤس والخيبة وعذاب القحط ، اغلب العوائل لايملكون من الاثاث ما يستحق الذكر والاغذية تنعدم بالكمال وحتى المعنويات ايضاً هي الاخرى تلبد علي الارض جاثمة كالقماش المطور ، وان وجدت بعض المبالغ المالية فهي زهيده لاتنفع في معالجة النواقص الطائلة .

في الساعات الاولى خارت العزائم مذهولين يخونهم جهازهم العضلي شبه المشلول من جراء الإعتكاف الطويل على ظهر شاحنة عزوم ، لذا تراهم

يحركون الأطراف ويبتدعون التمارين كل كما يشاء وبينهم من اختار الأسهل ، تمرينه اليومي الرتيب ، لكنه اظل اتجاه القبلة ولم يكن يسأل عن ذلك بل حددها على عاتقه فسدد باتجاه ديار بكر التركية ، وآخر يلتوي بتفنن كمن يؤدي دور نجوى فؤاد ، والاكثرية يعانقون الأرض الجرداء كأن الطيران المعادي يحوم فوق رؤوسهم ، والأطفال وحدهم الأكثر تفاعلاً وحركة ، تراهم من كل القرى والمناطق تجمعوا ليشكلوا مواكبهم الغفيرة الناشئة وتجاهلوا الشده التي تلم بهم وعلى قاعدة من تبلل لا يخشى المطر ، أما النساء فكأن الأحداث كتبت مصيبة بحقهن فقط ووليدة هذا اليوم يندبن الجد الخامس عشر للمجرم صدام . الجماهير بحاجة قبل كل شئ للأكل والماء وقليلاً من الراحة ولازالت حواسهم مضطربة مشوشة وأصوات الشاحنات ما فتئت تنحط كأنها في سباقها الطويل قريبة من تجاويف اذنيهم المرهفة التي ترتجف كأنها تواجه موجة ثلجية كانونية غزيرة .

أخذت النداءات تتعالى عبر مكبرات الصوت تدعوا الى ضرورة التواجد المنظم لكل قرية في انتظار دورهم القادم ، والغروب اشفق من كل الأوقات الأخرى حيث استعادت العوائل بعضاً من نشاطها التي كادت ان تفقده . دبت الحركة واعتدلت الامزجة قليلاً والأسئلة غدت أكثر وضوحاً وتقبلاً عنها في حالات الانفعال اللعينة ، فها قد صمدوا امام فصل من التعذيب ليواجهوا فصلاً آخراً . في أوائل الليل استبات الغرباء في الساحة الواسعة كأسراب القطى ينتظرون الخبز وغطاء يقيهم بلامبرد الليل على امل تسجيل الأسماء والمعلومات الأخرى الضرورية وكل قرية تختزل افرادها من بين الآلاف كاستحداث (بيرات الكونكان) وكأنهم من أم وأب وجلهم ناموا رغماً عنهم وقوى الإرادة وعنيد الأعصاب لم يستسلم للنعاس فهو في حركة كاللولب يتابع تسلسل قريته ويدقق بحصصهم من الأرزاق كأنه رب العائلةزيادة مرجوة في كمية الخبز والحلاوة ، في وقت ترى مئات العوائل يتعانقون كشدات السمسم بعيداً عن الاختلاط المعيق مع العوائل الأخرى ، وعندما جاءت البطانيات كانت في وقتها عند نفاذ الصبر وهي بمعدل

للواحد واحدة كأنه زواج مسيحين ، والبعض منها ذكرتنا بشرطة نوري سعيد فهي سوداء مهلهلة كوجه الفاشية الكالح . في الرابعة بعد منتصف الليل تبسمرت أسماءنا على السطور الناصعة في السجلات الطائلة المنظمة بتشكيلات غريبة وابن الجنوب يتنازل عن ماضيه وينتقي له اسماً كردياً قح واسم امه يتحول بقدرة الظروف من عمشه التي ينابزونه بها الى نسرين أو ستي وغيرهما بهذه السرعة تغيرت كل التفاصيل الثبوتية وبقي فقط دم ولحم المرء يحرسه جلده الخارجي من التغيير الشامل الذي طال كل الأشياء وحتى المقاتل حفنه من سني العمر في المفارز القتالية والكفاح المشرف ينخرط في حال آخر لايحسد عليه كمن أمضي معظم مراحل عمره في طلب الصدقات ، ورغم أن هذه العوائل لايمتلكون شيئاً محذوراً الا أنهم ترهبهم اجراءات التفتيش لأنها مقترنة بقصد ارهابي ونوايا سيئة ، والنساء أكثر تهيباً من تلمس الجسم بكل تفاصيله ، تراها تجفل كأنها تخفي في ناحية من جسمها درة وينتهي التسجيل تتويجاً بعملية التفتيش القصيرة وبورقة صغيرة تحمل رقم الخيمة واسم صاحبها الرئيسي وعدد افراد العائلة . وخيمتنا اليتيمة كالعروسة وجدناها تنتظر قدومنا بفارغ الصبر وهي مجردة من لوازمها كعروسات المهجرين ، لايمتلكن غير الجوهر الإنساني عارياً ، هكذا كانت خيمتنا موغلة بالعمر وموسومة بالخط الأحمر العريض ٤٠٤ هذا هو رقمها الذي حفظته عن ظهر قلب منذ دخولنا لها قبل سبرة الفجر وعلى حاشيه منها داخلية كان تاريخاً قد كتب باليد تعريفاً بماضيها السحيق وهو ١٩٤٣/٧/٥ ولاندري كيف تسنى لها العيش طيلة هذا العمر ولم تطأطئ راساً للعواصف المعادية وتذبذب الرياح ، وجدنا الهواء يعبث بها ما يشاء ولايقف بعينيه احداً وهو حليف وطيد للشمس الغدارة . امضينا ساعة ونصف تحت أجنحة الخيمة وهي تخبو كطير يحنو على فراخه عند مداهمة عدو خارجي لتتحرك وحوافها تكنس ما في الأرض من شئ ولم تمدنا بمزيد من الدفئ ولا أمان يذكر .

منذ الصباح غدونا وبيتنا الجديد كلاً لايتجزأ امام تحديات الاعداء

والاسلحة التي يتدججون بها ، اخذتنا غفوة الصبح المغرية بنومه قلقة حتى جاءت الشمس التي لازالت على ديدنها القديم لاتماري مريضاً ولا رضيع ، مدت خيوطها مباشرةً في كل خيمة من نوافذ فيها فأفاق النيام في وقت متقارب يبحثون عن حاجاتهم ويتطلعون للجيران لتبادل الحديث معهم وتبادل الحاجات ايضاً بعملية ائتلافية وتعارف في هذا الصراع الناشئ مع الحياة . والأطفال في نهوضهم من النوم في أجواء الفوضى يغافلون أهلهم ليسطوا على خبزة في يومها الثالث طعنتها جذوة الجمر في أغلب مناطق جسمها الرهيف وقطعة من بقايا الحلوى الذائبة عساها تمدهم بشئ من الحركة والقوة . ولم يعد اشعال النار كما هو في كردستان لانعدام مصادرها اذ لاحطباً يذكر ولاغيره سوى بقايا من القش تمحورت خلف بعض الصخور أو في حفرة احدثتها مياه السيول . وأواني البيت لاتوجد عند اغلب العوائل بداءً من ملعقة الشاي حتى القدر البخاري ، هكذا فالاجواء ولدت كيفية معالجة النواقص التي لاتحصى . وعند المناداة لتوزيع المساعدات من الأكل الجاهز يركض المئات معاً وكل يحمل اناءه المميز ، علبه وجدها بين الخيم وأخر ابريق فقد انفه في لجة الاحداث ومن لايملك أي من هذه الألواني تفاهم مع المعارف لجلب حصتهم حيثما يعالجون الأمر لاحقاً وامتدت السلاسل البشرية يدافعون بشراهة كان أحدهم لايعرف الآخر وهم لايعرفون نوعية الغذاء المرتقب وعندما يتمضون به جيداً يجدونه تكتلاً من العدس الأسود المائل للزرقة لكنه يتنافر تناحرياً مع المياه التي يتمرغ فيها وهو على هيئة الكتل الرصاصية الخاصة ببنادق الطيور وكميته وفيره لسوء مواصفاته كما يبدو ، يجلبون حصتهم عائدين بسرعة خشية ردود الفعل السلبية والمشادات مع أفراد العائلة .

الصمون هو غذائهم الأفضل والأكثر وفره والأحسن نوعية اذ يجري التعامل معه للوهلة الأولى وكأنه قوالب من الكيك هذا ومن جانب ثاني فإن معاناة من ليس له عائلة تختلف كثيراً وأصعب فهو أمام مهمة التفاعل الايجابي مع الجيران ويظهر بحالة نشاز بينهم عندما يكون في العراء وهو

يغسل ملابسه الرثة المتسخة أكثر من الاخرين ، ويطبخ في كل الوجبات ويتدافع مع النساء على نقل الماء من المرافق الصحية ويركض وراء عربات نقل النفاية وغيرها خاصة وأوساخ البعض متميزاً بما تحتويه من القناني الزجاجية المحذورة .

ان مخيم ماردين هو الأكثر متاعب قياساً بالمخيمات الأخرى فقد كابد صلابة الشتاء ونزعات الصحراء ونزقها ، فالطبيعة لاتلبث أن تأتي برد فعلها العنيف معبرة عن ذلك بشتى المظاهر تارة تأتي الرياح من حيث يحط الجليد ويقطن الثلج معظم موسم الشتاء وحتى تنهال السيول بسرعة جنونية لتبلغ درجة من التهديد الفعلي لأمن العوائل . والرياح بمقدار ما هي شرسه فهي لاترحم بهؤلاء الأبرياء وهم بكثافة لاتسمح لهم بحرية الحركة وكمن يعيش في ملجأ محدود الابعاد وممكن تصور ذلك عند معرفة أن ١٦ الاف مواطن يعيشون مساحة طولها يقارب ٧٠٠م وعرضها ٥٠٠م ، يتحركون في هذا المجال الضيق وبينهم المريض وكبار السن والضرير وذوات الأمراض النسائية الخاصة ورعيل لايستهان من المجانين أيضاً انصرمت فترة من الزمن الردئ كما يقال في هذه الأماكن التي لا يحسد عليها أحد والنهار هو المتنفس الوحيد بعض الشئ ، يتابعون الأخبار من كل المصادر وتخرقهم للأسف الاشاعات المضادة بسهولة وهم في منتداهم اليومي الفسيح الذي تجري فيه نقاشاتهم العقيمة سيراً كان أو على الأرض فإذا اردت اللقاء مع أي كان تجده هناك في الساحة التي يدعونها (الميدان) وقد شكتهم أكثر من مرة ، قالت عن روادها أنهم وراء تسريب الكثير من الأخبار العارية عن الصحة والاشاعات الضارة بل المثيرة للاعصاب ولاندري لخدمة من انجرارهم هذا ؟ انه انكعاس لنشاط السلطة الحاكمة في بغداد لمزيد الاسف من يروج لقرارات العفو المزعومة ؟ والذي يخفف من وطئه اجراءات الارهاب الشامل .

في البيوت فهناك سلسلة من عوامل ابعاد الشيهة وتكدير الخواطر ، تتظافر النوايا السوداء ضد هذه العوائل التي لم ترتكب جرماً يذكر ، وحتى

الطبيعة تعكف ذيلها متنكرة عن دورها في خدمة الانسان دون مقابل ، تثور رياحها لاتفة الاسباب لتأتي من كل فج بالمنقصات خصيصاً لتدفعها في كل خيمة دون استثناء ومباشرة دون مراعاة الوقت المناسب لاتاخذها رافة بعائلة بل بمناة العوائل ، غذاءهم اليومي الهزيل غير متوازن القوى وقد فقد مواصفاته وتحلي دون خجل منه بمواصفات اخرى ومكونات دخيلة شوهت اللون وأفسدت الطعم والرائحة معاً . أما خيمتهم فهي الأخرى حركت اجنحتها كأنها عازمة على الاقلاع ، وتبدأ العواصف على حين غره وفي ليلة ثقيلة جاءت عاصفة رملية في البداية لكنها تكللت بذروة ما تحمل امواجها الهوجاء من ذخيرة حية ، وامطرتهم السماء بوابل من المياه لتطليهم برشقات الثلج ، عرفنا في مابعد أن هذه الليلة كانت متواطئة ، منذ البداية عندما اعطت مجالاً لتطلعات الريح وغزوات المطر واجواء تتمادى حتى تطال كل بقعه من هذه البيوت البائسة أصلاً .

تفاجئنا مثل هذه الحالات الطارئة فيلقي كل بالملعقة وتنتشر العوائل صراعاً لكنه غير متكافئ مع الطبيعة متحوطين بها يحتظئون الأعمدة الركنية لخيمتهم المهزوزة من الاعماق مروضين شدة انفعالها ويزجون بكامل افراد العائلة بالمهمات المناسبة لكل منهم ، يلتحمون كالمنغناطيس في مواقعهم في وقت تتلاطم الأمواج ويبدوا بلاءاً حسناً في جهادهم بوجه مواجهة السيول العارمة التي لايقف بوجهها أحد . وحتى الأطفال فلهم خطة تحدد أدوارهم المناسبة ضمن خطة الاستنفار العام وعلى هامش منها يشكلون تكتلا رزيناً تحت البطانية وتتوالى مناشداتهم الصبيانية بتصعيد حالة التعبئة والتطمين وتجاهل كل التطورات المناخية وتحدي تدهورها بل الاستهزاء بها متوخين من تكتلهم هذا على طرف من الخيمة جهداً بناءاً بوجه الرياح الصفراء وتعبيراً عن المشاركة الفعلية في مجابهة النوائب والتحديات الخارجية ولكن مهما بلغت حملاتهم الاعلامية المركزة من ذروة رفيعة لها فلا يمكن للأطفال أن يتكافئوا ورغم الاعمار وتقلبات الأجواء الصحراوية القاهرة ، فهذا دور فوق طاقتهم ، وحتى الكهرباء هي ككل الأشياء التركية لاتصمد طويلاً عند

الطوارئ فقد انهزمت مندحرة مع بدء السحابة في اللحظات الأولى والشمهة الفقيرة ماذا بوسعها أن تفعل وهي تحمل حجتها الدامغة على أنها وقعت أسيرة عاصفة عاتية وما دام الكل قد تنصلوا ، لاذوا عن مهبها التي تعبث بكل ما تطول على الأرض ، ورواسي الكهرباء التي لم يكن ببال أحد أن تنساق بهذه السهولة ايضاً لكنها للأسف انجرت باتجاه الضعف الساحق تداعت فجأة وبلا اشعار لأحد وبالشكل الذي لاتتبين مواطئ اقدامها بل تكبس بصورة عشوائية قبعة الخيمة بالضربة القاضية وبخط طولي تجثم عليها دون رحمة وترديها قتيلة ففي ليلة واحدة لكنها كسيفه حققت أربعة أصابات من هذا النوع ، اسقطت خيمات أربعة لم ترتكب ذنباً ولهذا فهناك من ينام وعينيه ترنو للعمود الشاخص على منقربة من خيمتهم وهو يتحرك كمن يؤدي تحية الكبار ، من يدري ترى قد يكون العمود الفارع الذي يبدو وقوراً هو الآخر ضمن القوى التآمرية المتورطة بخطط الايذاء لهؤلاء المعذبين ، ربما يتحين الفرص ويتقمص الأدوار تغطية لقلقه وتبريراً لغدره الوارد في كل لحظة على أنه يريد الانتقام من مضايقة الخيمة له التي لاتعطيه متسعاً من الأرض وهي تلوذ به مستغلة طيبته ومتجاهلة معاناته في صد العواصف والزوابع والرعد وما يترافق معهما . انها احتمالات تؤخذ بالحسبان وتتطلب التدقيق في جداول كثيرة قبل أن يغالبهم النعاس وهم يطاردون النوم . في ساعات متأخرة من الليل هناك من ينهض من فراشه ليقف جانباً يناجي عمود الكهرباء بلهجه جادة طالباً المصارحة قبل ارتكاب أية حماقة ، ينصحه بنبرة تحذيرية ان لايركب الموجه هو الآخر بسهولة خاصة في هذه الظروف فهي ممارسات غير مرجوه ومسايره توفيقية ضعيفة لكنه رغم التأكيدات الداعية للاطمئنان ثانية يأخذ اسوأ الاحتمالات بنظر الاعتبار في حالة أن تجري الرياح بما لاتشتهي الأعمدة ، يحسب كل هذه الأمور بدقة فيراها لاتثير الخشية ايضاً ودون شعور منه يضرب براحة يده على العمود يداعبه بلطف توطيداً للعلاقة كأنه يلتمسه العذر عن خطيئة قديمة ويتبادل العهد معه من جديد ومع كل هذا يجرف قليلاً من التراب بقدميه ليزيد من

ثبات القاعدة أكثر حتى يعود لفراشه عله يستكين من القلق وهناك ايضاً تتدخل عناصر التشكيك بتعهدات خشبه جوفاء قاصرة التقدير وضعيفة المواقف ، ماذا نقول فيما اذا نقضت عهدها على غفلة منا ونفذت ما لا تحمد عقباه فيسحب فراشه قليلاً بخطي تراجعية كي لايطاله مثل هذا الاحتمال وحال كهذا لاينعزل بعيداً عن كل المواقف المهزوزة ، فالثقة قد اهتزت بأغلب الأشياء عدا قدرة هؤلاء الناس على التحمل أمام هذا الاختبار الذي ليس من سواه .

اعتادوا النهوض المبكر ليكونوا قبل غيرهم في ساحة انتظار الفطور ولايعرفون مايكون ، يحملون قدراً واسعاً لايملكون غيره واذا بزادهم حفنة من الزيتون وغرفه من الشاي الجاهز يحمل من الحرارة كأنه قادر على مناهضة وصهر كل ما هو جامد في الطبيعة ليبث فيه الحياة والحركة ، وهناك يبدأ التعليق اللاذع والارباك المفاجئ كيف يمكنه الجمع بين الاثنين في اناء واحد خاصة والجماهير الكردية الغالبة لايستسيغون الزيتون بمفرده رغم معرفتهم بدعوى كثرة منافعة اسوة بالتين لكنهم يريدونه بصحبة اشياء أخرى كالطرشي (والبرياني) وغيرها ولايحترمون الزيتون بهذه الطريقة المفتعلة ثم انهم يجدون تناقضاً مع النص الوارد في الوثائق السماوية الذي يفترض بلداً آمناً في وقت لايعرفون للأمان طعماً وعموماً التغذية قليلة والجوهري فيها ردئ والتحايلات اسلوب شائع مثلاً صاحب العائلة من ٥ أفراد يريدها ١٠ ولايتنازل عن ذلك وهذا عرف سائد وحتى الأتراك يعرفون ذلك ويغضون الطرف عنه . كل الأشياء نسبية وقلقة والضعيف في هذا الزمن تأكله الظروف وتطوله اللائمة ويغزوه الاحباط .

ومن المظاهر الشائعة أن المصلين بمقدار كثرتهم تضيع عليهم الأوقات لاداء هذه المهمة الروحية ويختلط الفرض مع السنة فتتداخل لتؤدي دفعه واحده وعندما يتوقف ماء الحنفيات وهذا ليس نادراً تأتي مياه التنكرات الطويلة ويتحول كل منها الى قائد لتظاهره صاخبه ومختلطه من النساء والرجال وبكل الأعمار وتحتدم الفوضى ولايركن أحداً للإنضباط ومن يتمالك نفسه

بدوافع الخجل والالتزام يعود خائباً الى بيته وهؤلاء لايشكلون نسبة ذات شأن امام من يرونها فرصتهم وميدانا الى الربح والخسارة أما الحمامات فهي لاتوجد بمعناها أصلاً في اية خيمة ولاعلى مقربة منها ويجري ما يسمى الاستحمام داخل المرافق الصحية الجماعية البائسة بماء بارد وقليل والعشرات فقدوا حاجاتهم بهذه الطريقة ، ومن يجد من هذه الحاجات شيئاً بعضهم يأتي بها فوراً يعيدها الى اصحابها شرط أن يذاع اسمه في مكبرات الصوت ويشاد بنزاهته وفي هذه المعمعة تحصل المشاجرات والتدافع خاصة بين الشيوخ والصبيان حيث لاتنسيق ولابرمجة بقيت في هذا الزمن العاهر وقضية الحمامات اخذت تعالج في كل خيمة في البداية بشكل مبادرات لكنها بعد ايام حققت هذه الوجهة فوزاً ساحقاً فلم تعد هناك خيمة واحدة متحررة من الحمام النموذجي المحشور في زاوية لاتربو على المتر بافضل الأحوال وعندما يدخله الواحد يفرض على الآخرين التشرد والانتشار في الخارج في حرارة الظهيرة أو بعد منتصف الليل أو عند انبلاج الفجر الخ أي ارتباطاً بفترة مجئ المياه .

أما الأواني فهي عجيبة المنظر فمثلاً يستعيضون عن قدح الشاي المعتاد بقنينه بلاستيكية كانت على هيئة بطل اعتيادي فانشطر من عند نصف القامة ، وبدلاً من اناء الاكل المألوف بقاعدة الصفيحة المتاكسدة وعن القدر بسطله متهرئة الحواف وعن ملعقة الشاي بسكينة صدئة ترفض تنظيف نفسها وهكذا مع الأدوات الأخرى وعندما اقترب الشتاء افتربت الحاجة للملابس الملائمة تحسباً لتغيرات الجو وصباحاته المبكرة المفعمة بالحركة في الفجر المعمد بالجليد الذي يكفن واجهة الأرض ويوقف السيولة في اية مادة مكشوفة . ثم هناك الطلبات التي لاتنقطع فكل عائلة تمتحن الأخرى بعملية المقايضة ولكن المخيف فيها تباين قيمها الاستعمالية فمن يطلب رز مثلاً ليس كمن يطلب شخاطة والشكر لايقارن بالزيتون وبالمعكرونة المذمومين . ذات يوم من أيام الخريف رب المفاجئات واذا بظاهرة مبتكرة تنبع للوجود وتروج بالمخيم لدي البعض أولاً ثم انتشرت وبائياً ، فقد ظهرت

موديلات من الملابس المصنعة محلياً من أجساد البطانيات الاعتيادية التي وزعت قبل أيام ، ظهرت في حله جديدة ... روب ... بلوز ... قمصله ... بجامه ... قبعة ... يلك وغيرها وواجه الناس هذه الموده في البداية بشئ من السخرية والتعليقات ويهمسون وراء ظهر الرواد الأوائل لهذه التشكيلات التي فرضتها الظروف للتصدي لهجمة البرد الصلفة ولكن أيام قليلة حتى تحولت هذه الحالة لتعم المخيم بكافة ارجائه حيث تبات البطانية غطاء لأحدهم وفي الليل يتفحصها جيداً ويحدد موعداً صباحياً معها للعملية الجراحية التي تطيح بها وتغير نمط حياتها جذرياً فكفاها تقوقعاً بين اجنحة الخيمة القابعة على الأرض لتظهر من جديد وهي تعانق الجسم بكل تفاصيل اجزائه وحيثما كانت تحركاته ويعلق أحدهم : البطانية حياة مثل الطماطة في نجدتنا فهي اشفق من كل المتاجرين بالكلام المعسول المجرد .

وفي هذه الظروف الصعبة والفراغ القاتل اخذوا يبددون ذلك بالألعاب الغير هادفة وعادت من جديد لعبة الدامة والدومنة التي قد اندثرت منذ سنوات فهم يعملون ادواتها من الحجر الفخاري الأحمر . ثم ان قصصهم خرافية كانت سائدة ابان العهد العثماني ماتت فنبشوها لتكون برنامجهم الثقافي الفصلي وابطالها غالبهم من الثعالب فهي عطاء بائس لكنه للكثيرين متعة يمتص وقتهم . ولاتفوتهم نشرة اخبار واحدة أو تعليق صحفي في اذاعات العالم وعندما يسمعون كلمة كردي يصغون باهتمام للحديث وتظنهم ايقنوا فحواه لكنهم ما أن ينتهي سياق الخبر حتى طلبوا مرماه ، تخونهم اللغة ودقة المفاهيم السياسية وأحاديثهم تحمل من السذاجة الشئ الكثير وتحاملهم على الأحزاب يتفجر عندما يسمعون شيئاً عنها ويريدون للعالم تغيير نقاط بحثه لتكون قضيتهم في المقدمة وتغيضهم حالة الاهتمام العالمي بالقضية الفلسطينية وكان بحث هذه القضية هو على حساب قضيتهم التي يعتقدونها أكثر التهاباً وحدة .

أسرار الرجال تكشفها النساء

في الصيف في ساعات الظهيرة حيث الحرارة على أشدها تتحدد حرية المرأة في خيمتها فقط وتنطرح أرضاً بعد أن هدها التعب ، تداعب صغيرها ليضحك ببراءة كأنه بعيداً عن هذا الواقع المرير ، يتطلع عله يحظي بغذائه المفضل ، وأخرى لاتجد مناسبة تعنيها كي تلبس بدلتها الجديدة الجذابة التي اختارتها على ذوقها من القماش المخملي . ومئات الأطفال جاءوا للحياة فتحوا عيونهم عليها فوجدوها هكذا معقدة شرابهم الدوشاف (الدبس) وجرزاتهم بسيطة عبارة عن الحمص لوحده بأي شكل كان لبلبي أو محمص حد السمار الحنطاوي وتبركوا لأول مرة بالكنجر (١٧) الذي لم يجدوا سواه ستاراً لهم وحده كسوتهم الرايسية وبعضهم لايمتلكون حيلة وهم يطمحون في الحصول على بدلة من قطعة قماش جاءتهم تبرعات وهي لاتتجاوز المترين فأي بدلة هذه التي ينقصها ثلث حدها الأدنى لاشك أنها نحيفة لاتنسجم مع تفاصيل الجسم وكل جزء فيها قد عاش تجربته في التقشف وفرض عليه الضمور ولم تعرف الجيوب ولاتفنن بنهايات ما يستر الأيدي .

هذه الحياة قد أفرزت معطيات غير مألوفة وربما هذا الحديث يثير حفيظة الرجال وهذا مالانرجوه فالرجال عرفوا تكريس السلطة في ايديهم فهم قوامون على النساء ، لكن نرى للحقائق منطق آخر تماماً ولسان حال هذه الحقائق يقول :- ان النساء في هذه الحياة بالذات والتي هي المحك الأكثر صدقاً واعتماداً للاختبار ، اكثر كفاحية وعطاء من الرجال وليعرفوا الرجال هذه الحقيقة جيداً فالمرأة والحق ينبغي أن يقال في حركة مستمرة معظم الوقت تكابد الظروف والأمراض وتبحث عن اللغة المشتركة مع كل اطفالها وتبرمج وقتها بدقة كي لايتضارب مع الأعمال الأخرى الضرورية .

تسهر الليالي لتأمين راحة البال لزوجها الذي لايأتي للبيت حتى يرى ساعته قد تخطت الوقت المقرر للوجبة المعينة ، حين يأتي للبيت يكتفي لتقديم الملاحظات عن نواقص الغذاء وتدهور تركيبه النوعي وكأنه غير معني بمعالجة ذلك دون غيره . وأحياناً يسرب جملة من الأخبار التي اصطحبها من المسرح اليومي وهو بنفسه لايثق في أغلبها . في وقت المرأة عكس هذا فهي لولب البيت حين يشتد مرضها وتنقل للمدينة لأكثر من يوم أنذاك يتحدد البعد الحقيقي لفراغ تتركه بغيابها وتعم الفوضى وترتبك الحياة ولايعود للبيت وضعه الابععودتها لتضع يدها على الخلل واجتثاثه .

فهي التي تمضي اكثر من خمسة ساعات يومياً في جلب المياه من بعد مئات الأمتار وتسهر على تأمين النظافة لأطفالها والاثاث ، والكرديات متشددات بالنظافة ، ناهيك عن الطبخ ومتابعة زوجها الذي يهمها هندامه كانعكاس للبيت وترتيبات الزوجة النادرة ذات الذوق الرفيع ، وأحياناً كثيرة تذهب بعيداً كي تجلب قليلاً من الطين الابيض الخاص بصقل جدران الخيمة وارضيتها وتؤدي ذلك بطريقة متعبة للغاية بواسطة ملعقة الأكل بشكل مراحل ، كم هو متعب جهد كهذا وكأنه من مهمات النساء فقط ، الرجل ارفع من ذلك كما يقول كيف يمكنه الظهور وهو يحمل اناء الماء على كتفه أو أن يضع ادوات الشاي امامه ويقدم قدحاً هذا تنازل ومؤذى للرجال في عرفهم . هكذا فإن معاناة المرأة كثيرة وهي عرضة للانتقاد ، ما أن

حصلت منها زلةصغيرة فهي أمام التزام اجتماعي عام وصارم ورغم كل هذه الضوابط فقد سجلت حصانة مطلقة تقريباً ، فلم تحصل مشاكل اجتماعية تذكر رغم الكلمات الجارحة التي كان يثرثر بها الملا الصغير عن نواقص وتجاوزات النساء لم تحصل حالة واحدة مكشوفة لخطأ خياني من امراة اي كان منشأها السابق وبأي الأعمال اذن دعوة الملا للعفة باطلة من اساسها في ان الكثيرات مسرفات في الانطلاقه ومتمردات على الواقع ويتعمدن ارتداء الملابس المثيرة والمظهر الذي يتجاوز الاطار الاجتماعي المحافظ وغيرها من الأحاديث التي كان يحدد لها نصف ساعة تقريباً قبيل وقت الفطور من كل يوم وأصبحت تعليقاتهن الساخرة الوسيلة الاعلامية المضادة والاكثر دحضاً ، والويل لمن يقع بألسن النساء . وأصبح هذا الموضوع مادة يومية للتثقيف وصراع محتدم بين الجديد المتطلع للنور والقديم المرتبط بالظلم البشري والازدواجية السلوكية . غدا حديث المراة اكثر جراة ووضوح وليعلم كل من يريد الطعن بتخرصات جوفاء ان مشاركة المراة في الأعراس واداء الدبكات يداً بيد مع الرجال وارتداء الملابس اللائقة وزيارة المعارف وتوطيد العلاقة وتبادل العواطف واختيار الطرق المشروعة في اقامة الاتباطات وغيرها كلها ممارسات انسانية مقبولة كمبادئ وهي ميدان لاعطاء الأحكام الأكثر صدقاً ونزاهة ...

والكثيرات أخذن يرددن اثناء النهار النكات والتعليقات اللاذعة على أن الملا يسمعنا وهو لايقبل ان نضحك أو نرفع ملابسنا قليلاً كي لاتتبلل ولانجامل الرجال من الآن فلديهم غايات أخرى وهذا مالم نعرفه قبل الآن .

وسارت الحياة وفق منطقها الجبار فتعمقت الالفة بين الجماهير واتسعت العلاقات كالسيل العارم ، اكتسحت كل الأصوات النكرة وتكلل النشاط الانساني هذا بظاهرة الاتفاقات اليومية وتفجرت حالات الزواج بسرعة قياسية ، تذللت الكثير من العقبات في هذا الطريق ومن أبرز الدوافع التي شجعت على ذلك هي قلة التكاليف اضافة للخوف من التشتت الى الدول الأوروبية المخيفة اجتماعياً كما يقولون صيانة للشرف من خفايا المستقبل

الداهم ولكن السبب الاكثر تاثيراً هو ان الاختلاط في مخيم قد تحول من قربة صغير ضيقه الى مئات القرى ، شباب وشابات جمعتهم محنة الحياة معاً هذا خلق تعارف وتفاعل وبدء علاقات وتطورها يومياً حتى بلغت مرحلة الاتفاقات النهائية بغضون ايام فقط ورغم ما تحمله السرعة احياناً من عدم التاكد في التشخيص لكن هذا لايقارن مع النجاحات الساحقة ناهيك عما يحمله التاخير من آفات .

وسبب آخر هو أن الزواج عامل اساسي في الاستقرار النسبي وتبديد الكبت الذي يواجه شباب في مقتبل العمر ونزعاتهم نبيلة ، اصبحت عمليات الزواج هبة رائجة بحيث خلال ثلاثة اشهر تقريباً تحققت ٤٠٠ حالة زواج ولم تحصل حالة طلاق واحدة ، وأحدهم اعطى أمه لقاء زوجه له بالتبادل ، جرفته الموجة لكنها اخذت به وأمه ايضاً الى شاطئ الوئام وكانت هذه حالة للتندر . لم يحصل أن تزوج أحداً باكثر من واحدة على الاطلاق وهذا مظهر على عدم عفوية هذا النشاط على العكس تماماً كان واحداً من أنزه الممارسات بين القرى والعشائر التي كانت تضع الحواجز فيما بينها على انها تقاليد جديرة بالصيانة والاحترام . نساء لايعرفن الغزل الرخيص ومطاوعة العواطف الصبيانية والتعامل المبتذل ، يحملن النفس على التهذيب والصرامة ، فالمجتمع ضيق وقاسي ازاء هذا الجنس من البشر ولهذا فالمكان الوحيد الشرعي لعقد اللقاءات بينهن هو في فترات جلب المياه التي تستغرق معظم الوقت ، هناك يتبادلن الأحاديث الشجية والأسرار كل تبحث عن صديقاتها وتنسى نفسها والالتزامات الأخرى فهي في مهمة رسمية وكفى خاصة والمكان لتواجد النساء فقط وصفيحة الماء تأخذ سيرها اقتراباً من الحنفية التي لاتكف عن التدفق وعلى جانب من هذا المشهد تعقد تجمعات النساء والوقفات الحذرة لكنها وقفات عمل كل تتابع الجديد تسأل عن هذه وتلك لكي تعرف كل الحوامل والمخطوبات ومن في طريقهن عراقيل وتفاصيل المشاكل العائلية ومن وراء الاشاعة الفلانية عن وجود العلاقة الغرامية بين فلان وفلانه فهي رغم انها لا تسجل حديث اللقاء لكنها

لاتفوتها كلمة واحدة بل يستنسخ كامل الحديث بدقة في دماغها وتفرزن الحصيلة دون التباس لتقريرها اللاحق مع الاخريات . وبين ما هي في غمرة حديثها والتساؤلات واعتذار عن مسألة تهمها وموقف يعنيها بغتةً واذا بأنائها يطفح تحت نزيف الماء الذي يأبى التوقف وهكذا ترتبك نقاط الحديث المثارة بأكثر مما يتجمل الوقت . ومن الحالات النادرة جداً ندرة الديمقراطية في بلادنا ان تجد رجلاً وزوجته متفاهمان الى الحد الذي تجدهما يحملان صفيحة الماء معاً احدهما يعين الآخر والحالة اكثر غرابة ان تجد شاباً يسير عصراً ويده بيد خطيبته وهما على ابواب الزواج ، طموح كهذا شبه مستحيل غير وارد تخزره الانظار كأنهما اقترفا جرماً وعندمايريد احداً ان يوثق هذه الظواهر ويرصدها وهي حية من دم ولحم يخشى التفسيرات بالنوايا السيئة وكم كان محرجاً عندما اقترب من حشد نسائي بالمئات على حنفيات المياه واخرج علبة الكاميره بهدوء ليلتقط صوراً مرتبكة وهو يرتجف كمن يساهم وفي اقتحام ربيئة لأول مرة . وعلى عجل لاذا بين الخيم تلاحقه التأشيرات والنظرات السديدة ، ولكن رغم هذا لم يتوقف مشروع اختيار اللقطات لتغطية الموضوعات المعدة وساعة فقط حتى جاءت احاديث الاستنكار قالوا بالحرف الواحد :- أن شخصاً شيوعياً يحمل الكاميرا وواجهتها بيضاء يلاحق الشابات وينتزع اشكالهن بصور ملونة ويروغ عن الانظار ربما وضعوا هذا بقالب اخر كأنهم اصدق حرصاً على النساء من الشيوعيين وهم انفسهم يعلقون احياناً على أن حزبنا الشيوعي حليف النساء وهو كذلك فعلاً ، كان الاحراج بالغاً حين تواجهني شابة متألقة تحمل اناء الماء على كتف منها وتنوء تحت ثقله ليزدها طولاً ويمنحها الوقار فها هي قد أصبحت في عداد البالغات ممن خطف قلبها الى حيث قلوب كل العاشقات المخرمات بالقيافة والاتزان . الم تكن هذه اللقطة هامة ؟ كانت تلك هي الاكثر اهمية لكن عدسات العيون وسهامها رمت من بعيد ، تصدت لتطاولات الكاميرا فأردتها قتيلة في كفنها البالي الممزق ولم تأخذ اي صورة لموقف كهذا بل كانت صوراً اعتيادية لاتثير احداً ورغماً عن الكاميرا

وصاحبها روعيت الأوضاع الخاصة والتقاليد المحافظة في المخيم وتداخلات كهذه لاتستطيع الكاميرا الالمام بها وجمع تفاصيلها الموزعة في كل أرجاء المخيم ولكل لحظة يعيشونها في يومهم الفوضوي .

يوم جاءوا كالغرباء

ان اسطراً قليلة لايمكنها ان تعكس شئ ذا بال سيما والحديث يدور عن سلوبيا (معسكر الاعتقال الفاشي) الذي ضم ابناء شعبنا الكردي الفارين من غازات الموت ... فالجماهير هناك عاشت محنة وليالي حالكة فقد ضايقتهم السلطات التركية بشتى الحجج والأساليب ... انها الفضاعة بعينها ... ارهاب ... سور منيع من الكونكريت المسلح متوج بأسلاك شائكة تكشر عن اسنانها ... مدرعات تجوب طرقات المخيم ، جوع مزمن ، اصوات الرصاص وازيره يخترق اذان الطفولة ، شبح التسليم يطارد الجميع ، وبنايات ابراهيم الخليل تكاد ان تتهيئ لاستقبالنا والجزمات العسكرية والمسدسات (تحت الجاكيت) وعيون حسن (١٨) وأعوانه تريد اختراق الخيم ومكبرات الصوت تصيح كالخلايا بأسماء لانعرف عنها سوى أنها قد تذهب الى المصير الذي يخشاه الجميع . وازاء كل ذلك تجد التحدي والاحتجاج والتظاهر والاستشهاد من جماهير لاتملك غير الأيدي العزلاء ، كل الاشياء منهم لاتوحي بالأمان ولكن شيئاً واحداً منها قد حصن الجميع ، انها وحدة الكلمة والتصدي الجماهيري وعدم الاستسلام . وعندما جاء العفو الصدامي استجاب سبعة اشخاص فقط من مجموع ثلاثة عشر الفاً كاملة ومن السبعة هؤلاء ثلاثة نساء واربعة أطفال جميعهم كانت عوائلهم تحت ايدي السلطة في دهوك وزاخو لم يكونو من سكان الأراضي التي كانت تديرها الثورة ، والحصيلة ان دماء منا قد سالت على الساحة المبلطة الفسيحة امامهم ، فزجاج شبابيكهم قد تحطم حتى الطابق الثامن وتحطمت معه نواياهم الشريرة وقد جربوا انفسهم مرة أخرى على منظر الدماء أو الجماجم المهشمة قد فت في عضدنا ولكن هذه المرة كان التصدي اضعافاً

مضاعفة ، مما اضطرهم الى طلب الرحمة والاستعداد لتلبية كل المطاليب . لقد تعامل ما يسمون المسؤولين (القائم مقام والشرطة والأمن) بعنجهية وجلافة ، فهم كما يبدوا كانوا اسرى التأثيرات العراقية الضاغطة ، وبحكم زياراتهم المتتالية الى زاخو ولقاءاتهم المشبوهة مع المسؤولين الفاشيين هناك ، فقد نشطت تحركات العملاء داخل الجماهير نفسها واتسعت ممارسة البلبلة والتلاعب بالمشاعر ، وفي واحده من حوادث المواجهة المباشرة بين الجماهير العزلاء الا من الأيدي والحجارة (فالأيدي والحجارة سلاح الفقراء الأمضى) وبين الجندرمة المدججين بمختلف الأسلحة ... وقع شهيدين من جانب الجماهير ووجهت الاهانات والضربات بالأيدي والحجارة الموجعة الى المسلحين وتأزم الوضع ، وعلى اثر ذلك نقل عدد من جانب الجماهير ممن اعتبروهم وراء حوادث الشغب كما قالوا عنها ... كان هذا الموقع لايبعد أكثر من خمسة دقائق بسيارة اعتيادية عن جسر ابراهيم الخليل ... الرابطة النهرية بين تركيا والعراق وهذا بحد ذاته مبعث خشية من تدابير الاعداء ونشاط العملاء فالمساومات وحتى الجرائم المدبرة تحوكها في الخفاء عناصر تخفي رؤوسها في كلا الجانبين والتنسيق فيما بينهما ، ولهذا ازدادت المطالبة بالنقل من هذا الموقع المهدد لأشكال المخاطر وفوضى الحياة وفعلاً بدأت اعداد كبيرة تنقل من هناك بعضها الى ايران والبعض الآخر الى مردين الأكثر استقراراً والأسهل تعايشاً وفي غضون التشرينين من عام ١٩٨٨ تم نقلهم جميعاً ليضيفوا الى مخيم ماردين نمواً سكانياً مفرطاً حد التخمة ، وعادة يجري الاعلان مسبقاً ان كذا عدداً سيصل قريباً وتبقى الجماهير تنتظر بفارغ الصبر ، تخترق كل الحواجز الشائكة كالسيول لكنها بشرية لاتقف امامها الموانع ومناشدات الانضباط الداعية للهدوء وبعيداً عن مبنى الادارة ومواقع المسؤولين ، لكن هذا مستحيل كيف وهي مشاهد لايمكن أن يتخلف عنها احد ، وحتى من لديه اشغال يتركها كما هي ويلتحق بالآف المستقبلين وتبدأ نداءات الترحيب والتلويح بالأيدي من بعيد والتصفيق ودموع الكثيرين تسبق ابتساماتهم فهاهي الشاحنات

تقترب مغطاة بالبشر ، وبحال يرثي له ، كل يحجز معارفه يختزلهم ليكونوا ضيوفه الأعزاء . في واحدة من هذه الوجبات ، اظنها الثانية جاءت عدد من الشاحنات الطويلة ذات الجدران السميكة والسقف القاسي وعلى بعد قليل وقفت هي وكل شئ اخر توقف وسادت الدهشة كلاً من القادمين ومستقبليهم ... ترى ماذا لهذه الجماهير داخل الشاحنات ؟ اليسوا هم جماهيرنا التي عهدناها برفض القيود ؟ تردد الراكبون من ترك مواقعهم والنزول والحق معهم فبماذا يواجهون المعارف وبأي الوجوه يلتقونهم ؟ إنهم يهابون اللقاء مع ناس هم جزء منهم وقد لطختهم مادة سوداء داكنة هي من آثار الفحم الذي كان ينقل بنفس هذه الشاحنات واختاروها دون غيرها لقصد خسيس تعبيراً عن الاهانة ولكسر نفوس هذه الجماهير التي اقسمت اللاتذعن للفاشية ولاتساوم قيد شعره لمشاريعها الارهابية فهي أدركت منذ البداية ان طريقها عسير لكنه الاختيار الوحيد ولابديل سواه وأخيراً نزلوا من الشاحنات بصمت لايعرفهم أحد وليسوا على طبع من سبقوهم في المجئ ، ليس بينهم من يضحك ولا يرفع عينيه بوجه مستقبلية انتشروا في الساحة كأنهم عادوا للتو من تشييع عزيزهم ، جلسوا على الأرض رطبة ووجوههم باتجاه اخر والهواء البارد لايرحمهم هو الآخر ينتزع منهم غباراً اسود ليأخذ به الى أجزاء أخرى من أجسادهم وزخات المطر الخفيفة تكحل كل الأجزاء التي لم يطلها هذا الطلاء الغريب ، وحتى الآن لاتعرف جماهير مخيم ماردين ماذا حل بهؤلاء ، ركضوا صوبهم للاستفسار أولاً فتعانقوا بحرارة وتبادلوا السواد بينهم ، فعرفوه من بركات حلفاء الفاشية الحقيرة طال عناقهم وتبادلوا القبلات الطويله ايضاً احدهم يحضن الآخر ... هكذا نلتقي وتحول الموكب الجماهيري الغاضب الى مشهد مؤلم لايمكن وصفه .
كنت في البداية لاأفهم ماتعنيه الكلمات والقصائد الارتجالية باللغة الكردية التي كانت تبثها مكبرات الصوت الى كافة أجزاء المخيم احتفاءً وتضامناً وألماً لما حل بأخوة لهم ، ولكن عندما نظرت للعوائل هنا وهناك رأيت المئات من النساء والشيوخ يجهشون بالبكاء البطئ مخنوثين من أعماق الخواطر

فهي اهانة لنا جميعاً ولطخه عار بجبين مدبريها الموغلين في الحقد علينا ورغم المعاناة الكبيرة في مخيم ماردين نفسه فإن الحمامات البسيطة استقبلت هؤلاء لتزيل السواد عنهم وملابسهم وبدت كأنها قد تدنست بأفعال فاشية والقصة رويت بكاملها كواحدة من سلسلة المعاناة لعشرات الآلاف لتكون في أرشيف شعبنا الخالد . هكذا عاشوا ليلة ثقيلة باردة مكتظة لكنها ورغم كل هذا تختزن حلاوة مبعثها أن كل بين ذوية بعيداً عن سلوبيا ذات الأجواء المريبة ووالديها الدنئ وقصتهم هذه هي فقرة هامة من السفر الطويل والسجل الكفاحي الذي يتعمد بالدم والالاف الوقائع الكارثية .

مخيم كفري

قصة الآلاف عاشوا في مجمع كفري قصة لاتقل مأساوية عمن كانوا في صلوبيه مارة الذكر سيئة الصيت ، حيث في كفري البرودة لاترحم أحداً وأغلبهم بدون خيم ، تجدهم في الصباح وجوههم وملابسهم تقطر بالندى وفي الفرص يهجمون على أعمدة الكهرباء الخشبية يهشمونها ارباً ارباً كي يتدفأوا على نارها ويخوضون المجابهات مع الجندرمة من أجل هذا ، وذات مرة اضطر احد الناس أن ينهب كونية اعتيادية بصيغة السرقة لكي يضعها على أطفاله لكنه من أجل ذلك القي في السجن . أما الأكل فهو الآخر بالضد من متطلبات الجسم وحاجاته . وهي في أفضل الأحوال واسوأها تتكون من صمون زائد حلاوة واحياناً قليلاً من اللبن غير المتماسك . في ١٩٨٨/١٠/٥ حصلت مظاهرة ضد وجهة التسليم التي بدأت باعداد قليلة فازداد الضغط التركي كي تطول الأعداد الأكبر وتدخلت السلطات التركية لقمع التظاهرة وفي ١٩٨٨/١٠/٦ عقد اجتماع حضره قائممقام كفري مع رؤوساء العشائر ورسمت خطة لنشاطهم اللاحق والترويج للعفو الزائف وحثهم على التسليم مجدداً لهم فرصة قصيرة لاعطاء الرأي النهائي بذلك ، وعند رفضهم سيجبرون على التسليم وتتزامن هذا مع شتى الضغوطات والازعاجات وتصاعدت صعوبات الجو ، وفي حادثة واحدة ذات ليلة تسلل العديد من الجماهير خارج السيم لسرقة الحطب وعندما عرفوا بذلك الجندرمة اطلقوا الرمادية عليهم ولم يتراجعوا بدوافع الحاجة الماسة وتعبيراً عن التحدي . ان هذه الفترة شهدت تصعيداً للصراعات العشائرية خاصة بين الدوسكيين والريكانيين (١٩) وقد تركز التسليم من الريكانيين

أكثر من غيرهم .

في يوم ربما هو الأصعب من كل الأيام في ١٧ أيلول ١٩٨٨ حيث نهض الناس صباحاً واذا بالمخيم على غير عهده وجدناه مطوقاً بالعساكر التركية المستنفرة ولم يسمحوا حتى للأطفال بالذهاب الى المرافق الصحية واعلنت حالة منع التجول وتصاعد البكاء بين النساء والأطفال مما حدى ببعضهم قضاء الحاجة على أنفسهم ، في البداية قالوا عن اجراءاتهم هذه بسبب حصول سرقة للبطانيات ولكن تبين لاحقاً أن غرضهم الحقيقي البحث عن عناصر من جماعة البكّة (حزب من اكراد تركيا) وفعلاً اعتقلوا امرأة بتهمة تعاطفها مع الحزب المذكور وزوجها هارب الى ايران في هذا اليوم ايضاً فرضوا على الجماهير الوقوف في العراء بشكل طوابير ويتفحصون من يجلب انتباههم فيأخذون من يقع اختيارهم عليه ليتعرض الى أشكال التعذيب والاهانات حيث يضعون اذنهم على قلب الشخص لملاحظة سرعة نبضات قلبه فإن تصاعدت عزلوه جانباً واخذوه الى حيث يرومون ... عمت حالة من الفوضى والسلب وتجاوزوا على ممتلكات الجماهير من راديوات ومسجلات وأمور أخرى واشتدت حملات الاعتقال والارهاب وكادت ان تحصل مظاهرة احتجاجية ومصادمات وبقي العديد في السجن أكثر من أسبوع حتى اطلقوا سراحهم كانت السلطات التركية تحاول معرفة اتجاهات الجماهير السياسة ، اما الأطفال فيموتون برداً وجوعاً خاصة في الليل ، اذ لم يمر ليل واحد دون حالات عديدة من وفيات الأطفال اضافة الى تدهور نوعية الغذاء وكميته الى جانب انعدام أي مظهر للراحة صباح ١٩٨٨/١٠/١١ جاء رجال الأمن التركي المسمى (الميت) طالبين الذهاب الى ايران ومن يرفض يسلمونه للعراق دون مناقشة ، وفعلاً بدأوا يقطعون حبال الخيم لتقع على رؤوسهم ، والكثيرين رفضوا أي من الاختيارين الذهاب الى ايران أو التسليم للعراق ، وتعرضوا للضرب والاهانات والتهديد بالتسليم الاجباري للعراق . وقد ناورو بمسألة النقل الى ايران بحجة عدم ملائمة الاوضاع على الحدود ، ووجود قوات عراقية هناك . بدأوا يحملون العوائل

في شاحنات مكشوفة أمام المطر الغزير المتواصل لعدة أيام بلياليها ، وأخيراً أخذوا هذه العوائل الى الحدود لكن ايران رفضت استلامهم ، فعادوا بهم بطريقة لاتمت بالانسانية بصلة فهم أمام موجه ثلجية عاصفة وجوع لعدة أيام ، وتعامل حاقد كسيف ، ورياح تخترق الجسم لتسطي على تفاصيله الداخلية وتربك نشاطه ، وتواصل هبوط الثلج حتى ان عدداً من الكبار ماتوا من البرد فكيف بالصغار وتعذيبهم الفريد ؟ وما يسمي بالمستشفى هو للاعلام فقط ، فليس له دور يذكر ولكن من يستطيع التصريح بذلك ؟ وهي حقيقة قالها يوماً رجل برئ امتلأ قلبه مراره وتحدث لصحفي عن عدم وجود المعالجة الفعلية ، فأخذوه بظرف غامض الى السجن وغاب أي شئ عنه ولكن حين عرف هذا الصحفي بهذا الأمر تدخل شخصياً في اطلاق سراحه . في البداية لم يكن مسموح لأحد بزيارة المدن القريبة ومن يجدونه هناك يجري اعتقاله مباشرة ، في هذه الفترة اخذوا عدة آلاف الى مجمع موش والعائدين من الحدود مع ايران اخذوهم الى مجمع آخر ، وفي ١٩٨٨/١١/١٢ قالوا من لم يذهب الى ايران او موش ننقله الى سوريا وهكذا صعدوا العوائل ظهور الشاحنات ثانية وهي مغطاة بالثلوج التي ابتدات موجتها الوفيرة منذ صباح ١٩٨٨/١١/١١ ولم تتحرك القافلة منذ الساعة الثامنة صباحاً حتى ساعات العصر الأخيرة وهم بحال لايحسدون عليه ولايوصف . في الطريق حصلت حالات عطل في اكثر من شاحنة فوزعوا ركابها على الشاحنات الأخرى والثلج لم يكف عن الهطول لحظة واحدة ولم تقوى العديد من الشاحنات على تسلق الجبل فبدات محاولات الدفع وكانت واحدة من هذه الشاحنات قد تراجعت عن مواصلة الصعود وكادت أن تحصل لركابها كارثة لولا ان ١٢ رجلاً منهم تطوعوا للدفع لعلهم ينقذوا من فيها وعندما صعدت الجبل تركهم السائق في الثلج وتحرك مسرعاً وكانوا يتعرضون للموت الجماعي كانوا في الطريق يواصلون السير بصعوبة حتى الصباح فوجدوا قرية قريبة ولجأوا اليها وهم في آخر النزعات ، ومن هناك ارسلوهم الى مدينة تبليس . وفي الجانب

الثاني من نفس الجبل جاء النزول المحفوف بالمخاطر هو الآخر فالنزلة حادة وطبقات الثلج تأخذ بالعجلات رغماً عنها وحصلت عدت مصادمات فيما بين شاحنة وأخرى المئات تعرضوا للموت . أما منظرهم فهو مؤلم جداً وهم في مسيرة ثقيلة على الثلوج يتساقطون على الأرض والبكاء يتعالى وخارت قواهم البدنية ونزلت السيارات فارغة وبصعوبة بالغة . وصلوا مدينة تبليس لكن لم يسمحوا للجماهير بدخولها . كانت مواقف الجماهير التركية جيدة وتضامنيه لكن السلطات لاتعلن عن ذلك ولا عن دوافعه . في بداية ليلة ١٩٨٨/١١/١٤ وصلت هذه الجماهير الى مخيم ماردين ووجدوه أفضل بشكل عام مما كانوا في سفرتهم الرهيبة ومغامراتها المشرفة على الموت الحقيقي لكنه بطئ .

وجود وتأثير القوى السياسية

ما هي الأحزاب الرئيسية ؟

منذ البداية كانت مع الجماهير عدة احزاب ممثلة بأنصارها وأعضائها وهيئاتها القيادية وبمستوى اقل من المركزية طبعاً وهي الحزب الديمقراطي الكردستاني (حدك) وهو الواجهة العلنية ، اما حزبنا الشيوعي العراقي فقد دخل العمل السري تماماً وأعماله اليومية أخذت تجري خلف الكواليس ادراكاً لمخاطر العلنية التي كانت شبه سائدة في مناطق نشاط الأنصار ، ثم هناك منظمة الاتحاد الوطني الكردستاني (أوك) وكان وجودهم بالأساس رمزياً وأحياناً يصرحون بكونهم ضيوف على (حدك) أما حزب الشعب الديمقراطي الكردستاني (حشدك) فهو وجود مبالغ فيه حيث هناك هوة واسعة بين جسامة التسمية وبين الحجم الحقيقي له وجماهيره الفعليه واحياناً تعرفه من خلال موقفه المتقاطع بخط يعارض (حدك) بكل شئ . ونمى شعور لدي ممثلي وقواعد الأحزاب الأخرى أن حدك قد استثمر علنيته ليطمس أدوارها خاصة في الخطوات المهمة كقضية اللقاء والتفاوض مع الوفد العراقي ، واسلوب التعامل مع السلطات التركية وكان القرار الحاسم هو في قبضة أيديهم لوحدهم . أما السلطات التركية فهي تخشى وجود التنظيمات وتدفع اطراف معينة للتحذير من ذلك وينصحون بعدم جدوى وجود التنظيم حيثما وجدوا فرصة لذلك ويبررون ذلك على أن الأحزاب التركية المعارضة للحكومة قد تعمد للاتصال بالجماهير المهجرين الاكراد وهذا ينجم عنه سوء العلاقة بين هؤلاء المهجرين والحكومة التركية .

وفي ديار بكر اتصلت اجهزة الحكومة التركية بكل الأحزاب في المخيم عدا منظمة الحزب الشيوعي العراقي ودعتهم للتعاون والتشاور ولم تعلن عن قصدها بذلك .

لاحظنا خشية من نشاط الشيوعيين بل وتحوطاً منهم وتحجيم نشاطهم وهذا يجري في تعامل الأحزاب التي يجمعهم والشيوعيين اطار الحياة الواحدة لم يصرحوا بذلك ، إذ هناك حالة امتعاض وعدم ارتياح من وجود شيوعي يترجم واحياناً تجري التصريحات على أن الشيوعيين ضيوف وتترك الملاحظة بهذه الحدود وهي ملاحظة تعبر عن الشعور بالهيمنة وطموح أن تكون دائمة ولكن هذا جانب في باب الحساسيات والمشاحنات الضارة التي لم تكن غريبه عن تاريخ العلاقة السابقة ، لكن الصحيح أيضاً أن تسهيلات كثيرة بامورنا الخاصة تجري من قبل اللجنة القائدة للمجمع (الكوميته) ولجنة الانضباط التي تقوم والكوميته باعباء ادارة المخيم وتوفير مستلزماته بالتعامل مع الادارة التركية وهناك حرصاً متبادلاً على صيانة وتوطيد التعاون بين كافة أطراف القوى الوطنية في هذا الظرف ، لكن في عين الوقت امتازت فترة الحياة في مجمع ماردين بضعف التثقيف الموحد وضعف الأحزاب في دفاعها عن بعضها البعض ، ربما هذا انعكاس لارادة ونشاط اجهزة الأمن التركي او أنها هكذا تريد وتسعى لتعميقه . باختصار تخلف الأحزاب عن مواكبة اوضاع الجماهير ومعالجة حاجاتها واستسلمت خانعة لمجريات الحياة كما هي كامر واقع ولعل ابرز دور لعبته هذه الأحزاب هو في مواجهة مناورات النظام في التصدي لما يسمى بقرارات العفو المتتالية ومقاطعة الوفد العراقي وطرده من المخيم وروحية التفاهم اليومية الجيدة في أمور هامة كالتسامح ازاء مراجعات رفاقنا للمدن القريبة أكثر مما تسمح تعليمات اللادارة التركية اضافة لذلك هناك تبادل الأدبيات والأخبار والدعوات في المناسبات مثلاً مشاركة ممثلي كافة الأحزاب الوطنية في فقرات أحياء الحفل المكرس لعيد حزبنا الشيوعي العراقي الخامس والخمسون ، والمساهمة في احياء نوروز ويوم فاجعة حلبجة . ان كل

الاحزاب عانت من تهجمات الجماهير عليها واحياناً يجري تأليب الجماهير ضد الأحزاب من خلال الطعن بعناصر كانت قيادية وتجري مهاجمة الحزبية برمتها على أنها وراء كل المصائب ومتاعب الجماهير وهذا التأليب تمارسه عناصر موتوره وحاقده ومرتده في انتماءاتها الحزبية وربما حتى آخرين هزمتهم الأحداث فانجرفوا في هذه الموجه صوب التداعي . ولكن كحقيقة أن حالة الجماهير كانت مأساوية الى ابعد الحدود ولذا لم تكن راضية عن حزب معين وهي تتذرع بحجة منطقية وصائبة في تذمرها الدائم ، ماذا قدم لها اي من الأحزاب ؟ وهي تمضي أشهر طائلة من التعاسة ؟ ماذا كان موقف الجماهير بشكل عام في مخيم ماردين ؟ ضعيف أم قوي وفي أي مدى مابين الاثنين صائب أو متعرج وخائب ؟ اسئلة كبيرة لكنها تفترض الاجابة المحددة الدقيقة المنصفة والاحداث لاتختزل بسهولة فهي أحداث تحركها عناصر داخلية كثيرة ومن مواقع متعددة ومتباينة الأهداف ومتقاسمة الأدوار سيما والتضليل واحداً من الأسلحة المعادية الفتاكة ، فمن بين هذه الجماهير نفسها هناك من يطعنها في الصميم ويلقي بنتائج الاخطاء التي تقترف على الجماهير لوحدها ثمناً لتخلفها ووهن مواقفها وسلبية دورها في النضال السابق الى غير ذلك من الاتهامات الباطلة . فهؤلاء اصحاب هذا الحديث يطرقون جانباً واحداً فقط هو ما على الجماهير من مهمات ويتجاهلون عن قصد ما للجماهير من حقوق ومصادرة دورها التاريخي .

إن المنصف للحق عليه تثبيت الحقائق في مذكراته في أن هذه الجماهير عانت منذ اليوم الأول للأحداث وهم لم يزالوا فوق الأراضي العراقية اشكال المتاعب وتلوعوا بأعز ما يملكون . فقد ذاقوا الضائقة المشددة في كل ساعة وتعرضوا للضغوط والحرب النفسية والتهديدات وعدم انجلاء المواقف لمجريات الأحداث بل التخلف عنها . عاشت التشتت وتمزقت أوصالاً ، منهم من وجد نفسه على حين غره ودون حيله منه مطوقاً بحراب الفاشية وسمومها ، ومن حالفه الحظ فوّت عليهم الفرصة لتخطيه الحدود وهذه

خطوة جبارة لكنها محفوظة بمسببات الموت ومزروعه بالعثرات ، مهدده بالتردد والتوجس والخوف وامتحانات النفس العصيبة وأسلاك شائكة تحيط بهم ، كانت متاعبهم على طول الخط تتعدى المجال التقليدي للتحمل ، أكثر من قضية تعب حد الاعياء وجوع ومخاوف فقط بل تجتاز هذا لتقترن بالشهداء وامراض تغزوهم وهم في عقر دارهم لالذنب اقترفوه سوا أنهم عرفوا العدو مبكراً ولاذو جانباً عن قبضة سلاحه الغادر . ان الرعب يعيش معهم في كل الأوقات ولم يعرفوا طعم النشوة واستعادة الانفاس ، توالت عليهم ضربات النوائب متتالية لاتكف عنهم ، هل هذه الجماهير خاطئة في مناشداتها للعالم وانتقاداتها الصريحة للمواقف ازاء قضيتهم والحقيقة أيضاً رغم مرارتها أن الاحزاب عانت من سخط الناس عليها وأن أي من هذه الأحزاب لم يكن جديراً باستقطاب أوساط واسعة الى صفوفها ، هناك عراقيل كثيرة أمام هذا الطموح ، وحتى حزبنا رغم سمعته التاريخية المرموقة بين الجماهير لكنه هو الآخر لايمتلك حلولاً لقضاياها وانقاذهم مما يعانون ، فهو بالكاد يعالج أوضاع رفاقه وهذا شئ اثار امتعاض الجماهير وخيب امالها والحديث الطويل عن المساعدات المالية من دول العالم لايسنده تنفيذ عملي ، ولهذا فقد نمت روحية نفعية بحتة وأصبح المال حديث الناس ومحرك تفكيرهم وليس من مهمات أخرى واضحة المعالم لم تعد هناك ضوابط سارية المفعول ومتجسدة في الحياة اليومية ، انما تحكمهم القيم الاخلاقية وحدها تقريباً . هناك تحلل وضعف انضباط قد تفشى حتى بين الكوادر وكثرة الخروقات في وقت الحديث عن الماضي لايسعف أحداً وحصارنا قاسي ومعقد للغاية وصار الكلام يخضع للزيادة والنقصان كل يطلق ما يروق له ، فالمقاييس نسبية في تقلباتها وأحياناً تتدهور التقديرات وتنحدر العلاقة بين الايجابي والسلبي ، تنقصم عراها ليبدأ كل على هواه وبما يحلو له في التقييم ان الاحزاب كانت في سبات الى أجل غير مسمى وأن في مقدمة القضايا الهامة التي عاشتها الجماهير وتأثرت بها هي قضية قبولهم كلاجئين في أي بلد من العالم ، هذه كانت قضيتهم الرئيسية

وحديثهم الدائم طول الوقت وحتى في الأحلام يطاردون تفكيراً موحشاً بهذا القصد وعندما تجري عملية التسجيل على أي بلد كان تتقدم المواكب باقبال واضح وتتدافع دون تريث ولايسألون الى أي الأماكن هذا التسجيل والسلطات التركية قد أدركت هذا الذي بقلب الجماهير وتلاعبت بمشاعرها وهي تجيد اسلوب كهذا ووضعت برنامجاً متكاملاً لهذه القضية وتستخدم الدبلوماسية والمراوغة والتسويف والتنسيق الدقيق والخفي مع النظام العراقي المجرم . فقد كانت المناورات لاتكف أياماً وتوالت قرارات العفو الكاذبة التي تتزامن وتنعكس بجملة مضايقات وضغوط وشراء عناصر رخيصة لتحريكها في الوقت المناسب ، ومع كل هذا فالجماهير تتعامل مع المنطق وتركن لخبرتها التاريخية الطويلة وتظغط على نفسها دون رحمه تعزيزاً لابائها ، تحملها على الصمود والتماسك والوحده . تروج للأفكار التي تشد العزائم وتسفه مزاعم الفاشية الحقيرة ، تمضي الأيام بمضض ومراره لتبديد واحده من حيل النظام المفضوحة . ان الوفود الصحفية لايغيبون في اكثر الأيام لكنهم لايأتون بجديد ينفع ، يبحثون عن أمور تخصهم كصحفيين لرفد تقاريرهم اللاحقة وفق ما يريدون ويسفهون اسئلة الجماهير الوجيهة كثيراً على قاعدة اسمع ولاتعطي مزيداً من الكلام ، يموهون الاجابة الجادة حذرين من التفاصيل ولايعطون مسكه فهم يتاجرون بالتحقيقات على مايبدوا وأسرفوا بأخذ المعلومات ، لكن سؤال الناس لم يتغير بقي واحداً لكنه هام ... لماذا لا يجري قبلونا لاجئين ؟ أين الموقف الدولي المتفهم لوضعنا الراهن ؟ ماذا لنا بالتطمينات وسيل الوعود بالحلول الايجابية على الورق فقط ؟ لماذا الكلام لايقترن بقيمة مادية ملموسة ، اليس هذا مبعث يأسنا ومثار خشيتنا من أن تكون أو ساطاً دولية واسعة متورطة بنشاطها لصالح الفاشية في بلادنا ؟ أين الخطوات العملية للسلطات التركية باتجاه التعامل الانساني وانقاذ هذه الجماهير مما تعانيه ؟ لقد عبرت هذه السلطات عن مواقف متذبذبة عندما تراوح وتساوم وتناور على قضية عشرات الآلاف من البشر وقد ينتهي الأمر بالمتاجرة بهم كصفقة

بهدف الربح اولاً واخراً . في هذه الأجواء ووسط حيزاً واسعاً من الاشاعات وأفكار القلق والخيبة عاشت جماهيرنا المهجره حيث التصريحات تجري والترويج لها دائم وعلى هامش منها يجري بناء التصورات وتعبئة الراي العام على أن اهتماماً جدياً يبذل لمسألة اللجوء وسيتمخض هذا عن حلول جذرية قريباً وحتى ممثلي الأحزاب الكردستانية يكيلوا الوعود الفارغة جزافاً دون حساب والحصيلة ضعف الثقة بما يقال وفي هذا السياق يضيع الصحيح بسعر الاشاعة الملفقة . حتى تحولت نداءات التلفونات الطويلة والايضاحات اللاحقة لها الى نشاطات لايرجى منها خيراً ولم تستلم الجماهير مما قيل عن وصول الملايين والقدرات الخارقة على توجيه انظار العالم بأسره الى حيث يعيش هؤلاء المعذبون .

والواقع أن الجماهير ساءت ظروفها وتعكرت امزجتها حتى انغمسوا في أجواء الحزن البليغ فقد واجهوا الموت الحقيقي في غذائهم اليومي مع مادة الخبز . أما المساعدات التي تصلهم فهي لا تتعدى النصف دينار للفرد الواحد وهم في امس الحاجة لها وتبرعات الحزب الشيوعي الالماني كانت متميزة ونموذجية وهي أفضل مساعدة عرفتها الجماهير وقت الحاجة والمثل يقول (لقمة الجوع مشكورة) حيث كانت اربعة دنانير ونصف للفرد الواحد . كانت بيوت كثيرة لايمتلكون اي مبلغ مالي يذكر ولم تغادر بيوتهم أفرشة المرض فقد تفشت بينهم الأمراض الى جانب بعض الخيوط التآمرية بهدف تسليمهم للعراق الغارق ببحر من نزيف الدم ولعل الأكثر تأثيراً في نفوسهم وعلى معنوياتهم هو نفاذ الكلمة الصادقة والحديث الموثوق وجدية التعامل اليومي . وقد أخذت الجماهير تتململ وتفكر رغم بساطتها وتتخذ موقفاً متمرداً واحياناً ترتكب حماقات بالضد من مصلحتها حين تقدم لاختيارات عصيبة بما فيها التسليم للفاشية نفسها عندما تعلن عن عفو يعرفونه ومصيدة مؤكدة . فالثغرة هنا في هذا الموقع المحدد الأبعاد ، اذن وعلى هذا الأساس من المعطيات يستنتج أن موقف الجماهير ليس سلبياً كحصيلة نهائية وتخلفها تركه قديمة تتحملها طلائعها السياسية قبل غيرها والأفق

المتقدم المستطلع بجلاء للأحداث مهمة قواها السياسية ، وما عدى هذا ففي المنعطفات الحادة ينبغي أن لايغيب وميض التفاؤل وحركة الناس وليدة حاجاتهم اليومية البسيطة يجب لكلمة الحق أن تقال بكاملها وبقوة ، ولاشئ نزيه فوق ارادة الجماهير ، والادعاء بتمثيلها دوراً لايفتعل ، فهي لاترحم من يطعنها من الخلف ولاتخدعها الشعارات المسموعة عشرات المرات والمشوهة ، والاجدر بالكلمات الجوفاء المزقة ان تقبر والي الأبد وينقطع النفس العليل القصير المتعب .

في فترة قصيرة نسبياً نشأ الحزب الاسلامي واتسعت نشاطاته بين المصلين وحتى بين بعض انصار الأحزاب القومية الكردية واشتدت في فترة تصاعد نشاطه خلافات مع حدك الذي أخذ ينافسه في التقرب من ايران الى جانب خلافات أخرى . ومن الاشاعات التي عانينا منها بين الجماهير هي أن الشيوعيين يفاوضون السلطة في العراق فكانت هذه الاخبار تأتي من العناصر المشبوهة بهدف اثارة البلبلة اولاً ولتحريك الأجواء التي تفتقر للجديد أما من ناحية حزبنا فقد انتظمت صلتنا به وتوالت المكالمات التلفونية مع القيادة والمساعدات يجري توزيعها ولكن لم يخلو ذلك من العفوية والارياك فقد تباينت بين ماردين عنها في ديار بكر لأسباب قيلت لكنها لم تخلق القناعة لدي رفاقنا والعوائل على السواء .

إن من يتوخى الدقة في الحديث عن وجود ونشاط الأحزاب يفاجئ القارئ غير المواكب للحياة هنا في ماردين ويقيناً انها حياة استثنائية تسودها الفوضى وانعدام البرامج وضعف التواصل مع قيادات الأحزاب وينقطع لحد كبير عن أخبار الوطن ويواجه الأسئلة الجادة بالصمت والمراوغة واحياناً الامتعاض ، وأن وجدت بعض الأجوبة فهي واهنة ذليلة لاتخترق احاسيس المقابل وبعيده عن وصول قناعاته وعندما تنفرد الجماهير بممثلي الأحزاب لوحدهم تنهال عليهم بسيل من العتاب والمداخلات والأسئلة المحرجة لترديه في مواقعها ، والحزبيّن عموماً يعولون على تدابير احزابهم في الأماكن التي تتمتع فيها بالامكانية على الحركة

والاتصال والمعالجات العملية ويحدوهم أملاً في هذا المجال ويزداد ارتباطهم أكثر ويشعرون بالوحشة تحت أجواء الغربة بعيداً من أحزابهم والوطن ، بعيداً عن عبق الكلمات واستقامة النوايا والمثابرة دون هوادة لتطويق ابعاد الجرح بشعور عالي وارادة ثورية لاتنكفئ وغير مغشوشة وتقيس الزمن الضروري وتخلق منه فرصاً منقذة ومفاجئات ابداعية للإعداء والأصدقاء .

بين الحلم والحقيقة

في مخيم ماردين كان الليل ملئ بالحركة ، وزيارات وحملات التنظيف لكل ما تطوله الأيدي ، يرتدون أجد ما يملكون ، فغداً هو عيدهم ، والمعارف لابد من تبادل التهاني معهم وتجديد العهد ، كانت ولائمهم بسيطة ، لعل اروعها جو البهجة التي لاتراها مصطنعة ، فهم يكتمون الأحزان ويظهرون بالبشاشة كأنهم في حال ناشئ للتو ، ففي العيد فرصة ، وكفانا الهموم ليل نهار منذ الصباح الأطفال يملأون الساحات والشوارع ولايتركون خيمة الا وقفوا امامها طالبين سهمهم من الحلوى ، فهو تقليد قديم لم تقلل منه كل مناشدات الكبار ، على أن الظروف غير مواتية لهم ، قد يستغرب المرء هذه القابلية على صنع الأفراح ، والكلمات الصادقة من الاعماق . كان نهار ١٩٨٩/٥/٥ اول أيام عيد الفطر وهناك من يستعد لرؤية هلاله ايذاناً باكتمال العدة ، كأن ذلك وثيقة ببراء الذمة ، الحركة دائبة الزيارات متبادلة ، وتقاليد الفرح رصيدهم الأصيل لازالت قائمة لكنها تنازع الحياة ، والأطفال تكلل نشاطهم اليومي الحثيث بمزيد من الحاجات وهدايا الأقارب المتواضعة ، أما الكبار فأمانيهم أن يكون العيد حقيقياً ، وعيدهم يريدونه العودة للوطن ، الى حيث ارضهم وممتلكاتهم والحنين الدائم ، عيونهم ترنوا الى هناك وذاك هو عيدهم ومبعث امالهم الكبيرة .

في هذا اليوم جاء خبر مصرع وزير الدفاع العراقي عدنان طلفاح ، كانت هذه البشرى التي جاء بها العيد ، خص جماهيرنا بها ، استقبلوها بارتياح واخذوا ينسبون عليها ما يريح البال ، ويبحثون كل بوسائله عن ثغرات تفند ما قيل في الخبر الذي اذاعته بغداد لأكثر من مرة واعتبر بمثابة بشيراً لحدث آخر وشيك أوسع وأعمق ، وامانيهم ان لا يكون السبب

كما قيل وتدبلج بل أن له امتدادات أخرى ربما تطول في مداها رأس الطاغية صدام ، في هذه الاثناء من الفرحة وقبيل ان تستأذن الشمس برحيلها اليومي ، انتشر الخبر سريعاً كالحريق في مهب الريح ، طفل يركض حافياً محتقن الوجنتين وامرأة تؤشربأيديها وهي مرتبكة عارية الصدر تغبطها الفرحة عارمة وانفعالات غريبة وتبتدئ نشاطها بالهلاهل لتذيع الخبر بصيغة لا اظن وقعاً أخر ابلغ منه ، تصيح بصوت هو آخر ما تملك ، تحرك يديها في الهواء وهي تنظر للسماء مطبقة العينين كمن يؤدي طقوساً دينية ، شاحبة الوجه يختلط لديها مجرى الدموع وعرق الانفعال ... (مات المجرم صدام ... صدام مات ... صدام بصوت طويل) دقائق فقط حتى تحول هذا الموقع الى وضع اخر تماماً يصعب وصفه ، كأنه انتقل من هنا بقدرة قادر ليلتحم بالعراق ويختلط معاه دماً ولحم كي تصبح الفرحة واحدة ، هكذا اندفع الآلاف اطفالاً وكبار ورجالاً ونساء الى الساحة الواسعة منتداهم اليومي وبدأت الدبكات وائتلفت القلوب عند نقطة واحدة ، تجردوا من حزنهم وحل الفرح محله كالثورة ، كل يهتف باسلوبه تعبيراً عن فرحه انتابته فهزتهم من الأعماق ، ومن النساء من لاذت جانباً لوحدها لتبكي بحرارة كأنها فقدت بكرها ، تناجي السماء مخاطبة اياها بلغة رصينة لكنها جافة ، احقاً نعود للعراق ؟ يا الهي ، انه حلمنا الكبير ، كفانا عذاب وغربة والغربة مذلة كما يقال ، ماذا جنينا ؟ كانت دموع الأفراح لاتغادر حدقات العيون وتواصلت التجمعات حتى أواخر الليل والنداءات تبث فيهم الحماس وتعزز الفرحة على أن شئ بهذا المعنى جاء من الداخل على صيغة شفرة مفادها : أن غيمة سوداء كانت في سماء العراق والقت بحمولتها الهائلة لتشكل تياراً من السيول قذف في عبابه رؤوساً أكبر بكثير من عدنان خير الله ، وتفسيرهم واحد ويرفعهم الى عنان السماء يجتث الياس من نهايات اعماقهم .

وهكذا باتوا على أمل الخبر اليقين ولكن مع تقدم الزمن تبددت الفرحة وجرى امتصاصها لتعود الأوضاع رتيبة كأنها حلماً جماعياً صالته تركية

و مشاهديه عراقيين ممن اجادوا تحمل التعذيب وتأدية الفرحة في آن واحد ، فرحه بل عاصفة المت بهم بمشاعرهم غزتها فازالت الخمول منها ، كل قد عبر عن سرور وتفاعل وبهجة ، لقد تبينت بجلاء حاله كانت كامنة في صدر الآلاف من مضطهدي شعبنا هي المدي الحقيقي لحقدهم على صدام ونظامه الدموي كم هو موغل في استباحة المقدسات ... كم هو مرفوض ... جائر وارهابي فليس من وسيلة اخرى سوى استئصاله وقبره في مزبلة التاريخ كي تكون كل الأحلام والتأملات والأماني حقائق وسروراً .

الحملة الدينية

إن النشاط الديني قد انتعش بغياب المجالات الهادفة وانعدام المعالجات الجادة لأوضاع الجماهير ، فالقراءات عموماً قد آلت للانحطاط كمّاً ومحتوى ، كانت مكتبة الرفاق فقيرة ومجدبة ، تفتقر لكل شئ يحتاجه الكادحون وأن كانوا لايتطلعون للمزيد ، فهم لايطمحون طبعاً بكتابات سلامه موسى ولا قصص غوركي أو اشعار ناظم حكمت أو مؤلف الرفيق فهد حزب شيوعي لااشتراكية ديمقراطية ، بل نكتفي بالقليل في زمن التقشف ونتحصن من بلاء الأفكار العفنة فهو ظرف طارئ يرحل عنا ، سيرحل لامحالة .

الكتب السياسية بعيدة المنال ، والافكار حبيسة الادمغة وإن وجدت بعض الكتب فهي قليلة واحياناً بلغات لانجيدها ، فالمواضيع هي نفسها في كل الاوقات بين الايدي إوتحت الافرشة ذات مضامين ضحلة ولذا وكرد عليها وكبح جماحها بصيغة الانتقام منها نطمرها مع سبق الاصرار طالما هي عقيمة لهذه الدرجة ودنيئة الغايات ، تمجد الخرافة وتقف مهزوزة بالضد من عجلة التاريخ وتعيش على الصدقات من أعداء الشعوب ، وتختزن سمومها الفكريه الذميمه . في هذه الفترة المضلمة لحد بعيد تكثف النشاط الديني خلال الحياة في تركيا وتجلت تحركاتهم العلنية في مجال تعليم القران واداء الصلاة وتوزيع الكتيبات الصفراء بشكل واسع ، والتي كانت مقبورة قبل الآن واتخذوا الضغط باتجاه الصلاة اسلوباً شبه علني وحتى تعليم القراءة والكتابة مشروط بالتطبيق العملي لفروض الاسلام . ونشطت كذلك الوفود الدينية من السعودية كأنهم خلفاء الخطاب في مخيم ماردين ، زياراتهم متواترة ومخطط لها ، فهم يعطون سيلاً من الوعود

ويتحدثون عن أغراضهم من هذه الزيارات باعتبارها تفهماً ميدانياً لعمق القضية الكردية وانسانية الدفاع عنها ومساعداتهم للجماهير تقترن مسبقاً بحملة شعواء على النساء كأنهم اعدائهن منذ ولدوا ، ومآخذهم على المرأة كثيرة منها مثلاً ضرورة تشديد المتابعة اليومية لهن وتأمين الضوابط في التعامل مع النساء والحد من الانطلاقة التي لاحظوها كما يزعمون في حياة الكثيرات كونها لاترتدي غطاء الرأس ولاتخفي سيقانها واعتمدوا احاديث أبو هريرة كأنها موضوعات نيسان والصلافة الوقحة ، إنهم يقولون هذا أمام النساء ويتلذذون بكلماتهم النتنة ، كانت تهجماتهم مركزة وتحذيرية من أي فكر تقدمي ، فهم هناك في السعودية طليعة الرجعية في المنطقة ، ومذعورين من مستقبل الثورة في أفغانستان ، ويحذرون من وجود الشيوعيين في أي ائتلاف ، يجاهرون بالعداء لكل الأحزاب ويقللون من عمق التناقض مع النظام الفاشي في العراق وكمن يريد القول أن تسوية بين هذه الجماهير الفارة من بطش الفاشية الظالمة وبين الفاشية نفسها هو مسسعاهم اللاحق وإلا لماذا لاتقال كلمة واحدة لإدانة الفاشية في بلادنا ؟ وكأنهم غير معنيين بذلك ، هل كان هذا محظ صدفة ؟ فبئس هذه الوفود وبئس مقاصدها . أما نشاطات الملالي فهي تجري بتسهيل من المسؤولين الأتراك وتتواجد بينهم مفاهيم ضيق الأفق القومي ويروجون لكتب قطب المشبوهة الى جانب أفكار الشعوذة والتخلف والتنكر لقضية الشعب ومصالحة المصيرية ، ترى لماذا يغض الطرف عن هؤلاء ؟

وأجزاء عمة توزع يوميا بإهتمام أكثر من توفير أية مادة غذائية ضرورية أخرى ومن يحمل نسخة منه وهو بحلته الطباعية الأنيقة الراقية كأنه يحمل أصل الأنواع . في كل خيمة تقريباً تجد ما يرشدك في كيفية الوضوء كأنها متطلبات جديدة أفرزتها تطورات الحياة البشرية وهناك اجتهادات كثيرة في كيفية توزيع (الفطرة) ونسبة الزكاة وضرورة ادخال سلسلة تغييرات في قيمها وأسلوب توزيعها الى آخره . والمجلات التركية التي تصلنا ليست أشرف مما في جعبة رسل السعودية ماري الذكر فهي الأخرى تصب في

مجرى لايخدم في أي شكل كان الفكر التقدمي ومناهج الأحزاب ، مجلات تجارية خلاعية تخريبية للسلوك القويم وخاصة بين الشباب . وفي الآونة الأخيرة رغم أزمة الكتب وقلة الكتاب وشحة الابداعات والانكفاء في مجالات الخلق الأدبي لكن بعض الكتب المعينة قد توفرت وبدأت تتحرك بين الرفاق ومنهم تصل للشباب في المخيم ولكن بوعي وحذر مثلاً قصص فلسطينية وكراسات حزبية محصورة في مجالاتها وأسس الفلسفة الماركسية مستعار من أحزاب حلفية وقصة عباد الشمس ووادي الرعب وجرائد عديدة ومعجم المصطلحات النحوية ونضال المرأة ضد الفاشية وتقرير ل.م. لحزبنا عام ١٩٨٩ وطريق الشعب وأدبيات المنظمات الديمقراطية والحركة النتقابية الديمقراطية العراقية وغيرها من المجلات الأخرى بلغات فارسية وانكليزية وروسية وتركية ولكن هذه الكتب بطبيعة الحال لاتفي بالحاجة ولاتوازي النشاطات المشار لها خاصة ونحن أكثر من غيرنا نتأثر بالجو العام ومحاذير النشاط السياسي مادمنا على أرض تركية الى جانب ذلك هناك بعض القصائد الجادة وخواطر تحمل عبق الكلمة الأمضي من الأسلحة التقليدية وبعض المذكرات والرسائل المعبرة وربما هي مشاريع رفاقنا لوحدهم تقريبا .

تظاهرة توجت بالإضراب العام

تواردت الأخبار عن وجود وفد من النظام العراقي في تركيا ، يروم عقب لقاء مع المهاجرين هناك للتأثير عليهم وهذا الخبر أصبح يقيناً فقد حاولوا ذلك في مخيم ديار بكر لكنهم فشلوا وقاطعتهم الجماهير فلم يحققوا خطوة واحدة ، أما الآن فهم في الطريق إلى مخيم ماردين الأكثر معاناة لكنه أكثر خشونة وصلابة مواقف أيضاً ... عصر يوم ١٩٨٩/٥/١٨ أخذت مظاهر الإجراءات تجري في أنحاء الإدارة التركية تأكيداً على ذلك ، فقد أبعدوا الجماهير التي كانت تحيط بمبنى الإدارة وتخزر العاملين فيها بنظرات التوجس والإزدراء ، وكان مبعث خشية الجماهير شعورهم بوجود التواطئ والضعف لدى العاملين في اللجنة القيادية للمخيم (الكوميتة) وهم الجهاز الجماهيري الرسمي ذو العلاقة المباشرة مع السلطات التركية ومع ممثلي الأحزاب الأخرى حيث توجهت الإتهامات الى هذه اللجنة بأكملها في أكثر من موقف على أن دوافع شخصية ومواقف نفيعة وراء تحركاتهم وتدخلاتهم في كل قضية بعيداً عن دراية وقناعة الجماهير .

وأكدت صواب مثل هذا الشعور الداخلي والتنبؤات إنها لم تكن رجماً بالغيب فقد تبين شيئاً ملموساً في الموقف من هذا الوفد العراقي لكن هذا الشئ أحبط في مهده ... ظهرت تصريحات معينة لإقناع الجماهير بجدوى اللقاء وفائدته على أنه يخدم ولاإضرار منه وإن وجهات القيادة بشكل عام لاتحرم ذلك ، بل تبيح اللقاء وتدعوا لاستثمار كل فرصة لمعرفة المعلومات الهامة عن طبيعة مهمة الوفد ... الخ وتؤكد لاحقاً أن وعودا بهذا الصدد قد استقاها الوالي (أحمد نوروز) المسؤول التركي الأول عن إدارة المخيم ، وقد علق آمالا على هذه الوعود وهيأ لها قبل أيام إنتشر الشرطة والقوات

الخاصة بملابسهم وأسلحتهم وتحركاتهم البهلوانية التي تثير الرهبة لدى البسطاء ، بدأت النداءات على أعضاء الكوميتة (اللجنة القيادية) بالأسماء ولكن يبدو أن هذه اللجنة قد شعرت بالإحراج وخطورة موقفها ونتائجه فأخذت تتسلل إلى أماكن غير معروفة وأعطيت لهم مهلة عشرة دقائق كي يلتحقوا الى الادارة وبخلاف ذلك يتحملوا العواقب ورغم هذا فلم يلتحق أحد منهم ... لم تعد بين الجماهير الثائرة في الساحة العامة والوفد العراقي القادم سوى مئات الأمتار ، ولحظات فقط حتى امتلات الشوارع والساحة الرئيسية المحيطة بالادارة بآلاف الجماهير الغاضبة وهي متطلعة لما يجري ومتأهبه للإنقاض عليه .

هكذا تولدت بوادر الهبة الجماهيرية وعواملها المتراكمة العميقة ، فالتحريض يأتي بكلمة واحدة فقط لتكون صوتهم الهادر جميعاً (لقنوهم درساً) ، والوالي أحمد نوروز هو البطل العلني لهذه المسرحية الخيانية التي حاكوها في الخفاء وبالضد من إرادة ومصالح هذه الجماهير حيث دخل الوالي وممثل البوليس بملابسهما المدنية داخل الجماهير التي حينها إفتقرت للقيادة الميدانية المسبقة فأخذت هذا الأمر على عاتقها تلقيائياً وتصدت لهذا النشاط المتعلق بمصيرها وتصرفت في البداية بعفوية حتى أصبحت بمن اعتصموا فيها قلعة لاتقتحم ... رفضوا الحديث مع الوالي المتآمر عليهم ، قابلوه بالسخرية والصمت رغم مهاتراته ودعوته بضرورة اللقاء فأخذ يتحرك بين الجماهير يتصل بهذا وذاك معرفاً بوجه نظرة الخبيثة لكن الجماهير تنساب بعيداً عنه ولاتنطق بكلمة رغم نبرة حديثة الاستفزازية التي يريد تفجر الموقف من قبل الجماهير لكي يعتبرها بادرة اهانة لشخصه ومبرراً لتعقيد الأمر وتدخل القوات الخاصة وغيرها بهدف ايذاء الجماهير جراء موقفها لكن هذه الفرصة لم يحصل عليها ، إذ قالت الجماهير وبالحرف الواحد : الى هنا يلاحقونا وأنت معهم ؟ كفا صبراً سترى بعينك كيف نثبت لهم موقفنا الابي وتتجرع بنفسك عار هزيمتهم هكذا عاد خائباً وتقاسيم وجهه لاتنم عن ارتياحه فقد تعثرت خطة بعقبات

جادة وتضاعفت اعداد الجماهير عشرات المرات وتوحدت كلماتهم وأنظارهم جاءت مجموعة راجلة ، لفيف بهيئة مسؤولين لكنهم فزعين كان الأرض رفضت أن تدنس بأقدامهم القذرة ، لانعرف منهم أحداً يتقدمهم الوالي وبعض العاملين عن الادارة التركية ، من بعيد دب الخوف في قلوبهم في وقت رفعت الجماهير من وتيرة حماسها وانضباطها تحسباً لمناورة محتملة ، من أن يجعلوا من اندفاعات الجماهير العارمة مبرراً لضربها والإساءة اليها أمام عناصر الوفد الانذال ... بدأت الهتافات حارة متزنة ، الموت لصدام الفاشي عاشت البيشمه ركه عاش البارزاني عاشت الأخوة العربية الكردية عاشت حلبجة والجبهة الوطنية ولتسقط الفاشية المجرمة الخزي لكم رسل الفاشية الاذلاء ... الخ .

تدافع الشباب وحماسهم طافح وكلمات الكبار في هذه التظاهر مؤثرة وتثير الحمية وهكذا وأمام الأنظار انهزم الوفد الصدامي مذعوراً الى سياراتهم ولم يقفوا دقيقة واحدة تلاحقهم الحجارة والوعيد وصفير السخرية فقد خابت جولتهم في ماردين أيضاً وظهرت الجماهير بأروع موقف لها وهي موحدة ومتلاحمة . وللحق أن بعض المسلحين الأتراك كانوا ينظرون بعين العطف للمتظاهرين واستبشروا بهزيمة الوفد من تقاسيم وجوههم . في اليوم الثاني اعلن الاضراب العام بشكل تام كانت الجماهير مشحونة ومنتشية لموقفها المشرف لكنها مستاءة في عين الوقت من بعض الادوار وتمادى الوالي الى هذا الحد فلم تعد تلك تكهنات فقط انما تأكد أن وراء تصرفات الوالي هذه ادوار أخرى لم يكشف النقاب عنها ، فهناك همس واصابع اتهام تمتد لتلتقي عند نقطة واحدة هي وجود عناصر من الكوميتة متواطئة ومن ذوى المواقف الرخوة وعلى هذا الاساس فقد عقدت الاطراف السياسية ووجهاء المخيم اجتماعاً تزامناً مع تأزم الوضع واتخذوا جملة قرارات في المقدمة منها شجب موقف أحمد نوروز الشخصي مع الوفد العراقي وادانة نشاطه الماكر لانجاح المهمة التي تستهدف اذلال شعبنا واهانته وتقرر ايضاً استمرار وتنظيم الاضراب وتشخيص لجنة

جديدة بديلة للسابقة وربط كل النشاطات اللاحقة بها حيث رفضت الجماهير وبالاجماع المطلق اللجنة السابقة ووصفوها بالانزلاق في مواقف خاطئة وانهم اضلو الموقف السياسي السليم وقد رفعوا مذكرة شديدة اللهجة تلخص هذه التطورات الى كل المحافل الدولية الانسانية ونسخة منها للسلطات التركية العليا مركزة فيها على صعوبة التعامل مع شخص أحمد نوروز واستمر الاضراب بمواقف قوية حتى ١٩٨٩/٥/٢٢ .

عصر ١٩٨٩/٥/٢٢ كان الوالي يريد تبرئة نفسه مما حصل لكن الجماهير ترفض الاصغاء له وتقابله بالجفاء ، وفي لقاء اختاره مع المتواجدين عند دائرة البريد تحدث بإيجاز وسرعة وذكاء مستثمراً الفرصة ليبدد الحاجز ويستقطب اسماع القريبين منه بدأ حديثة بسلسلة اسئلة : ماذا عملت كي تقابلوني بهذا الموقف ؟ الستم المطالبين منذ فترة لتسهيل مهمة اللقاء مع الوفد العراقي ؟ وهذه اسماؤكم مكتوبة بخط ايديكم بهذا الخصوص ، وهذه الاسماء الاخرى التي قلتم عنها معارضة ووراء تحريض الجماهير ضد اللقاء بالوفد ... اذن ما هو ذنبي ؟ وانت يا .... الست من اول المطالبين باللقاء والان تدعي امام هذه الجماهير انك تتمتع بموقف معارض وقوي ؟ وادلى باسماء اخرى دون تحفظ كانت تتظاهر بمناهضة مناورات النظام الفاشي ، هذه التصريحات قد كشفت حقائق كانت مجرد تكهنات قبل الان واعادت بعض الآراء الى صوابها وانكشف البعض معطوبين بالتواطؤ ويتسترون على ذلك فاستطرد الوالي في فرصة نادرة لتبديد الحواجز التي اجاد اختراقها من خلال كشف هذه المعلومات الهامة

في العاشرة من ظهر يوم ١٩٨٩/٥/٢٣ عقد اجتماع عام لممثلي كافة القوى السياسية وكل من يريد الحضور من الجماهير ، وفعلاً جائت اعداد غفيرة ومتحمسة لسماع مايطرح وللوقوف على الحقائق وامتلى المسجد الكبير بالرجال جلهم من الشباب المفعمين بالعناد على مواجهة الاخطاء ووضع حد لها . ومن يجمل حصيلة انطباعاته عمادار في ا للقاء العام

يستخلص منه ان جهد المتحدثين قدانصب على تدارك الامر وتغطية الخطأ الفادح باية وسيلة وعلى قاعدة عفاالله عما سلف وبهذا اسدلوا ستاراً سميكاً على كل الامور التي ادلى بها الوالي ووصفوا الوالي على انه يختلق الثغرات ويزيد من تعميقها لغايات في نفسه وكانت قناعات الناس بماقيل في الاجتماع لاترتقي للمستوى المطلوب وهناك ادانات تنقصها الجرأة الكافية للمسؤولين القداما وطرحت مطالبة بضرورة عقد اجتماعا آخر شرط ان يحضره الوالي لمقارنة وتدقيق الاقوال المتناقضة ولكي تعرف هذه الجماهير من هي الاسماء التي لديها الاستعداد لمفاوضة الوفد العراقي وقد تمخض اللقاء عن ضرورة مضى الوفد في مهمته ومساعيه المقترحة في عرض الموقف على الوالي واطلاع الجماهير اول باول عاى النتائج وضرورة الاسراع بذالك من منطلق المبادرة الايجابية في وقتها المحدد وتعبيراً عن التزام ازاء كوننا ضيوف على تركيا ولانفرض عليها ما يتعارض وتعليمات مسؤوليها ... لقد تبين مع تقدم الزمن ان ما قاله نوروز عند دائرة البريد هو عين الحقيقة ، وماتشبث به البعض وحاولوا جر القوى الأخرى اليهم هو التظليل بعينه ، بعد ان شعروا بموقف الجماهير واعتصامها ضد فكرة اللقاء جملةً وتفصيلاً .

اطفال المخيم

لاتوجد فوارق فاصله بين الأطفال فهم يشكلون قسمين فقط بشكل رئيسي ، الأولاد ويشكلون مجموعاتهم المنفصلة عن البنات منذ الصغر ولكل هواياته وهمومه وطلباته ، أما البنات فمن تجاوزت العاشرة يكتب جلب المياه قسمتها والحياكة حرفتها القادمة . لكن الأولاد عادة أغلب أعمالهم تجري وفق مايروق لهم ولايلزمهم برنامج ولايخضعون للقيود وهذه ميزتهم الأساسية عن البنات وجل أشغالهم جلب الصمون ومتابعة قوائم توزيع الغاز ليأتوا بحصتهم ويلاحقون الكبار في تدريباتهم الرياضية ويعشقون لعبة القدم أكثر من الطائرة ثم يرسمون أشكال الأرقام على ملابسهم ويطلقون القاباً كبيرة على فرقهم الناشئة ويرددون مئات المرات في اليوم الواحد الحروف الأبجدية ويتعلمون أشياء كثيرة منها المفيد الى جانب ماهو ضار حد الانفلات والتسيب فهم لم يألفوا مايلبي حاجاتهم النفسية ويفتقرون لأبسط مصادر التأثير الايجابي حيث ينعدم وجود المدارس والمجتمع كذلك غير مشدود بروابط وشيجة واغلب جوانب تربية الطفل تقع على عاتق الأم المثقلة بالمهمات الآخرى ولذا تلجأ للقمع وسيلتها الأسهل او الوشاية لأبوهم الأكثر قسوة ، بهذه الأجواء يعيش الآلاف من الأطفال المشردين ، يبيعون الحاجات التي تضمن لهم ربحاً رمزياً وأكتوت شفاههم وأسمرت الوجوه كأنهم نازحين من أعماق المناطق الأفريقية . وقد اعتادوا الحركة في الليل والنهار وفي الأجواء الباردة والحارة فتنوعت أمراضهم وتعقد سبل المعالجة لها وشاعت بينهم بعض التسلكات والكلمات البذيئة ووصمت هؤلاء القلة بسوء السلوك .

الى جانب هذا تجد بينهم الخلوق وذو المواهب وحب التعلم ومن هؤلاء الأطفال كان الحضور الأوسع بوجه الوفد العراقي وطرده من المخيم مذعوراً وكذلك لهم اسهاماتهم في تسفية ما يسمى بقرارات العفو الحكومية أما في المناسبات فتجمعاتهم ضافية ، ليس بينهم من يعاني من السمنة ونهارهم كأنه ساعة ومتعتهم مشاركة الكبار أعمالهم وتقمص أدوارهم ، يعرفون اسعار الأشياء لكن جيوبهم خاوية حد الافلاس المطلق ، يلاحقون ورقة تتدحرج لاتحمل سوى القاذورات وينشبون بسيارة مرت بأقصى سرعة لها تعزيزاً لحمولتها ، لا يتركون شيئاً مصانا يقلبون الحجارة عشرات المرات في اليوم ويبحثون بين بقايا الأدوية ونفاياتها كما أن لعبة الأقمار قد غزتهم بفترة قياسية ، يغافلون الحرس التركي لجلب بعض الحشائش المفيدة لهم غذائياً وإن لم يجدوا أعمالاً تناسبهم تطوعوا مجاناً لمساعدة النساء في جلب الماء ، يعرفون متى يجري توزيع الأرزاق وأي الفرق الرياضية معنية بالمباراة في اليوم المعين ومعلومات الوفود الصحفية وتفاصيل أسئلتهم ومسقط رؤوسهم ، يعرفون الرسائل الواردة والمكالمات التلفونية والحاجات الجديدة ونتائج الحريق الناشب في الخيمة الفلانية ، وناصبتهم الأمراض عدائها ووسمتهم بالضعف العام وغيرت كل ملامحهم كأنه من أبناء الجنوب لاتعرفهم من كردستان الأمن لباسهم الكردي الممزق واحذيتهم هي الأخرى تتمزق بسرعة لكثرة تعاملها مع الماء وفي هذه الظروف تخلوا عن تعليقاتهم السابقة في أن اطفال الجنوب وحدهم الحفاة . حسناً فعلت الأحداث حين وحدتهم جميعاً أن الحياة فرضت عليهم أيضاً أعمالا حقيرة مضنية تمتص غالب أوقاتهم اليومية ، يبيعون السجاير وأوراق الرسائل والعلب والباقلاء الخضراء وشفرات الحلاقة وخيوط الحياكة وقيطان الشراويل (الدوخين) . وأحياناً يبيعون أحذيتهم نفسها مدعين عدم ملائمتها لهم تارة صغيرة وتارة أخرى كبيرة ، يتحايلون على أهلهم بهذه الأساليب كي يستفيدوا من مبلغ زهيد يحصلون في مجال اخر اكثر اغراءً لهم ، إنهم يشعرون بمنقصات الحياة ويلعنون الزمن الغادر ،

يتساءلون في ساعات الليل المتأخرة عن الأسرار في أن تكون التعاسة نصيبهم لوحهم ، لماذا جئنا الى هنا وغداً يمكن أن نرحل الى بلاد أخرى أكثر بؤساً ؟ لماذا نختار الرحيل بديلاً عن المقاومة المستميتة ؟ اي الأسلحة امضى ببناء مستقبلنا ؟ من هم أصدقائنا الحقيقيون ؟ اليس نحن من اصناف البشر ولماذا تدنت قيمتنا لهذه الدرجة لنكون عبئاً على الآخرين وهم يتاجرون بنا كبضاعة بائرة وأسئلة كثيرة اخرى لكنها لاتجد نفعاً .

وهدايا الأطفال متواضعة تواضع حياتهم تجدها بأحسن الأحوال مجرد هيكل لطير يذكرهم في كردستان ، أم أنها مسبحة مصنوعة محلياً واحياناً لاهذه ولاتلك انما ورقة عليها بعض الإشارات الساذجة والعبارات التقليدية كأنها مختزلة من رسائل الجنود القديمة . ذات يوم حصلت لطفل حادثة مروعة وهوفي السابعة من عمره غادر خيمة اهله لتاخذ به المنية الى طريق اللاعودة بدات سفرة هذا الصغير المسكين في يوم عادي هادىء حتى اقترب من فتحة واسعة لخزان المياه (البالوعة) فاخذ يتمعن بها ، يرصدها ترى أي الأشياء جذبته بهذه واستهوت خياله ؟ وقد فقد توازنه وتكور جادا فا قتحمها سقوطا على راسه وقد حصل له هذا النصيب في ساعا ت النهار الأولى عندما كانت امه منهمكة بزفاف اقاربها وظنت ان صغيرها هو الآخر على هامش فوضى الاحتفال البهيج .

قبيل الغروب احست بضياعة ، فلسبها قلبها بخفايا القدر وكأنها تسببت بقتله عمداً ، ركضت مشدوهة البال وتحول وجهها بلون التراب تصرخ من بيت لآخر وأعلنت اسمه في مكبرات الصوت ، لكن هيهات من جدوى ، وأخيراً وبعد جهود مضنية وجدوه قد فارق الحياة مع الفقرات الأولى لحفلة الزواج يا للمفارقة فقد عارض المشاركة في الزواج واختار فقرة له . لقد تركت هذه الحادثة وقعاً اليماً وحزنا في كل ارجاء المخيم ؟ للطريقة التي حصلت بها ولكن ما حيلة المرء والحوادث اللعينة ما ان وجدت الفرصة مواتية حتى شمرت عن سواعدها .

في العيد في يومه الأول كانت المفاجأة مع بزوغ الشمس جاءوا يطلبون

الحلوى وهم يرتدون الجديد من ملابسهم او انهم قد أجروا ترميماً للأجزاء الرثة فيها بعد أن تعرض الغالب منهم لحملة تنظيف طارئة تحت أجنحة الظلام وعيونهم لازالت محتقنة من وعكة الصابون اقترب رعيل منهم بحركه تسللية حذرة وما أن وجدوا احدنا يتحرك بخفية خلف ستار الخيمة حتى باغلوه التهاني بعباراتهم الحلوة بألسنهم المتعثرة ذات النبرة الخفيفة كان صاحبنا قد نهض مبكراً لترتيب هندامه استعداداً للزيارات المكرسة للعيد وفاته احراج كهذا ، انهالوا عليه محددين مطاليبهم بكل ملموسية ، لكن صاحبنا تظاهر بحسن النوايا ورباطة الجاش والبراءة فانهزم كأنه لم يفهم قصدهم وهم يحيطونه ونظراتهم سديدة ثاقبة . القى بنفسه خلف البطانية وهو لم يزيل كامل شعر وجهه ، بل ترك شريطاً حدودياً على امتداد ذقنه بهذه الطريقة هرب من مناسبات الأطفال وطلباتهم الوجيهه ، اعتكف ولم يعالج الموقف والأدهى من ذلك انه نكد برفيقه الذي نهض للتو من فراشه ليقع في مصيدة يجهل وجودها اصلاً . جاء الآخر ليرى مشهداً وكأنه جزءاً منه وأصبح هو الضحية حيث وقع تحت قبضته نظرات جادة وخيبة أمل وأيدي صغيرة تمتد بحنو كاسنان المذراة معبرين بذلك عن خيبتهم في الجولة الأولى التي كانت مضيعة للوقت . لقد فاته حضور العذر المقبول في حين أن جيوبه بحدود علمنا تعلن حالة الافلاس المطلق لكنه رغم هذا ركض مكابرة هنا وهناك ونقل الراديو من مكانه كأنه يبحث عن حاجة يقصدها لكنها راغت عنه الآن فتش جيوب قمصانه دون استثناء كمن يبحث عن درهم لاذ عن الأنظار ... دمدم مع نفسه باللورطة لماذا لم يقولوا هذا قبل أيام ؟ متى نتعلم تقاليد الناس ؟ ولكن هذا لايجديه مما وقع فيه ولابد له من مواجه الحقيقة المرة ... تقرب منهم وتوسل بالكلمات الكردية ان تطاوعه لعلها تسعفه من كمين تعرض له ... اشر بيديه وهو يقف وسطهم وقال : بعد ساعة من الآن تعالوا وكل شئ سيكون حاظراً ... تمام ؟ قالوا جميعاً نعم ... ساعة من الآن ، ومنهم من رددها بالعربي تلافياً للالتباس انصرفوا بقناعة قلقة بعد أن اشروا موعدهم القادم في سجلهم الجماعي وبعضهم

يراقب الآخر لكي لاينفرد بالفرصة القادمة فهي في عداد الفائدة المتحققة ولكن الحقيقة أن صاحب الوعد معهم ما أن راغوا من واجهة الخيمة حتى تسلل من الجانب الاخر ولم يعد حتى استأذنت الشمس بالرحيل وعند الغروب جاء مسرعاً كأنه يريد تدارك الوقت من أن يمضي أكثر وهو على موعده الصباحي وفاته أن الاطفال رغم الحاحهم الشديد لكنهم يدركون القيمة الحقيقية للوقت ولايفرطون بفقرات برنامجهم في هذا اليوم على حساب فقرة أخرى مخطورة بالاخفاق ، فهم يعرفون الحقائق بسليقتهم وهم امام برنامج من متكامل نجاحاته تعالج الثغرات ، قالوها بعد مضي الساعة المحددة ظنيتمونا صغاراً لتضحكوا علينا ؟ من جانب آخر فالاطفال اكثر من يتأثر بتقلبات الجو والبرد عدوهم رقم واحد اما في الصيف فهو يشيع بينهم امراضه العديدة فالاسهال حالة ملازمة لننشاط قنواتهم المعدية ورمد العيون يعزلهم عن العالم الخارجي واطرافهم المكشوفة كأغصان نحيفة مسها اللهيب فالتهم اوراقها ليرديها جرداء كالحة ، والحقيقة ان الاباء رغم انفلات الأوضاع لايلجأون للضرب ولايومنون به اسلوباً للتربية والتقويم ، انما يتبادلون مع اطفالهم الاحاديث السلسة والكلمات العطوفة ويعدونهم بالحياة الافضل ويعبئونهم ضد قساوة الظروف ويغذونهم بمفاهيم الصلابة والصبر وعفة النفس فإنها من سجاياهم التي ينبغي لها ان تتعزز على الدوام في طبائعهم .

نلتمس العذر أو نتريث في استعداد العباقرة

لم تفلح الحياة بكل ما تريد ، فالمجانين في المخيم هم نفسهم القدامى وان كانوا ليسوا قلة ، بل يشكلون قائمة طويلة لاتقل عن ملاك فصيل ، ولم يتحقق كسب جديد في هذا الميدان ، هؤلاء الوجوه المتجعدة والعيون الغائرة ذات الخزرات المخيفة ، لكن وراء هؤلاء الأسماء المألوفة في مخيم ماردين تكمن مواهب تميزهم عن الآخرين من بني البشر بل وتميز أحدهم عن الآخر ايضاً ... هؤلاء معشر المجانين درجاتهم في الرشد متباينة وعبئهم يتناسب وقوة الصدمة التي المت بكل منهم وفي اي المراحل غزتهم اللوثة الجنونية ، كل له طبائعه وتعليقاته ونمط حياته اليومي ، فصالح يختلف عن رشيد وكل منهم يتباين مع سالم هروري وعبيد ، أما على طه كيستي هكذا ولد وهو عبقري ... نعم لهم حضورهم الواسع المميز في المخيم ، هؤلاء اكتوت جوارحهم يوماً بمصائب الحياة وصدماتها التي شاب في ظلها الرضيع . إن محمد مائي وضعه الشخصي (ملطلط) لكن صوته شجي رغم الكلمات الركيكة التي يرددها باليوم عشرات المرات مثل اغنيته الشهيرة (شاهينوا) أما صالح فهو يجيد قراءة القران والآخرين جلهم يتعاطون الكيف ويجيدون الرقص في المناسبات وتستهويهم أحاديث النساء واطراء المرأة يزعزع تلافيف عقدهم النفسية المتحجرة وتفرزن من جديد تشابكاتها وتعيد لها وضعها الطبيعي . وربما وراء قصصهم افعال نساء .

والعجيب في الأمر كثرة مايحملون من صور متداخلة وأحياناً مشوشة ومضطربة من العالم والانظمة الاجتماعية ومظاهر الحضارة ، كل شئ في سلوكهم وارد ، منهم من يدعي الثورية ولكنه يخشى متاعبها ، ربما عشقهم لها تصوراً خيالياً ان من خلالها تتحقق نزعة التمرد الراسخة عندهم وتحدي الصعاب المتأصلة في نفوسهم وامزجتهم العامة ، حين تسأل

أحدهم تظنه خرفاً للغاية عن سبب كون أغلب المجانين من الرجال فقط ينتشي بمثل هذه الفرصة للتعريف بمعالمهم الفسيح يقول دون توقف (أزبني) النساء عقلهن قليل اصلاً وتفكيرهن بهموم الحياة شكلي وطفيف ويستطرد كأنه يخطب لجموع منتفضه ، والجنون مهنة نادرة يمتلكها العباقرة دون غيرهم وخيالهم يسرح خصب ، والمثل يقول : خذ الحكمة من رؤوس المجانين ... ليتك كنت يوماً مجنوناً لعرفت القيمة الحقيقية لهذه الخصيلة وكلما كانت درجاتها (طوخ) أكثر اختلت صورة الحياة التي نشكوها وننفر منها ، يتبدد بؤسها بقدرة قادر لتكون أرحب ... كيف لا وأنت تحلق في عالم المجانين اللامتناهي ، يمتدحون سلمان رشدي وآياته الشيطانية وينسبونه على قواهم الفعلية ، فالمجانين من جذور الشياطين هل كنت تعرف هذا قبل الآن ؟ ولاندري من أين لهم هذه المعلومات عن القمر نهم يبسطون عملية الصعود اليه مثل (الزلاطة) حتى التمرغ في ترابه ، وهم يغتنمون فرص احاطة الناس بهم ليعمموا افكارهم وتتحول مجالسهم الى مجال مفتوح لأي قضية بين السماء والأرض ، عباراتهم دائماً تأخذ صيغة الأسئلة مثلاً : عجيباً أن يتسامح الباري عز وجل مع جرائم صدام ؟ اتراه قد انزلقت قدميه ليكون في ركب الفاشية المقيت ؟ يتوعدون بالانتقام يجملون كل الخصوم بقائمة موحدة ولكن لا يعطون كل الأسماء المعادية هم . وتنتابهم حمى الجنون ذات النشاط المتطرف عندما يلعنون ناظم كزار ورشيد مصلح وأبو صدام وأمه وعلى غفلة منه يتسلل اسم عبد الكريم قاسم .

وهم لايفرقون طبعاً بين ثورات تموز ان كان تاريخها ١٤ تموز أو ١٧ منه . ويلقون باللائمة على العرب دون هويتهم الأخرى أو أي من الطبقات وراء ذلك ما أن يلاحظون المحيطين لهم يجدون بعضهم من العرب وهم ليسوا أعداء لهم يستدركون بسرعة وبلباقة لبقة يمتاز بها العباقرة قبل غيرهم كما قالوا عن أنفسهم يقولون : ولو الآن تجمعنا هذه الأسلاك الشائكة القذرة يتغزونا الرياح مهما كانت درجة حرارتها أو حمولتها من التراب . وتعرفون

ايضاً ان السموم المختفية في الصمون لم تفرق بيننا بل حملت حقدها وهددتنا بالموت الجماعي ولم تسأل من أي القوميات نكون . اذن خندقنا واحد ومصيرنا مشترك ولاتنسوا اننا عباقرة ها ولاتؤاخذوننا على كلمة نقولها . وهنا يأخذ مسار حديثهم بعداً حثيثاً في الاقناع على طريق المساهمات الجادة لجنون حقيقي يتقمص العبقرية ... ترى ماذا حل بنا ؟ هل وقعنا أسرى رياح المجانين ؟ وتحدياتهم في مواجهة اجراءات اللنظام العراقي وقرارات عفوة ؟ هؤلاء هم أول من يضع خطة ملموسة لمواجهة مناورات النظام وهم الأكثر حصانة ازاءها . وكأنهم المعنيين أكثر من غيرهم بتعبئة الاراء والمواقف وتصلبها بعيداً عن الاستجابة لطموحات الفاشية وتطلعاتها اللاحقة . واخيراً عجباً ان حركة العباقرة هذه عانت من الانجسار بهذه الدرجة وكل المناخات مساعدة على نموها ؟ أخشى ان يكون هذا هدوء يسبق العاصفة ويفاجؤنا في مخيم ماردين وصعوباته بموجه جديدة تختلف نوعياً في علومها ومواهبها . وهذا ما يخيفنا كثيراً فهو احتمال قد يلد قبل اجله لكننا على كل حال نطرق باباً ويحدونا أملاً ... نلتمس الزمن ... نرجوه مخلصين ... أن رفقاً بعامة الناس من كبرياء العباقرة وما عدا هذا فإن كل شئ يهون ...

بيئة موبوءة

بعد أن فقدوا اجواء كردستان وهوائها النقي والحركة اليومية التي كانت تمدهم بالنشاط وتعزز فيهم خزين المناعة الطبيعية وعلى غفلة من الزمن جاءت بهم الظروف التعيسة لتلقي بهم في مهب الريح تحت رحمة الصحراء الملبدة بالتراب . فقد تحول المناخ العليل الذي اعتادوه وترعرعوا في احضانه في السنوات الخوالي وتحول الى بقعة محددة بالكاد ببضعة أمتار ومفروض عليهم التكييف معها وهي تحمل من الحرارة ما لاتطاق كأنها مرجل حديدي ساخن على الدوام . وفي ظروف كهذه سائت أوضاعهم الصحية وافضع الأمراض حطت عندهم ولم ترحل ، هكذا فقد تغيرت طبيعة الحياة برمتها ، تواطأت أمام هجمة مسببات الأمراض حتى تفشت لتنهك عوائل بكاملها وبهذا فقد كثفت من وتيرة الوفيات حتى وصلت في بعض الأيام خمسة عشر حالة مما تطلب انشاء مقبرة خاصة بالمهجرين وتنامت بسرعة مذهلة ودون تخطيط ، وتدهورت معالم الصحة العامة وتكاثر داء التيفوئيد الخطير والملاريا التي تبث الوهن في أجهزة الجسم الحساسة ، هذا الى جانب الأمراض التقليدية الشائعة بالاساس والتي تنتعش عادة بتردي التغذية وتستشرس مع شدة البرد وفساد الهواء والاعداد الهائلة من الذباب ونواياه الشريرة .

في الليل حين تكتمل ذخيرة الصوبات بالحطب اليابس وتسدل أجنحة الخيمة باحكام حتى تلغي كل النوافذ حتى تبلغ الحرارة درجتها القصوى ويعانون مضايقات الاغطية المزعجة على أن البرد احبط دون عودة ، ينامون بأمان من غدر أواخر الليل حيث الساعات الزاخرة بسبرة الفجر التي تمض في الجسم حتى عظامه ، ففي الكانونين وشباط من بعدهما هي فترة

الأمراض الشديدة حتى تكاد تنضب كل الأدوية والمؤسسات الصحية تعلن تعذر أجراء الفحوصات اللازمة وتأمين المضادات الضرورية ولم يعد للأطباء اهتمام بالحالات المرضية ويصرحون بذلك علناً . والناس عادة لاسيما العراقيين موضع حديثنا لايثقون بالمسكنات ويتوسلون للابرة الطويلة المختلفة المحتويات حيث عندما تكون سوداء يعرفونها تمدهم بالقوة وتعزز منسوب اجسادهم الخاوية المترهلة بالسوائل القانية مبعث الحياة أما الدوام في المستشفى فهو زمن يتعرض للتبذير والاسراف وفرص العمل الفعلي لاتتعدى بضع ساعات يجري اختزالها على جانبي النهار وفرز قوائم المراجعة عليها فساعات الصباح هي سهم النساء المكبلات بالأثقال البيتية وتفانياً لمتاعب مقتبل الليل . والرجال هم المؤهلين لما تبقى من الوقت انه تقسيم منطقي لاعترض عليه بشكل عام ولكن المصيبة هي ليست بين الرجال والنساء كما تسول للبعض السنهم ، فالاثنين مشكلتهم واحدة انما المشكلة هي وقت المعالجة واسلوبها والجدية بذلك ووجود الكادر الطبي وتردي الأوضاع المناخية وغيرها من العوامل المعرقلة تتظافر جميعها لمضاعفة المصائب وحتى الأدوية ذات الاسماء الضخمة فإن مفعولها قليل كأنها عديمة الفائدة والتضليل هو الآخر يتغلب للأسف على مفاهيم الارشاد الصحي العصري ، حيث تعطي المادة العلاجية عشوائياً لايراعى عددها ولاكيفية التقيد باوقاتها الموزعة على الزمن المحدد بوصايا الطبيب بل الأكثر دقة أن نقول ان الطبيب الجاد الأهل هو العملة النادرة والدخلاء على هذه المهنة الحساسة هم ذوي اليد الطويلة . اما المادة الطبية المفيدة فهي لاتمكث طويلاً باماكنها تحت أيدي الأطباء بل تجدها قد توزعت بطريقة عجيبة في جيوب المراجعين لتنقل على جناح السرعة دون تأخير لتسجن على مقربة من المريض تستبيحه العذر فهي وقعت بأيدي جاهلة لاتريد للأمراض أن تردي قتيلة وان زعمت العداء لمسبابتها ولهذا فاجراءتهم تضيع هباءاً وتحديهم للأمراض محض كلام مجرد ولذا فأمراضنا لاترحل بل تفتك بما طالت يدها . والتلقيحات ضد الأمراض وان كانت تجري بين

الفترة والأخرى كالحصبة والتلقيح الثلاثي والرباعي وفحص الدم للتحري عن مسببات المرض لكن هذا لايأتي بفائدة تذكر العاملين يسهرون على تحقيق الأرقام الاحصائية المبالغ فيها للمعالجات أكثر من حرصهم الفعلي على ملازمة حالة خطيرة ليكتبوا لها الشفاء الناجح وأحياننا ترسل الحالات العسيرة مباشرة الى ماردين لكن العناية هناك هي الأخرى سيئة والاجدي للمريض المكوث في بيته ضماناً للدفئ والراحة الضرورية على الأقل بين ذويه وعطفهم لايعوض .

وحتى سيارات الاسعاف التي ينبغي لها انقاذ المواقف الحرجة وخدمة الاصابات الطارئة لكنها للأسف تحولت الى واسطة لنقل الأرزاق بحجة المرض والمريض الحقيقي صار هو الضحية .

تجد بسيارة الاسعاف اشياء لاتحصى بينها لعب أطفال والسماق والثوم الذي رائحته اسوأ اوصافه والمريض الذي أحيانا يشرف على الموت تراه ينحشر في زاوية ميتة يعني النفس ان يجيد التمارض فهي مهنة مطلوبة في زمن الممنوعات عندما ضاعت مقاييس الحقائق الخالصة . في هذه الفترة شاعت العلل وأمراض المفاصل والعظام عموماً وهاجت أمراض قرحة المعدة وأخرى غيرها كأنها جائت مرسلة خصيصاً للمهجرين وهم في عقر دارهم . وأعراض اغلبها تمتاز بالحرارة المتطرفة الغزيرة والتعرق أواسط الليل وقمة زمهرير الشتاء مع زخات المطر التي في بعض مفاجئاتها تكتسح الأمنين ، تحتويهم وهم نياما ثم تعتذر لاحقاً على أنها حمى الطبيعة الهوجاء ولاحيلة بيدها انما صبراً ازاء نوباتها العابرة . ولقب الطبيب تدني كثيراً وأخذت كلمة طبيب تعطي جزافاً ومجرد معرفة زرق الابرة واعطاء المسكنات يتوج باللقب الرفيع وعبارات التمجيد وبهذه الطريقة تلاشت الفوارق بين من تخرج من مراحل عليا عمن كان يوماً سائق اسعاف او فراش في مستوصف قروي ولهذا وعبر هذه الطريقة المتعثرة تطور قليلاً الوعي الصحي وانبعثت بوادر جديدة للمدنية كغسل الاسنان بما ينظفها والاستحمام المنتظم وجدوى وجود الصابون والليفة معاً وتبديل الملابس

الداخلية كلها ممارسات وليدة هذه الحياة وعرفوا خطورة التسمم والمدى العميق للحرب النفسية وأهمية التعقيم للمياه الراكدة وعلاقة فعل الذباب بتهديدات أمن البشرية وماذا تعني ضربة الحر والبرودة وجدوى اطفاء الحريق دون اللجوء للمياه المباشرة وحرضتهم الظروف ضد وباء التدخين المدمر فحاربوا السكاير من تلقاء انفسهم عندما تردى نوعها وساء طعمها وامتصت رصيدهم الزهيد دون رحمة ، وادركوا معنى أن تكون الادوية مجانية وموثوق بها ، ودلالة انتزاع غلافها الخارجي المحدد لمنشأها الأصلي عندما يزيلون من عليها عبارة الهلال الأحمر هكذا يجتث بترا امام الانظار لتختفي آثار العبارة نهائياً تاركين الموقع دون تضميد لجرحة النازف والذي احدثوه بأيديهم مع سبق الاصرار اذ هناك طاقم من الممرضات بمنتهى النزاكة وبالزي الجذاب الانيق كل تحمل قبضات المقص بقوة وهي طيبة الخاطر متحاشية لفت انتباه الآخرين لمثل هذه المهنة وتقدمها في سياق حركات أخرى اذ لاتمهل العلك متسعاً من الوقت ليسترد انفاسه بعيداً عن ضربات الاسنان المتقابلة وفي عين الوقت توزع النظرات مجاناً للنقاط المتفق عليها وتضحك مع هذا وتطلب من الآخر سكارة وتتحرك وتتبختر بافتعال ربما تمهيداً لاجراء المقارنة بين سيقانها الممتلئة المتناسقة مع امرأة المجمع المريضة التي لاتطيق الوقوف على قدميها الجرداء الا مكابرة ، ففي حالة كهذه تختصر المقارنة الواردة في باب المظاهر فقط أن استفزاز كهذا يثير الكثيرات خاصة والمرأة بشكل عام حساسة وغيورة ورهيفة المشاعر فكيف والأمر يتعلق بممرضة متمكيجة باسراف أولا وهي نسئلة بالاساس ثانيا ؟ صدقاً ان المقارنة بهذه الظروف غير متكافئة وغير واردة بمواقع كثيرة ان الممرضات التركيات في مخيم ماردين بشكل خاص والعهدة على شاهد العيان وربما هذه عينة لاتصلح للقياس اهتمامهن الأول هو الرونق الظاهري على حساب الجوهر الانساني ، ترى هل فقدن ما قيل يوماً بوصفهم بملائكة الرحمة ؟ بهذه السهولة تجردن من هذا اللقب الرفيع المشرف ؟ لكن هل هذا تقتصيرهن لوحدهن ؟ يتعزز تراكم الحمرة لأغلب

مواقع الوجه ليكون داكناً على امتداد الشفاء ، وتعرض الشعر الطري لسحابة سخية من العطر العصري حتى درجة الاشباع . من يدري أي المناظر الاكثر تأثيراً في تلك المشاعر التي لم تترك بقعة من نواحي جسمها دون أن تطولها العناية والتجميل أم الفقيرات بالالاف يتدافعن منذ الصباح الباكر توسلاً بهذا وذاك للحصول على جرعة لعلها تنقذ من فرص الموت المحدقة في كل لحظة أن مرور واحدة ممن قيل عنها ملكة الرحمة هي فرصة ذهبية يتمناها حتى الطاعن بالسن فمن لايريد لقلبه أن يبقى طرياً أخضر في مثل هذا الموقف يتوقف الضجيج ويتراخى التدافع وتعتدل عقد الوجه وتتمحور كل الحواس لتكون رهن الاشارة كل امام مهماتها الانية المحددة . كل يتكهرب في مكانه ورغم الجراح فعلاجهم احيانا متعددة التركيب والمنشأ وربما تنفرد أحياناً عن كل الأدوية الأخرى المعروفة تقليدياً ، حتى تنتهي هذه اللقطة المنعشة فيداهمهم موكب يحمل مريضاً في النزعات الأخيرة يستلقي في نقالة كأنه فارق الحياة قبل ايام . انذاك يفيقون من خيالهم التأملي السار ومن جديد يأسفون للوقت الضائع ويلعنون القسمة السوداء التي لاحقتهم لوحدهم ورويداً رويدا يتبدد الهدوء وتعم العاصفة كان منهم جنود مجهولين بعض الوقت وفي مجرى الحياة وغمرة العمل صاروا اعلاماً وقدموا خدمات جليلة قياساً بقدراتهم وأحكام الظروف الجائرة عليهم ومنهم على سبيل الذكر (د.كمال وعبدي وآخرين) هنا في المخيم يجري التعامل من الامراض بموقف نسبي بعيداً عن الدقة ويصفون مرضاً معيناً بحالة واحدة يجيبون الطبيب على اسئلته دون دقة وينطلقون على الأكثر من موقفهم من ذلك الزاد قياساً بالسابق وكان هذا مرضاً بذاته ، وعندما يصفون حالة في جوفهم يعطون ابعاداً اضافية أخرى كان احشائهم واحة مترامية الأطراف والتهاب الأذن الطفيف وحصول التشويش المؤقت هو ليس بأقل من تمزق الجدار الداخلي وتدمير كل الأجزاء الأخرى ، ولديهم أن مهنة القلب هي الأكثر خطورة ويخشون توقف نبض هذا الجهاز واندثار بعض مكوناته وكل خلل ينسبونه لعطل جسدي ويلقون باللائمة عادة

على غذائهم الهزيل ذو العناصر الغير متعاضدة بما فيه الكفاية أن البيئة مفتوحة على كل ما هو مرفوض صحياً والسواقي بمثابة شبكة شرايين نحيلة وهي تدفع بما في حوزتها من المياه الأسنة من كل خيمة لتلقي بها في حفرة مجاورة استحدثت خصيصاً وتحولت الى بؤرة ضارة .

أما الذباب الكثيف فهو الواسطة الرخيصة يغزو كل الأماكن لتبادل حمولته المونية وفق مبدأ المقايضة المتعارف عليه في الأوساط الشعبية الفقيرة ، وقبيل الغروب بدقائق تستنفر العوائل لاجلاء الذباب الدخيل عن بيتهم ، الكل ينصرفون لهذه المهمة الآنية الطارئة ، يحكمون السيطرة عليه ويرغمونه على الهزيمة المنكرة بانسحاب غير منظم تاركاً جثث قتلاه وهم بالالاف ويندحر وهو يجر اذيال الخيبة مغثوثا ومعبئاً من جديد لقواه وطاقاته لجولة قادمة ساعة الصفر فيها بزوغ الشمس ثانية فالليل الدامس والرياح النشطة اسلحة للفقراء مجانية كالحجارة لكنها لمناهضة الذباب وتبديد أحلامه بهذه المعاناة تعايش المهجرون مع حياتهم الجديدة القاسية وانتعشت بينهم المفاهيم القديمة الخرافية عن المرض وعلاجه الأقوى على انه ليس بالضرورة من جراء كبسولة واحدة متقوقعة بثوبها الزاهي الشفاف ولاهو دائماً من خلال حبات المسكن ، واذا تناولوا واحدة منها يتركون الأخرى أو يوزعونها على كامل افراد العائلة التي بحوزتهم اما تعليمات الطبيب ومعطيات العلم وغيرها فلا يأخذونها على محمل الجد بل هي آراء راجت يوماً وتلاشت في مهب الريح غير مأسوف عليها .

نوروز عام ١٩٨٩

موجز القصة البطولية ومغزاها

يحكى ان حاكماً طاغياً كان يظلم الناس وقد اصيب يوماً بداء خبيث فوصفوا له مخ الأطفال فأخذ يفرض على الفلاحين نبح ابنائهم تأميناً لعلاجه الوقتي وقد استهلك كل اطفالهم ولم يستطيعوا وضع حد لطغيانه ، وعندما جاء دور الشخصية الكردية البطلة . كاوة الحداد . قدم ثلاثة من ابنائه الأربعة تباعاً وبقي الرابع حيث بلغ السخط والاستياء بين الناس نقطة الانفجار للخلاص النهائي من ظلمه كاوة الحداد كان الشخصية التي لعبت دوراً في التعبئة على طريق الانقضاض عليه وتخليص الفلاحين من شروره . كان حلم الفلاحين الفقراء ان تطول مناجلهم رقبة الضحاك ، يمنون النفس بخبر كهذا كانت نقطة الانفجار حين طلب السفاح رقبة الابن الرابع لكاوة النضال ، انها حالة نفاذ الصبر وحين هجم كاوة بمعوله الجبار على الضحاك فارداه قتيلاً وهب الفلاحون مع كاوة في ماثرته التاريخية الخالدة هكذا تخلصوا من الظلم واشعلوا النار رمزا للخلاص والحرية ، ومنذ ذلك الوقت صارت هذه الليلة المباركة عيداً قومياً للشعب الكردي وايماناً بالنضال الجرئ ليتكلل بالنصر النهائي .

يوم ٢١ /آذار/١٩٨٩ في العاشرة صباحاً من هذا اليوم المجيد انتقلت كل الجماهير تقريباً الى المكان المخصص للاحتفال ، في زاوية شمالية غربية من الساحة الرياضية الفسيحة ... فقد غصت بهم وكانت الشعارات مخطوطة بقوة وأبرزها تحية للمناسبة القومية المبجلة وأصرار من خلالها على مواصلة الكفاح سعياً لتحقيق الأهداف القريب منها والبعيد . هذه الشعارات التي كانت صيغتها قديمة وفحواها عامة ولكن رغم هذا فقد

التفت الجماهير حولها بالالاف نساء ورجال ، حشد كبير جداً ، والوجوم التام اروع فقرة في الاحتفال . وحتى الان لم يكن في البال تناول هذه المناسبة في المذكرات مع انني في الصفوف الأمامية المتقدمة وقبيل بدء الفقرة الأولى لاحت في خلدي انطباعات انية عن ثغرات ليست قليلة وهذه حفزتني على التركيز اكثر بوجه الرصد لتناول لاحق بهذه الطريقة فرضت هذه الملاحظات نفسها في التدوين منذ اليوم الأول وتكاملت ابعاد الصورة لتخرج بصيغتها النهائية الماثلة .

مجرد كلمة نوروز هزت مشاعرهم فجاءوا من كل صوب بخطين غير متوازيين تماماً والتقيا على مقربة من صالة العرض ، مساهمات البعض خجلى كمن بزفاف اخته ، ولعل النشاز الأكبر في الاحتفال طلب التصفيق عند مجئ الوالي كان هذا بمكبرات الصوت وهنا شدة نشازه ومعلوم ان الاحتفالات الجماهيرية بشكل خاص حساسة تلتقط كل التصرفات بسرعة خاطفة كأنها تعبد صياغتها ثانية لتلافي خلل جاء فيها ، وتعرضها من جديد امام الانظار وجهاً لوجه . ففقرة واحدة مثلاً لكنها موفقة بوسعها ان تسم الحفل بأكمله بالنجاح والمتعة ومن جانب آخر فالمساس حتى البسيط لمشاعر الجماهير المرهفة ينعكس في الحال بمظاهر النفور والانحسار الذي يصعب ايقافه في منسوب الحضور وامزجتهم . وممارسات كهذه دارت في الاحتفالات للأسف في حيثيات البرنامج وتفاصيله الرئيسية وفي المقدمة منها والأكثر ممجوجة هي لهجة الأوامر الجافة (... صفقوا ... ارجعوا للوراء ... مابكم اجلسوا ...) والملاحظة الأخرى هي كذلك جوهرية وهي ميكانيكية الاداء لتمثيلية كاوهالحداد وماثرته القاصمة لظهر الضحاك ، فقد افتقرت للحيوية والحركة والابداع ، وكذا الحال في غياب التقليد الرائع في مثل هذه المناسبة القومية الهامة في السنوات الخوالي كانت جبال كردستان الشامخة وقراه الجميلة وحقوله الخلابة هي المسرح الفسيح الطبيعي ، بعيداً عن القيود والمضايقات والحواجز ، كل هذه المواقع كانت تحتفل ، تنطلق السن النيران بمحض ارادتها وبكامل حريتها في كل القمم الفارغة ،

ما ابهج مشهد للنار من بعيد لتبديد خفايا الليل الدامس ، والنار كما عرفنا في عرف شعبنا الكردي هي دعوى لانتزاع الحرية الحمراء ودحراً للطغيان وأحزمة العتاد حينذاك تكاد تفرغ تماماً مع آخر بصيص ظل ينازع بين مطاوعة النعاس أو أن يندلع ثانية بوجه الظلام و هنا في ماردين فإن الأطفال المساكين هم أكثر من خسروا فقد ضاقت بهم الأرض لم يألفوا القيود ومناشدة السكينة ، فقدوا ماضياً حلوا في الحصيلة النهائية . أين الفرح الحقيقي وكيف يمارسون تقليدهم كما في كل عام ؟ ونوروز وحده عيدهم القومي . أما الأنصار والبيشمركه عموماً فقد كان للمناسبة الماثلة ، لنوروز مكانة خاصة في البرنامج الحافل والمكرس لشهر اذار ، اذار النضال المفعم بالنشاط والعمل ، وجماهيرنا في العراق يأخذون من الحدث العبرة ويتعاملون مع جوهره المتحرك سيما والضحاك ما برح قائما في بلادنا ، وكاوه مهمته بمقدار ما هي شاقة يراد لها معالجة الثغرات بين الحداد وجمهوره ، وكلماته الحارة تؤدي وكأنها كتبت على لسان الآلاف ، وايديهم هي الأخرى تطبق بقوة وثبات كي تكون ضربة معوله ماضية وسديدة ، ومن لم يجيد هذا الدور والتفاعل وفق هذه الاعتبارات الهامة فلا يضيف جديداً لكلمات مكتوبة على أوراق تمزقت لكثرة مراجعتها وحفظ نصوصها عن ظهر قلب .

إذن مقارنة بسيطة بين صورتين احداها ماثلة وأخرى قديمة سبقتها بعام الفوارق تثير الحسرة ففي مثل هذا اليوم كان حينها حفلاً جبهوياً بأقل من هذا الحضور لكنه ، وهذا الأساس على أرض الوطن الحبيب ، هناك كانت للكلمات نكهتها وبعدها المدوي والمساهمات تأتي من القلب صادقة وهناك أيضاً للأنصار مهمتهم المشرفة ، يحرسون الأجواء ويضمنون للجمهور الطمأنينة والسلامة ، لم تكن الاهات انذاك تشكل فقرة بحد ذاتها . أما اليوم فالظرف آخر والثغرة وكعين الشمس ولهذا وملافاة لشئ مما يكدر الخواطر ، يتقدم الرجل الجثم ذو البشرة السمراء من بين الفقرات يختار وقته ليطل على الجمهور وليجتث الحسرة من اعماقهم عندما

يدوي كأنه في عالم آخر (لن نموت اننا أكبر من جبل متين وأعلى من سلسلة كارة ... ابداً سنبقى للأمام) وعندي أن هذه المساهمة كانت الأكثر وقعاً في النفوس ومع انني لاأعرف هذا الرجل قبل الآن لكنه ذكرني ببطل السودان عبد الخالق محجوب بملامحه العامة .

لايخفى ان في الاحتفال هيمن الشعور بالخيبة بشكل كامل واعتصرت القلوب الى جانبها نزوع للحرية بحدودها الدنيا كخطوة أولى في البداية منطلقاً لحرية الوطن بأسره ، اذ لازال بصيصاً من الأمل يجول في النفوس ، وكلمة المناسبة هي الأخرى مصابة بوعكة حادة ، لم تكن ملهمة لأحد ، وهي ليست سوى كلمات كثيرة باردة ... باردة القي بها دون لطف على ورقة بل أوراق كثيرة لم تأت بجديد ولاتحمل حلولاً لأي معضلة وحتى لم تراع المهمات القادمة بشكلها البسيط المناطة بالأحزاب وجماهيرها فهي تتجاهل هذا او تغض الطرف عن الازمة الحقيقية وتخشى تعاطي الصراحة حتى مع نفسها ، كانت كلمة طويلة مملة وعبئاً على قارئها المتكلف كثيراً وقلوب كانت متوجسة من فقرات البرنامج الرسمي الثقيل .

أما فقرات النضال الحقيقي فهي تسجن في القلوب لأجل غير مسمى ، تلك القلوب التي تصمت اضطراراً وحتى انطلاقة الارادة الجماهيرية الكامنة ، حين تتفجر مشاعرها حينذاك تعرف عرسها الفعلي ذاك هو المناخ المنشود الذي يرجي منه ثورة ، أما الآن فحري بكل الاهات ان تطمر وان تشطب الكلمات الوجلة والخائفة ، وستهتف يوماً هذه الجموع للكلمة الجسورة الصارمة ، ويقيناً ان الحداد لم ينزل من السماء ، سيظهر من بين أهله ان عاجلاً أو آجلاً .

التسمم الخطير

مساء ١٩٨٩/٦/٩ كان ككل الأيام بلا جديد معلن لكنه يخفي اداته الغادرة خلف ظهره . حركة الناس هي الأخرى طبيعية تناولوا عشاءهم الهزيل وحتى الثامنة والنصف تماماً كل شئ كان طبيعي ولكن مثل كل الأشياء المباغتة المثيرة بثت مكبرات الصوت واسترعت الانتباه مرات عديدة نداء . نداء . نداء . احذروا تناول الصمون الذي وزع عصراً ففيه حاله غريبة وقبل الانتهاء من تلاوة التحذير الخوف لف قلوب الالاف اذ لم يعد هناك من لم يتناول العشاء واغلبهم قد تناولوا هذه الوجبة المقصودة في عشائهم ، بدأت الحالات المرضية بغضون دقائق فقط وسادت الفوضى بكل معنى للكلمة ... ارباك حقيقي وبكاء بدرجة الضجيج وحركة مخيفة وعشرات السيارات تنقل الحالات الخطيرة الى مستشفيات ماردين مباشرة . يتفحصون نوعية صمونهم المتبقي ينظرون في جوفه علهم يعرفونها من لونها الغريب بين الأزرق والقهوائي ورائحة كريهة لاتطاق ، اخذت الأوضاع النفسية تتدهور وشمل هذا كل المخيم ومخاوف الاوساط الواسعة تضع العديد من الاحتمالات نصب عينها على أن عملاء الفاشية فعلوا فعلتهم الدنيئة ، ها قد نجحوا في الانتقام من هذه الجماهير لقاء رفضها كلمة مساومة أو تسليم في عفوهم الزائف المزعوم . وحتى من لم يتناول شيئاً من هذا الصمون اردته المخاوف النفسية اسير القلق فأخذ يشعر أن وضعاً مرضياً ومغصاً في معدته ومن لايتمالك نفسه بقوة ينطرح ارضاً في الحال وتنفصم عرى معنوياته حيث لم يبق هناك من لم يتأثر بشكل أو بآخر وجو الرعب العام وهو الذي هيمن على المخيم وتحولت الساحة الكبيرة الى موكب

بالالاف لكنها مواكب مهزوزة خائفة وحالات التقيؤ افسدت الجو في أطراف الادارة ، لم تعد هناك مقاومة بدنية ذات شأن ... وغالب العوائل لجأت للحليب باعتباره اسعافاً في حالات اللتسمم والغريب اين كانت هذه الكميات من الحليب قبل الآن ؟ ففي كل خيمة تجد الحليب بكامل الاستعداد ، لقد سيطرت حالة رهيبة من الخوف لم يعد هناك من يتمالك اعصابه كل يركض على غير هدى منه كل يسارع الى معارفه والأقارب للوقوف على أوضاعهم ويطمئن بعدم التخوف وضرورة مواجهة الحالة بضبط الأعصاب واعلموا أن العدو يستهدف هذه الحالة من الرهبة كي يمرر مشاريعه القذرة . مكبرات الصوت هي الأخرى تدعو لضبط النفس وملازمة الخيم وكل شئ اعتيادي لا تخافوا ، وقوات الحكومة التركية جاءت بأعداد كبيرة الى المواقع المحيطة بالمخيم كي تسيطر على الموقف وتحسباً للتطورات اللاحقة . وهناك من يبالغ منذ البداية ويعطي ارقاماً كبيرة عن حجم الاصابات ويوصف الاعراض وفق ما يشاء كأنه اخصائي بارع وحتى يعطي اسم المادة السامة ودرجة مفعولها وهذا يؤجج االخوف اضعافاً ، ولكن هناك في مثل هذا الموقف لم يكن من السهولة مواجهة أعلام كهذا بالتثقيف المضاد على أن الحالة ليست بهذا المستوى ولاتستدعي الخوف لهذه الدرجة ... الخ من يقول هذا يردع بقوة ، من يقبل من هذا النوع عن جريمة ترتكب ببشاعة ؟ خاصة والحالة حقيقية فعلاً واعداد المرضى تجاوزت المئات ويثار الخوف من جديد عن لعبة تحاك في الخفاء ، من يدري ان لاتكون الارزاق الأخرى تحمل الموت وهي ساكتة ؟ هل هذه ضريبة أولية لقاء رفضنا مواجهة وفد الفاشية قبل أيام ؟ اليس من خيوط بيننا لهذه الأفعال الدنيئة ؟ كانت الاصابات الفعلية بين النساء والأطفال أوسع بكثير عنه عند الرجال مما يدلل على عمق الخوف في هذه الأوساط ، ان عائلة معينة مثلاً تناولت العشاء جميعها من نفس الصمون لكن لايحصل لهم شئ سوى للمرأة والأطفال هناك تجد رجلاً مسناً يهم بالحركة وسط النساء المشدوهات ينصح في البقاء كل في بيتها وإبعاد تأثير الخوف جهد الإمكان عن ذهن

الأطفال وإشغالهم بأمور أخرى علهم ينامون ويبتعدون عن هذه العاصفة المهلكة للنفوس . وبين الكبيرات ساد الحزن والبكاء واخذ الموقف ابعاداً معنوية نالت من شكيمتهم التي حتى الآن كانت مرفوعة . وبتحليلات بسيطة لكنهم يفاجؤونا عن خبرة ودرس بليغ اكتوا به القلب مدى العمر... يا الهي... ان مجيئنا الى هنا لم يكن نزهه بل نفور من الفاشية وهروب من سلاحها الكيمياوي . هروب من الموت واليوم وبهذه السهولة يفاجؤونا بالموت ؟ يا للخسه ، إنه منظر غريب جداً ربما هو الفريد في العالم ، كل الأعمار مسهم الهلع ، يركضون ولاينطقون بأشياء مفهومة (يهذون تماماً) والأسئلة هي عن الحالات الخطيرة وما هي الاجراءات الأولية الضرورية ؟ ما هي مواصفات الصمون التالف ؟ هل كل الوجبات مشكوك فيها ؟ ربما المواد الأخرى لها سمومها الخاصة ؟ وآخرين يتظاهرون برباطة الجأش لكن انفعالهم لايدل على ذلك ، أحدهم يصرخ كأنه طفل فقد صوابه ، يحرك يديه في الهواء ويعلن البلاغ مباشرة ... لاتخافوا ... لاتخافوا كل في خيمته ... الستم كرد ؟ عليكم بالحليب ... ان عدونا يريد لنا ان لانهجع ... ان يسيطر الخوف علينا ... وهذا عار علينا ... ان مهمتكم ويشير للرجال ... التواجد مع عوائلكم وخلق الطمأنينة بينهم ، هذه مهمتكم الهامة والوحيدة ، واحد العاملين على مكبرة الصوت نبرات صوته بحد ذاتها تثير الخوف حقاً كصوت فائدة كامل في اغانيها الثورية الحماسية ، والحق معه فهو على مقربة من الحالات الخطيرة المشرفة على الموت وتظاهرة جماهيرية اندفعت صوبه مليئة بالضجيج حتى وصلت الشارع العام وهي تتسع بسرعة تضغط لاختراق الحواجز والذهاب مشياً على الأقدام بكل الاتجاهات .

كانت العلامة المرضية الوحيدة البارزة هي التقيؤ والاضطرابات المعدية ولكن المبالغات تضع جملة اعراض اخرى في احاديثها كتوقف حركة الدم وحالات التشنج في الاطراف الخ وأينما تنظرهم تراهم يمسكون بواحد من يديه الى المستشفى ، ومن بين هؤلاء يقع الثاني والثالث قبل وصولهم الطبيب . ولليوم الثاني والثالث وحتى الخامس تتصاعد الاصابات لكن

الصمون لازال ينقل الى مكانه السابق بسيارات كبيرة ولكن ما أن يجري توزيعه حتى يعلن تحذير آخر بأن الشكوك لازالت قائمة عن صلاحيته الغذائية وضرورة اعادته الى حيث استلموه وتعم البلبلة والطعن وتهجمات على الوالي نفسه الذي لايبدي شخصياً ولا كسلطة الاهتمام اللازم بمثل هذه الحالة الخطيرة ، الاجراءات شكلية لاتقنع الطفل وكأن شيئاً لم يكن . الجماهير عاشت أياما طويله على البرغل والعدس والبسكت فقط ، ترى إذا كانت الحالة ناجمة عن عمل تخريبي من عميل للعراق لماذا يتواصل هذا دون اجراء عملي لإيقافه ؟ أين تدخل السلطة التركية في تطويق الحادث ؟ الا يوجد من يشك بهم ؟ وهل ان السلطة عاجزة عن تحويل عملية شراء الصمون من هذا المصدر الى آخر ريثما يتم التأكد وحصر الحالة بهدف معالجتها ومعرفة الأسباب الرئيسية لها ؟ انتقل الخبر الى المدن التركية وديار بكر حيث المهجرين العراقيين هناك وقد أذهلهم هذا الخبر وتلفونات الخارج تناقلت الجريمة وعممت الحادث الى كل المصادر الاعلامية العالمية وسوريا إذاعته بإذاعتها الرسمية مرات متتالية ولكن الوالي أحمد نوروز لم يكترث بذلك وكثيراً ما يضحك على أنها لعبه مفتعله للإساءة الى تركيا .

وأخذت اذاعات العالم تنشر تفاصيله المريبة وتعلق عليها حيث اذاعة دمشق اذاعت الخبر في ١٩٨٩/٦/١٠ ، ولندن ٦/١٢ وبلغت الحالات المرضية في الاسبوع الأول ٣٠٣٤ حسب الاحصائيات داخل المخيم وتردى وضع البعض منهم ، وعلى صعيد الحكومة التركية فلم تتخذ أي اجراءات هامة والاجراء الوحيد الذي ترك تأثيراً معنويا جيداً هو وضع ورقة صغيرة ملصقة على كل صمونة تحمل رقماً وتاريخ فقط كتأشيرة بصلاحيتها للتناول وهذا لعب دوراً معناويا حيث هناك الكثيرين لايتناولون الا الصمون التي تحمل هذه الوريقة الصغيرة مع أنها لاتحتوي ضمانه بسلامتها .

بعد أيام اعتقل الشخص المسؤول عن معمل الصمون وقيل عنه أنه المقاول وهو كبير السن وبهيئة بائسة واطلق سراحه بدعوى أن الحالة ليست كما قيل عنها وليس من وجود أي مادة سامة في الصمون أما بسبب تلف

في الطحين أو في الخميرة التي كانت كثيرة في وجبة العجين وأدت الى تعفنه وغير ذلك من المبررات الواهية ، هكذا عاشت الجماهير حالة خطيرة كادت أن تفتك بالآلاف منهم ولكن تغطية لامنطقية أسدلت ستاراً عليها ومررت جريمة بشعة ويبقى احتمال أن تتكرر ثانية امراً وأرد متى سنحت وبعد سلسلة من التحقيقات تم اطلاق الفرحة اللازمة لذلك هذا واحد من أفعال كثيرة هي وصمة عار بوجه الفاشية الجبانه ومرتزقتها الحقراء .

لقطات

لايمكن الالمام بتفاصيل الحياة مهما كانت المتابعة دقيقة والرصد مباشر ، يصعب وصفها كما هي فهي حياة حافلة بالمواقف الحية المحيرة والمليئة بالصخب والمعاني ، في اليوم الواحد تجد مئات الملاحظات المثيرة والحوادث التي ترغمك على التمعن فيها وترى بعينك شدة التذمر والانفعالات ومن يريد توخي الأمان والموضوعية لابد له أن ينقل فصولاً من حياتهم اليومية بقساوتها الفعلية فهي هكذا عصيبة لاتفتعل المرارة ومن يراها متعه عليه أن يجربها بنفسه . كل جانب من نشاطه ذو دلالة تسترعي الانتباه وهم يشتبكون مع المشقة ويطرقون كل حيله لتذليلها ولنأخذ عينات تمس حياتهم اليومية وتتسم بقيم بشرية وعبرة ليست عابره .

غذائهم اليومي ذو نوعية موحدة أما الكميات فهي تتماشى مع الوجهه العامة الداعية للتقشف والخاضعة للميزانية المقننة بصرامة ، ويعتمد ذلك على مايأتي في السوق ووجود اللهانة أو السلق فلاتجد بيتاً متحرراً من الابراخ (الدولة) هذه الوليمة المحببة لدى النساء خاصة ، وإن جاء اللحم الحكومي فانت أمام اختيارين لا اكثر أما كبة البرغل أو الكبة الحامض وعادة يدعون له المقربين ، أما الأيام الموبؤه وهي كثيرة فيلجأون للعدس عميلهم القديم أو البرغل فأحيانا الاثنين معاً أما الصمون رئيسيا وما عداه ثانوي وينتزعون لبه الداخلي لإعادة تصنيعه من جديد وفرض الاختلاط عليه مع عناصر اخرى (بطاطه معجون الطماطه البصل وبهارات وكرافس والبيض ... الخ) في الأوساط الشعبية خاصة بعد تعاطي الجريمة في محاولة تسميم المخيم بأسره على غفلة منه فإنه كما يقولون طعنه من الخلف

لم تكن مرجوه من الصمون صاحبنا القديم وضربة الصاحب بالورد مؤذية.

أما الشطرنج فهي لعبة انتعشت في المخيم لكن رقعته تفصلت على ورقة الكارتون الاعتيادية والاته استخرجت من العجين المصنع ببراعة بعد ان تعرض الى حمله شعواء وتفرقه عنصرية لئيمة أطاحت بنصفه وحولته الى اللون الأسود ونصفه الأخرى قاوم بشراسة وبما اوتي من قوه فحافظ على بشرته الخارجية البيضاء وتسميات قوى الشطرنج شملتها حملة التغير هذه في غالبها وأصبحت آلة الملك تدعى الوالي (اشارة للمسؤول التركي الأول) والجنود بأسماء الجندرمة وهكذا . وأقداح الشاي تجاوزت تشكيلة الأواني المستطرقة وتعددت المنشأ ايضاً فهي من أصل زجاجي وأخرى بلاستيكية ومعدنية وغيرها ويعززونها على الدوام من قناني (الكولا) بعد إجراءات جراحية تحويرية حسب أذواق العائلة ، والضيوف لايعترضون على هذه الابتكارات الابداعية انما يلاحظونها باهتمام لتجدها في اليوم الثاني قد تمزتهم وهم نيام فالاختراعات لخدمة البشرية قبل كل شئ . أما طبلة نهايات السكائر هي كذلك من صنع محلي بالكامل وتتكون إما من قطعة خشبية انتزعت أحشائها الداخلية لتكون مجوفة أو أنها علبة معجون الطماطه لكنها فقدت نصف قامتها دون رغبة منها . وأمام كل بيت استحدثت مزرعة وهي كالتجربة الايضاحية لكن مساحتها في أفضل الأحوال لاتتجاوز الثلاثة امتار مربعة وأحياناً أقل من المتر الواحد فيزرعونها بطريقة الزراعه الحديثه ... قليل من البصل الى جانبه حشد من الكرفس وشجرة واحده من الطماطه وثانية من الباذنجان الأسود مؤطر بشتلات الذرة الصفراء المفضلة للمزرعة والى جانب عباد الشمس والأخير للدعاية فقط . يتقاسمون المياه بينهم فهذه المزرعة شاركتهم الماء لتعطي شيئاً أخضر وارتبطت معهم مصيرياً ، هكذا لكي تعد بالعطاء لابد لها أن تأخذ مقدماً .

عند بداية الصيف بدأت المساعي لتأمين مياه الشرب البارد نسبياً ومن خلال الحاجة توصلوا لاختراع جديد بفكرة يسيرة ومجانية وموحده في

اطارها العام فيحددون جزء أ مناسباً على طرف من خيمتهم ويحفرون فيه دائرياً يتسع كلما تعمق اكثر ويسقف بعناية وتترك فيه فتحات لتأمين حركة الهواء الضرورية أما الطريق المؤدي لهذا الموقع فهو مدرج وينتهي داخل الخيمة ويعلنون عن وجود ثلاجة ويفتتحونها بحضور كافة افراد العائلة وبمباركة الجيران وهي ثلاجة بالفعل تحتوي كل الأشياء الهامة من الأرزاق وماء الشرب وحين يسطو عليها عدواً خارجي تسقط الخيمة غذائياً حين ذاك يفرض هذا العدو شروطه التفاوضية من موقع القوه وكثيراً ما يكون سطح الحفرة مستوياً بشكل مزرعة اضافية ربما للتمويه على ما في جوف الثلاجة ولاشاعة جواً بهيج مكللاً بالندى الصباحي .

أما التدفئة فهي بطريقة الصوبات المعدنية بكل أجزائها الملحقة وهي عملية وجيدة اما ذخيرتها فالحطب وقودها الوحيد الذي كان يجري توزيعه في فترات محددة وعلى أساس متساوي لكل الخيم باعتبار المهم في الأمر وجود الصوبة في كل بيت ، يجري التوزيع للحطب خلال فترة زمنية أقل من الشهر وحصت البيت الواحد ٢٥٠ كيلو غرام مهما كانت ضخامتها أو درجة جفافها وهي كمية لاتكفي بطبيعة الحال لهذا يلجأون لأساليب السرقة والمصادرات وتحصل المشادات على قطعة الحطب الواحدة لكنها جيدة ، وعندما تخفق كل المحاولات ينشط كل على حساب جيرانه ، ومراجعاتهم للحصول على الحطب لاتنقطع بحجة أن وتد الخيمة قد انكسر أو أن عمودها قصير وغير ذلك ، والمنظر الغريب عند الغروب حين تبدأ الاف الصوبات عملها المسائي الشره في التهام ما في نطاقها الداخلي من وقود وهي كمعامل الطابوق فيمكن تصور أن اربعة الاف صوبة مذخرة بالعتاد الحي تشتعل في وقت واحد في منطقة ضيقة ناهيك عن الرطوبة وتقلبات المناخ وتذبذب الهواء وتزامن زخات المطر الاكثر ازعاجاً وغيرها مما يعرقل الاشتعال فاعمدة الدخان تتداخل في ما بينها بشكل خطوط سوداء متعرجة وتتكاثف في قلب السماء كالغيمة المزعوجة وهي تحشد قواها لمهمة طارئه .

أما الخياطة فصارت مهنه أكثر انتشاراً من الأعمال الأخرى وكل

المورديلات مقبولة وأغلب الخياطين من النساء لأن أجورهن زهيدة وعلى القطعة ويتواصل العمل ليل نهار لتكون الفائدة مضاعفة على حساب الصحة والراحة البدنية أنه عمل مضني للغاية في ظروف قاسية للغاية ايضاً . والحلاقة فهي لاتشكل مهنة بمعنى الكلمة يعول عليها ، انما وقف مبدأ اخدم نفسك بنفسك ، اى انهم يتبادلون حلاقة احدهم للآخر اينما وجدوا الفرصة سانحة في ساحة القدم امام المئات ام في حمامهم المحشور في طرف من بيتهم المتداعي وأحياناً في الهواء الطلق يحيطهم العشرات من المتفرجين وتعليقاتهم وحين يأخذهم الواهس تتمخض حملة الحلاقة هذه عن اكتساح شامل لكل منا بت الشعر اينما حلت .

في بداية الحياة في مخيم ماردين كانت العوائل تنام الليل معانقة الأرض وجهاً لوجه تفصل بينهما بطانية جرداء واحدة اتقاءاً لبلاء الأرض وزرع الأمراض ، كانت امنيتهم الحصول على (الدواشك) مهما كان لونها أو مساحتها ومحتوياتها وسمكها حتى جاء دورهم لذلك وحصلوا بمعدل للأربعة واحد وقد صادرت معظم مساحة بيتهم الصغيرة اصلاً . عند اعدادها للنوم يدخلونها من الباب مباشرة ، يتسلقون فراشهم الجديد كأنهم يعتلون كديساً من الحنطة أو أن أحدهم يسبح فوق بيدر من التبن ، وعند النوم تبدأ الفقرة الطريفة حين يشتد النقاش حول اتجاه الأرجل ومواطئ الرؤوس الذين يريدون له اتجاه يؤمن حيزاً يتقلبون فيه وأخيراً يحسمون الأمر على اساس ان كل له كامل الحرية في الحركة والمهم عدم تجاوز الحدود والخروج عن الاطار العام لفراشهم الموحد . فأيام فقط حتى طالت عمليات التغير هذه الدواشك ايضاً فتحررت من امعائها الدقيقة (السبرنك) الذي بانت عيوبه واشكالاته للبدن .

وواحده من حوادث الكهرباء اودت بحياة الشابه سهام رشيد بيدهي وهي على ابواب زفافها وذلك في ١٩٨٩/٦/١٧ وهي الشهيدة الأولى من جراء الكهرباء التي لن يعتادها الناس القادمين من القرى مباشرة فهم يتعاملون معها ببساطة ولايعرفون اشكالاتها وكأنها حبال سائفة ويغامرون

بذلك .

وعلى الرغم من صعوبة الحياة وتوتر العلاقات وتنامي المفاهيم العشائرية واثارة الصراعات القديمة المتراكمة والمقيتة ناهيك عن اشكالات نجمت عن الاحتكاك والحزازات اليومية المباشرة كل هذه الأمور هيجتها الويلات والمأسي ... لكن على الرغم من كل هذا الواقع المرير فالصراعات الفعلية قليلة كحصيلة ولعل ابرزها حادثة نشبت بين اهل قرية اورى نفسها التي بدأت بأسباب بسيطة وتطورت حتى اسفرت عن قتيل والعديد من الجرحى وتدخلت مساعي جادة فأوقف الحادث عند حده وعالجوه آنياً على الأقل . والحادثة الثانية بين قريتي رافينه والكيشكى برواري ، كان المسبب لها خلاف في فريق القدم وامتد وتعقد بعد ايام وتدخلت القريتين بكامل قواهما في مواجهة حامية بينهما استمرت اكثر من ساعة واسفرت عن العديد من الجرحى وجروح بعضهم خطيرة ، كانت احداث مؤسفة اثارت استياء الرأي العام في المخيم بعد أشهر من الحياة نمت بين الشباب خاصة ظاهرة الاقبال على تعلم اللغات واستذكار الكلمات الضرورية واللاتينية ولكن الغريب في الأمر أن أحداً لايتعلم اللغة التركية رغم اننا على ارضهم من جانب آخر نشطت كذلك المبادرات في تدريس الشباب حتى الأطفال واتسعت هذه الظاهرة الايجابية واثمرت بفائدة كبيرة منذ الأيام الأولى لكنها تفتقر للبرمجة والمناهج المناسبة لكل الأعمار والمستويات في مختلف المراحل . وظهرت ضرورة المتابعة لهذا الجانب من قبل الأطراف السياسية باعتبارها قضية تعنيهم في الضغط على السلطة التركية لتذليل المعوقات وتوفير الدعم . بين الشباب تجد المولعين بمتابعة الرسائل الواردة بالمئات يومياً والمكالمات التليفونية ، يقتلون معظم وقتهم متطوعين للمرابطة عند دائرة البريد يسمعون احاديث هذا وذاك في الهاتف وحواراتهم الطريفة ويوثقون بعضها في ذاكرتهم وعلى حصيلتها يعدون نشرة اخبار يومية محلية منتظرة وأحياناً تحليل اخباري يذاع مساء كل في حارته وبين اصحابه ، وعندما تشاء الصدفة وتصلهم رسالة منتفخة قليلاً لايأتي ببالهم

غير النقود فهم الحق معهم في زمن العازه . اذن جهادهم مبرر وتطلعهم لثقوب فيها وهم لايكفون عن ذلك حتى يأتي صاحب الرسالة الشرعي من بين الجماهير ملهوفاً بها ايضاً وينتزعها بقوة ولايفتحها الا في بيته ليجدها مسبحة طويلة أو مايماثلها في القيمة حيثما وجدت الجماهير وجد معهم منتفعين ، فحتى في هذه الحياة هناك من يمارس السمسرة ومتابعة حركة السوق ويحدد نقاط معينة لتحركاته وعناصر يرتبط بها وتتعامل بهدف الفائدة وهو على اتصال دائم بتقلبات الدولار مقارنة بالعملة التركية ويتاجر بالذهب خاصة من العوائل الفقيرة التي لم يعد بحوزتها سوى ملكية عروستهم الجديدة فيلجأون لها طالبين النجدة في اشتداد ضائقتهم الاقتصادية . أما تجار السوق السوداء قاتلهم الله كم هم جشعين كعهدهم لايفكرون بغير الربح ولو درهم واحد ولايسألون عن الجديد في الوضع السياسي ولا المدى الذين بلغته مباحثات الجبهة الوطنية العريضة ، مصلحتهم مرتبطة بظرف كهذا وحلمهم للمبالغ ان تتضاعف ومعارفهم يزدادون وبذلك فقط تنمو ثروتهم ويتعزز واردهم وهي معادلة على الدوام نصب أعينهم .

والعوائل الفقيرة وهي الأكثرية الساحقة فهم من أفعال هؤلاء براء ، يتعاملون بحسن النوايا ونقاء القلوب وطيبين اسرارهم واحده ، لايخفون شيئاً عن عوائلهم ولايردون طلباً لصغيراً منهم أو مريضاً يرتد في فراشه ، وتدقيقهم للصرفيات بصراحة وبمشاركة العائلة بكامل قواها ، يدارسون الشؤون المالية وأبواب الصرف مقارنة برأس المال الراكد يعطون الملاحظات في النهاية على طريقة الصرف ، صارمين ازاء التبذير المحرم وفي الحصيلة تقرأ فقرات عن النشاط المالي ، عن الوارد والصرف تستحسن وجهة تعزيز المدور تحسباً للطوارئ مع جملة معالجات يجري اقرارها عائلياً بالاكثرية او بالاجماع لتتضمنها البرامج اللاحقة وهناك بعض المواد الغذائية تفرض نفسها على المائدة الفقيرة لترفع من هيبتها وهذه المادة وحدها تجذبهم من بعيد مهما كان سعرها باهظاً ، فطابور انتظار الطرشي يمتد مئات الأمتار

وكلما اقتربوا اكثر طافت افواههم باللعاب لتستقطبهم أكثر في الاندلاع والتزاحم ، وهي الممارسة الوحيدة التي تدخل في الميزانية العامة المقررة خلل ولاتجد من يعترض على هذا الخرق ، فالطرشي يستطيع تمرير مشاريعه كما يروق له مستفيداً من درجة ضعف النفوس ازاء الرغبات المغرية . أما عملية توزيع الأرزاق فهي تجري بمقتضى التعليمات المحددة بفترة زمنية ثابتة على الأكثر ، فهي مثلاً من اللحم كيلو غرام واحد لكل ٦ نفوس ، ومن الصابون قالبين للواحد من البشر ، ومن الرز كيلو ونصف للفرد شهرياً وثلث صمونة في كل وجبة عدا العشاء فله نصف صمونة لسد الرمق وهي مقادير كافية ، وهكذا مع المواد الأخرى من العدس والبرغل والدهن والحمص والفاصوليا والبطاطه وغيرها.

أما حالة الفضول فهي واسعة ومزعجة حقاً ، ما أن تعمل شيئاً يذكر حتى قابلوك بالأسئلة كأنك تصنع قمراً صناعياً ، وان تجاهلتهم بعدم الاكتراث بهم جائتك موجه من الأسئلة لاتقبل التملص ... ماذا تعمل ؟ وهذ لماذا ؟ ومن قال لك هذا العمل صحيح ؟ وان لم يجدوا ما يستحق التعليق خزروك بنظرة كأنك من عناصر العمل السري ... ماذا قالت اذاعة لندن يوم امس عن قضيتنا ؟ وما هو مصيرنا حسب رأيك ؟ لماذا لم تحلق وجهك ؟ وكم مضى على توزيع الأرزاق ؟ ما هذا الدواء وكيفية استخدامه ؟ وهم يعرفون اغلب الأجوبة على اسئلتهم لكنهم يلاحقونك بها لغايات في نفوسهم أما حركة الزوابع فهي لاتكف ساعة واحدة خاصة عند الظهيرة عندما تكون الحرارة على اشدها حيث كل واحد يتمدد ليهدأ من صخب الحياة وغضبها وتوتر الأعصاب واذا بموجة هوائية مارقة بمقدار ما هي عنيفة كأنها مرسلة خصيصاً لهذا الخط دون غيره من مخيم ماردين المحظوظ بها ويحمل هذا التيار الهوائي بجعبته كل ما صادفه في طريقه من حشائش الأرض واتربتها ومما طالت يده . ان الشدة التي تأتي بها هذه الزوبعة لاتكف عن الخيمة رغم المقاومة الباسلة لاوتادها والأعمدة حتى تقلع بعضها وتكسر الأخرى أو ان تحدث شرخاً كما تشاء في جسد الخيمة المعذبة . حينذاك

تنسحب بسرعة فائقة حامله غنائمها الوفيرة من أواني وملابس وغيرها بعد أن تضيف لغذاء البعض شوائب لاتحصى وحتى الأطفال تكاد تجذبهم مغريات المشهد الأول على وهله لكنها لاتستفيد منهم وتطرحهم ارضاً قبل رحيلها وترفسهم بقدميها وتمضي مسرعة .

واخطر ما في الأمر وجود الطباخ الغازي الذي يتوتر تزامنا مع مرور الزوبعة كأنه رديفاً لها أو أنه بمستواها من الزخم متناسباً انه يتباين معها في القدرة على الحركة واجنحته قصيرة لاتأخذ به بعيداً عن متناول اصحابه القداما فهم يلعنونه لهذا التذبذب والغدر عند المنعطفات .

النشاط الرياضي

لقد عاشت شبيبة مخيم ماردين ظروف قاهرة ومعاناة اكثر من باقي أفراد العوائل فهم بأعمار تتطلب الحركة والتقويم والتوجيه الهادف وهم في مرحلة النمو والحماس المتدفق الطافح بالحيوية هكذا وجدوا انفسهم أمام حاجة استثمار الوقت في تنمية القابليات ولهذا تشكلت الفرق الرياضية استجابة لهذه الحاجة منذ الايام الأولى وتحددت المساحة الواسعة من الطرف الغربي للمخيم لتكون ساحة خاصة بالعاب الرياضة باشكالها المختلفة . أن هذه المساحة كانت محاطة بالأسلاك الشائكة ولعل هذا أحد العوامل أمام أن تخطو الحركة الرياضية لتأخذ مداها الطبيعي وأفقها الرحب في فترة كان اقبال الشباب واسعا على هذا المجال الوحيد لقضاء الوقت القاتل وقد بذلت جهود ايجابية من قبل الأحزاب كافة واللجنة القيادية للمخيم (الكومينه) فقد تحققت مستلزمات العاب القدم والطائرة بأعداد كافية من شبكات وملابس وكرات طائرة وتم الاعلان عن تشكيل الفرق وبدأت التدريبات صباحاً ومساءً ، ويعلن ذلك من خلال مكبرات الصوت عن أوقات المباريات ونتائجها والحالات الطارئة التي تتطلب التأجيل أو الالغاء ، اذ بدأ العمل في هذا المجال بداية منظمة واعدة وتطورت بزمن قياسي وأثمرت في خلق قابليات ووعي وسلوك رياضي جيد وتفاعل شبابي على مختلف اتجاهات تفكيرهم .

من الفرق التي وجدت منذ البداية وانتظمت يومياً تواجداً والتزاماً بقواعد العمل والتنسيق والقاءات كل من فريق ازادي (الحرية) وفريق

رينجبران (الكادحين) وفريق هلكرد (اسم جبل) وفريق أكر (النار) وفريق حلبجة وفريق متين وفريق بزوت ومهاباد ... الخ .

لقد تركز وجود رفاقنا بفريق ازادي واقترن بأسمهم باعتباره فريق الشيوعيين وتدرب فيه رفاق كثيرون واكتسبوا القابليات وتدرجوا في مواقعهم الرياضية رغم متاعب البعض منهم وكبر سن الكثيرين . لكن نشاطه كان بارزاً وفاز في المباريات النهائية التي اقيمت عصر يوم ٢٨/اذار/١٩٨٩ والتي حضرها ممثل الحكومة التركية واعضاء الكوميتة وجمهور غفير من المخيم وكل الحضور كانوا يعرفون أن أزادي هو فريق الشيوعيين وكان تشجيعهم له واسعاً ولم يكن رفاقنا فقط يعملون في أزادي انما في فرق أخرى .

والحركة الرياضية حالها مثل حال جماهيرنا تشكوا من عدم الاستقرار وتكتيكاتها متغيرة تكيفاً مع التطورات العديدة فليس هناك من لديه ضمانة في مواصلة التدريب وأحراز الانتصارات المرجوة وفريق ازادي اكثر من تبعثر مبكراً عند سفر أبرز لاعبيه صباح ٣/٤/١٩٨٩ الى سوريا ولكن التدريبات استمرت والمباريات كذلك لكنها ليس بالحماس السابق ولاتجلب اهتمام الجمهور كما كانت عليه . ولعبة الطائرة غدت هي الأكثر تطوراً وتشويقاً بين المتفرجين فهم يتابعونها كل يوم تقريباً قبيل غروب الشمس عندما تبدأ المنازلة بين فريق أ وفريق ب . ونشاطهم بمقدار قابليات هؤلاء الشباب والتزاماتهم فهي من أروع الفترات التي يقضيها الناس في المتابعة والتشجيع وكيفية تعاملهم مع كرة الطائرة وضرباتهم لها كأنها رهن اشارتهم وفريق أ خاصة يمتلك جدارة فائقة ويحضي باحترام كبير فضربة حسين رافيني (أبو علي) بمقدار ما هي سديدة وماحقه كالطلقة تخترق الفريق المقابل لتسجيل نقطة محققة ، انه يمتاز بالدقة وتحاشي التماس بالشبكة ، يردع قدميه من أن تتطاول أكثر بعيداً عن ملاحقة عينيه لها . وكذلك صباح وعبدالخالق ومجيد وبرهان وأحمد والاخرين لهم قابلية متألقة . وحمدي الصغير قياساً بهم هو الآخر يلتوي حيثما راغت الكرة يلاحقها

بيديه الرشيقة السمراء كعصى التنور يحملها على الانصياع لإرادة هادفة ، والجمهور يتابع باهتمام ويشكل ضجيجا لهذا وذاك ويربك سير المباراة وحتى الحكم نور الدين على اتصال دائم مع ملاحظات الجمهور ويبني قناعاته على معلوماتهم على أن عصرنا الآن هو الجماهيرية في اطارها الديمقراطي ولاتثيره كثيراً كلمة متحيز بل يضحك ويقول ... متحيز ؟ لأي منهم أ أم ب ؟ هناك عشرات الفرق الشبابية غير البارزة حالياً ، لكنها تشكل جيل الرياضة القادم ، فالرياضة تخلق انسانها وتقوم سلوكه والقابليات وهي ظاهرة خلقتها ظروف الحياة الجماعية وحتى الأطفال بمختلف الأعمار يفضلون لعبة القدم .أن المشاحنات وخشونة الاداء لم تكن حالات بارزة فهم امام ضوابط عديدة وكل يعرف الآخر ويحترم مشاعره ، ان عشرات الشباب ليسوا محسوبين على حزب معين وعيونهم ترنو الى الدول البعيدة للأسف كم كانت أمنيتي أن لايبتعدوا عن الوطن والنضال أكثر فأنا منحاز لهؤلاء الشباب رغم انني لاأعرف من الرياضة شيئاً يذكر .

من هنا يجري التسلل والخلاص

في الأزمات يتصلب الرفاق فتتراكم لديهم الخبرة وتتعدد الدروس الحياتية فلا يستسلمون بسهوله مادامو ينبضون بالحركة وتنشط لديهم الفطنة وتستفيق الأحاسيس والغيرة على حزبهم فهم معنيين بتخطي العثرات المعيقة كي يتواصل المشوار ، هذا هو جوهر تفكيرهم وتفكير الحزب في المواقع البعيدة عنهم ، كل يرتب موقفاً في ذهنه ويخطط لحل جزئي على طريق الخلاص التام من المصيدة .

في الأشهر الأولى لم يكن التطبيق العملي لأفكار طرية كهذه دون تلكؤ واخطاء وتردد وحسابات لاضرورة لها وضياع المبادرات والمجازفات المشروعة وان كانت بعض المحاولات بهذا المسعى قد بذلت لكنها لم تخطو قليلاً حتى احبطت وجاءت بعواقب ضارة اذ وجهت الأنظار الى نشاط كهذا قبل حدوثه .

ابتدأ الجهد نحيلاً فتطور محققاً ثمرة الخلاص الفعلي . تواجد رفاقنا في المخيم ولم تسجل أي من القرى شيئاً سلبياً يذكر في تعاملها معهم ، والحق ان الخصيلة المشتركة بين جماهيرناهناك هي احترامهم الكبير للشيوعيين وامالهم الكبيرة على مستقبل نضالهم مهما كانت اشكال واساليب هذا النضال وهذا مفخرة لهم وللرفاق على حد سواء . بعض القرى رحبت منذ البداية في احتواء انصارنا وفي المقدمة منها قريتي بافا وباطوفا سيدا فلهما الثناء والمجد اقادم . كانت امثال هذه القرى قبل الان منسية لكنها في ظروف الشدة وهذا مقياس الاصالة كانت حاضرة مبسوطة

الخاطر ، احتوت اسماء الرفاق وعوائل ذات ظروف خاصة في هذه الحياة فرصة لتبادل الأدوار ولاسبيل اخر الا مواجهة القسوة بقسوة اقوى ، أكثر عنفاً ومواكحة فهذا منطق سائد بشكل عام ، بدأ التعامل حذراً والالتزام مضاعفاً كي لاتسجل نقاط الضعف بكثرة ويحصل ما لاتحمد عقباه بافا وباطوفا سيدا هما الاكثر من غيرهما عهداً مع الثوار على الايفاء لجميل سباقتين له وفي أحلف الظروف ، ومنطقي أن يتعايش المدافعين عن قضية سامية .

كيف ننسى تلك الليلة العاصفة بالتراب والوقاحة حين غادرنا الرفاق محاولين الخلاص وتركوا نفراً لوحده يطارد مشاعر الوحشة ويبحث عن أعذار مقنعة للزوار صباحاً والفجر بداية العيد وبينما هو سارح مع نفسه واذا بالشاب الطيب من بافا نفسها وعرفناه يومياً يتابع احتياجاتنا كأننا أبناء امه أو ضيوف في بيته . جاء ملهوفاً في الثانية والنصف ليلاً يحمل حصتنا من وجبة اللحم والتي وزعوها على المخيم في وقت متأخر لم يفتعل شيئاً بل قالها من أعماق قلبه كعهده دوماً :- خذوا حصتكم كامله نريدكم حاضرين امام العيد وزواره واحراجاته فأنتم طرف هام من قريتنا نحن وأنتم عائلة واحدة . كان علينا تعزيز حصتكم فأنتم اصحاب فضل قديم .

بافا ايتها القرية الهادئة المنزوية قبل الآن في خاصرة من الخابور ذو الحركة الساحرة ، ومنه من الخابور استمدت بافا الانسيابية الدائبة والرفض والعناد ، ترفض وتقاوم وترحل حتى استقرت بعيداً عن الموت وبهذه المواقع وعبر هذا الرحيل عرفوها الرفاق وعرفتهم وتبادلوا العهد والملح والزاد . انه مجد ينشأ في زمن الملمات وما أجداها من فرص للتعارف والاختبار الى جانب المرارة و الشقاء . فياقا ابداً ستبقى اسماً محبوباً بذاكرة الرفاق كباوركي التي كادت أن تغيب عن معركة الشعب فأحياها انصارنا من الموت وما نكيش تواضعت لتكون واحدة من القرى البسيطة بعد أن كانت ناحية كالسهم في عين الفاشية ومسرحاً لتحركات الأنصار وكذا الأمر مع بنافيا وبامرني ومائي وكربت ورافينا وديرشكى

وسررو (اسماء قرى من المخيم) . أما باطوفا سيدا هذه القرية الوقورة من اسمها فقد تبركت بخلاصة فكر الكادحين ، وسمعت عن قرب شيئاً عن رسالتهم التاريخية ، هكذا أخذ بها المطاف العسير لتجد نفسها قد تلامست اولاً ثم انغمرت أكثر مع ارقى نظرية في الدنيا ، تفحصت مقولاتها فوجدتها مفردات تعنيهم قبل غيرهم .

خيم الرفاق تنتشر في أرجاء المخيم دون حواجز تفصلهم عن العوائل المزدحمة الأخرى ، ورفاقنا عادة أكثر من غيرهم يشكون من كثرة النواقص وتستهدفهم الأسئلة والملاحقة والرصد دون قصد بسوء فلابد أنهم يبحثون عن معالجة لأوضاعهم بكل الطرق والناس تخيفهم هذه الاجراءات كأنها خيوط تأمرية ، ويقيناً ان خوفهم هذا ليس بغير مكانه ، فهم يلاحظون وهم بكامل الوعي بعض التحركات المريبة ، أحدهم لايمكث طويلاً في بيته المعين فتراه كأنه (جوكر) في كل قرية تجد اسمه حاضراً واسم ابيه يتغير متأثراً بهذه المعمعة وحسب الحاجة فهنا تجده امجد محمد وبقرية اخرى هو نفسه بأسم ثلاثي آخر ولقب العشيرة تتويجاً لذلك .

وتحت مناماتهم فقط تجد سلسلة الممنوعات والوثائق المزوره وترتيبها الصيانة الأخرى التي لا يتعاطاها عامة الناس ، ومشترياتهم من السوق حافلة بالليمون الحامض والشربت الأسود (ويقصدون العرق) وليس غيرهم من هو مولع بأكلة الباجة وقراءة القواميس التي تجمع فيها مزيداً من اللغات ، تشتبك فيما بينها لتتمخض عنها لغة جديدة للتعارف وتبادل المعاني ومن تقاليد الرفاق العريقة اسلوب توزيع العمل (الخدمة الرفاقية) واداء التمارين الرياضية واحاديث السياسة وذكريات قديمة عن بلد زاروه ايام الدراسة وعناوين يحتفظون بها من هناك وربما صورة خاصة هي مبعث هذا الاهتمام . ويستأثرون بأعمال تبتغي الدقة ومعالجة امراض الساعات وتوقفات الكهرباء ويلاحقون اللغات الأجنبية العصية على الفلاحين وقلة من الجماهير يعرفون الأغاني السياسية والنشيد الأممي أو وقفة الحداد في بداية الاحتفالات الهامة .

أعداد الرفاق اخذت تتقلص كأن وباءاً غزاهم وانفرده بهم ، ومختاري القرى المساكين بدأت معاناتهم الحقيقية في ملاحقة الموجود الفعلي في قراهم ، فالأرقام في سجلاتهم لم تعد متطابقة مع شواغر امام الانظار واختفاء وجوه بارزه لاينساها أحد والاعذار متجددة مع الجديد اليومي ... ذهبوا مع المجموعة المسافرة الى سوريا أو أنهم في زيارة الى مخيم ديار بكر وقد يطول بقاءهم هناك ، أو أنهم غادروا الى ايران أو أنه مدعوا في طرف من المخيم ويعود ليلاً . وما ان يعلن عن الأسماء المعينة للسفر حتى ينصرفوا لترتيب أوضاعهم وأول الاجراءات السريعة تحررهم من نبات الوجه الذي كان يضفي عليهم هيئة يتميزون بها ، والويل لمن يعود ثانية وهو حليق الشوارب كأنه جرذ حاصرته المياه فتملص منها بصعوبة لينجو مدهوناً أملس . وعندما يعود صدفه بعد يوم يجد حاجاته قد تفرهدت واعلنت حالة الاختفاء التام لتغطية آثار الجريمة ، يتوسل بالقريبين اعادة قميصه البالي وأدوات الحلاقة وفرشة الأسنان ... الخ .

في ليالي المهمات ترصد معالم المنطقة والظروف المحيطة وتلاحظ حركة الدورية والهواء المصحوب بالأمطار ومزارع الحنطة جميعها فرص مناسبة وعوامل مساعده لتقليل المخاطر والناظور هو دائماً من عناصر هذه المهمات ، ما أن تكون كل الأشياء جاهزة حتى يتسللون قليلاً بنصف قامتهم وكل ينبطح ارضاً وتبدأ عملية التدحرج بخط مستطلع منذ النهار يمتد شريطياً على يسار مجرى مائي ضحل ، يجثم كل على الأرض كأنه يبتغي اطفاء غليلها ويهدئ من روعها ولحظات فقط حتى يتواروا عن الانظار . والحقيقة ان تحركات الكلاب كانت من الممارسات الاكثر ايذاء وخباثه من أفراد الجندرمة الفقراء وعندما يبتعدون وترصدهم بعدسات الدربين تراهم كمن يمثل اشباح تثير الضحك عباره عن كتل مجهمة سوداء منتفخة ترتفع بقوة وتلقي بنفسها على الأرض ثانية . ونقطتهم المحددة حتى الصباح هي تجويف يحمل الشارع العام على اكتافه وقبيل بزوغ الشمس تراهم في حالة انتشار على ابعاد متساوية اكياسهم رثه واثار الأرض شوهت الهيئة

التي تحركوا بها وجاءتهم البنطلونات كخطوة تراجعية ووئدت الشراويل طليقة الحركة . وبعض الرفاق عندما يتسللون يبدعون بمهمات كهذه فتراه يرفع باحدى رجليه ليوحي للقريبين انه كلب يتبختر ، يلوح بحركة ذنبه برهاوة وكبرياء . ورفيق أخر لايرى ضرورة لكل هذا التشدد ولايريد التفريط بقمصله امتصت راتبه الشهري . لكن الورطة الحقيقية لمن يبقى وحيداً في خيمته مؤثثة كأنه حارس ضعيف في ساعات حساسة من الليل وتبقى المخاطر قائمة والاصرار وحده ليس كافياً امام العقبات التي لم تكن في الحسبان وتضارب المواعيد والصدف التعيسة وبمقدار ما كانت عليه لحظات الدخول للأراضي التركية مريرة فالخروج منها ليس مكللاً بالورد ولاطريقاً سالكاً بلا عراقيل ، فما ان تقترب من الحدود حتى تجزم باستحالة تخطيها دون تواطؤ مسبق أو ضريبة تدفعها من القوة الفعلية للمفرزة ، ولاشك أن الاختيار الثاني هو المفاجأة والحاجز الجماعي فكل يعيش على اعصابه ويستذكر صفحات النضال الطويل لشعبنا الأبي. هكذا يراها المرء لحظات امتحان حقيقية لتحديد مدى البطولة المرجوة لمن نذر نفسه لقضية مصيرية ، بهذا المعنى تعامل نور الدين ثاميدي في تخطي عقبة كاداء، جسوراً لم يبخل بقطرة دم الا خضب بها الأرض لتكون وساماً مقروءاً بإسمه الخالد ...

ستزدهي الكثبان بالورد ثانية

تقاطرت في البال الاف اللقطات والخواطر والصور وكلمات تكاد لاتكف عن الحركة ، تعلن صراعها الدائم صموداً بوجه الارهاب وعفة امام الاغراء ، مدججة بالاباء والنزعات الانسانية المشرفة ، تسترشد بوجهة القوافل الأولى التي حطت يوماً في ضواحي خيمة ناوزنك المضيافة ولم ترحل منها ، ومنها من هناك امتدت تلك القوافل بعزيمة لاتوصف الى بقاع شتى ... الى بيتوش وكوستا وكوماته وورته وكرميان والكوى وكيشان ووادي الخيول في حضن متين والى مراني وقاطع بهدينان وكافيه ومقرات اخرى كثيرة ، مرتكزات متحركة ، هكذا تنمو الحياة فتنمو بجانبها صلابة الثوار وتفاؤلهم ، وهم يكتشفون المسالك في قلب الصعاب مخترقين عقدها المضنية ... كانت برامجهم حينذاك طافحة بما يقربهم من الأحداث ، خطوات تبدأ قصيرة ثم تغذ السير فتنطلق لتغطية أوسع المساحات المرسومة لها ، مغامرات لابد منها اثباتاً للبطولة ، كل يراجع ابعاد مشواره ويرسم في ذهنه مفاجئات يحلم باحلالها ، نعم يطول بعد الصورة التي تراودنا في الحلم واليقظة فتبدوا العودة للوطن يقيناً لابد منه وبشكل قوافل ايضاً متزاحمة لكنها ابهى من الهيئة التي غادرته بها ، ابداً لم يكن بكر تيلاني واهماً بأحلامه التي تثير غبضة من جالسوه وعلي كلاشنكوف هو الاخر حتى النفس الأخير

بكامل الحيوية ، وأبو على النجار موسوم بالمثابرة ، وخضر حسين موضع احترام من عرفوا طبعه وابو خلود حين رحل منا لم يكن يعرف الخوف ومام كاويس عطوف على الرفاق ودلوفان تماماً يعبد الحزب وملازم حسان هو النموذج المنتقي ونزار ناجي يوسف (أبو ليلى) عرفناه بالجراة والمبدأية ، وعلى حاجي رمز البساطة لكن شجاعته نادرة وعباس مهدي (أبو رغد) كأنه على مشارف بغداد وسيدو عزيز قطعاً اشيائه الهامة لاتغادر حمولة ظهره ودكتور عادل اه كم كان يخدم الفقراء ، وانسام عنوان العذوبة وهكذا الحال مع الكادر اللامع كاظم طوفان وأبو سمرة السباق للفداء ودلبيرين وابو كويظم ذو الطبيعة الاليفة وابن العائلة الفقيرة الطيبة وابو ايار الوفي للمبادئ في لحظات الموت ونور الدين وثائرة واحلام ومئات اخرين غيرهم لم يكونوا سوى عينات فقط من قوى الحزب الهاجمة مترامية الاطراف ... انه شوط غدا ملحمة وعاصفة اجتاحت السكون ، انقضت عليه حتى رمته جثة هامدة ، اذن ستبقى مياه النبع مبعث الحياة ورمز نقائها ، ويبقى متين يشد من أزر كاره يبقى اخدود قاهر لكنه وفي معاً ، والصباحات وحدها تفتح الذاكرة ، والضربة الخاطفة لطمه للعدو ، وستبقى كاني ماصي عروسة في هودجها الجبلي وتبقى كل الاماكن المستطلعة والمعالم المدروسة ثروة في حصادنا القادم ، ولشعبنا الكردي يبقى شموخه ، وتنكفئ خاسئة كل الهجمات المعادية ، تنحسر الكلمات مثار الرعب ، وتبقى الاجواء الغائمة هي الأنسب لتنفيذ البرامج المكرسة للمناسبات فالنجاحات لم تذهب سدى ، والوصول الى كلي الرمان محسوب الخطوات ، وحلبجة ستنهض يوماً من بين الركام ، ودموع الرفاق ان سالت ثانية ستقترن بفرحتهم ، ستبقى الصخور الصلدة ملاذنا الحصين ، وكردستان هي نفسها مسرحاً للثوار وحرام على الفاشين الطغاة ، والثورة مقولة لا تحرف مسارها كحد السيف تشتقه من الحياة وتؤطرة المبيادئ ، ولظي الحرب شبح يعني الموت المقيت ، نعم سيبقي الشعب هو الطاقة الهائلة المتجددة وتبقى الاحداث المريرة تسجيل ناطق ومصور في تلافيف الادمغة ، ونوروز يبقى مشعل وهاج في

القمم الشماء ، وقلعة دزة لن تمحى كما يحلم الدخلاء ، فمنطق التاريخ لم يقل يوماً شيئاً كهذا لم يتحدث عن شعب تخلى عن ترابه ، وخارطة العراق اعطت عهداً ان لاتفرط بذرة من حصاها ، وحتى الاسماء القديمة ستبقى تنادي بها المدن التي تعايشت معها ، ويبقى الحرامي خواف ، والغربة قاسية ، والاحلام انعكاس للواقع ، وتبقى الاشياء الثلاثة التالية : اليصاغ التركية وقبضة الجندرمة الخشنة واسنان الحديد الشائكة المكشرة مظاهر مكروهة في اعين المهجرين العراقيين ومطبوعة في بالهم ، على العكس منها تبقى العودة للوطن حلمهم الكبير والبشمه ركه كلمتهم المرغوبة المحببذة وكردستان يحلمون بها مكتسبة بالخضرة والوئام ، والحياة بأمان امل يطرب اسماعهم ، وكلي خنوكي (٢٠) مهما تزين سيبقى نقطة سوداء ومشؤومة لتكن الدروس المريرة شاخصة بين الأيدي في مواقعها الميدانية ، ان للتجربة ان تصاحب الحركة فالنجاح وليد الاصرار والبصيرة ، وتبقى السباحة مهنة اساسية ، والعناوين السابقة رغم قدمها مفيدة ، والبارود وحده مكياج الفوهات دون غيرها ومن يختار الغربة من القلب فهو بلاشك في وعكة خطيرة ، ويبقى الجبل الأبيض يفخر باسمه الصريح طاهراً تطبع العلنية ويرفض الاسم المستعار ، ومطار بامرني يحتفظ ببلاغات اقتحامه لمرات ثلاث كوثيقة براء من دنس الفاشية ، ونوجول للآن مذهولة لاتنطق بكلمة واحدة وان فاقت من غيبوبتها وتمتمت بعبارة مفهومة تجدها الشيوعيون قادمون ، والغدر يبقى في مقدمة الافعال المشينة ... سوف لن تطول المعاناة فالمسافات بلغت مداها لتنذر بالانفجار ، أن الاوان للتخندق وتجميع القرى ، ولتمتد الايدي لكل الاصدقاء دون توجس فمن القديم يورق الجديد لتزدهي به الحياة .

تأمل طفولي بين نوروزين

عبدالرحمن حسن

قضية شعبه
محور اهتمامه

أغنية وطنيـــة في حفلة نوروز

مظاهرة بوجه الوفد العراقي ١٨/٥/١٩٨٩

منتخب الپيشمەرگە للطائرة

فريق آزادي يتألق بالثياب الحمراء

ملامحهم
واحدة

ولكن

وسائلهم
مختلفة

الشهيد

نورالدين ثاميدى

حتى الرمق الاخير يحن للوطن

احدى محطات الاستراحة

حياة قاسية و تأملات جادة

اعمال يومية شاقة

مسجد

مخيم

ماردين

اطفال يحملون الارزاق

بين جلب الماء ومداراة طفلها المريض

جانب من المبادرات في تدريس الشبيبة

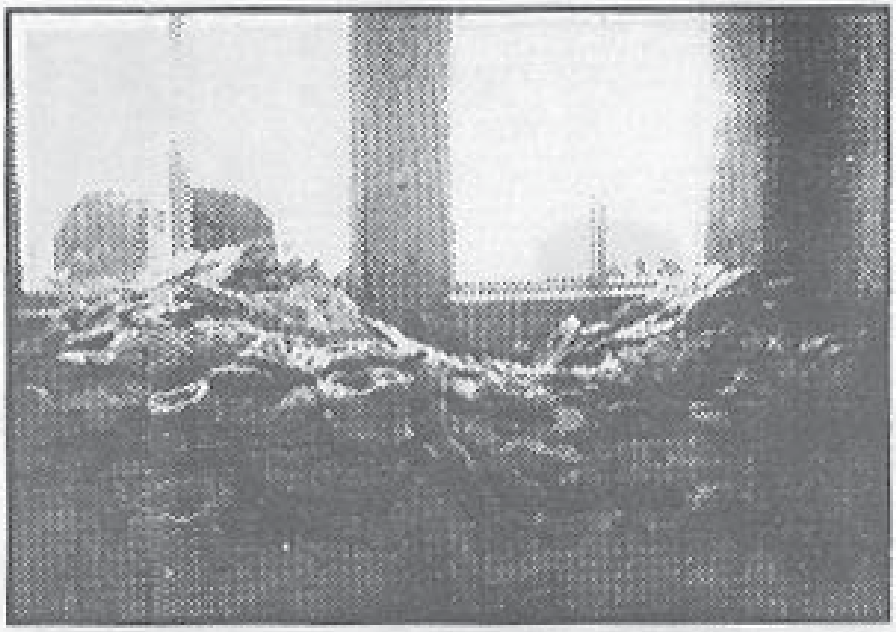

في هذا الخبز دس السم

جانب من المخيم

كأن هذه الاعمال محرمة على الرجال

حـــــزن

عـــــميق

البهجة الخاطفة

عند ســـــماع

خـــبـــر مـــوت

الطاغية صدام

جندرمة تحاصر المخيم

رشيد في حالة الاستعداد

اثناء الرحيل

صبايا يجلبن الماء دون كلل

اما لهذه الحياة من نهاية

القرى المهاجرة من بهدينان
في مخيم ماردين

أسم القرية	نفوسها	أسم القرية	نفوسها
اسهي	٦٥٠	كلكة	٢١٩
هرور	٦٥٠	بندة	٢٢٩
اوري	٥٣٤	ارزا	٢٢٧
شيلازة	٥٢٤	قلعة شيخو	٢٢٠
بامرني	٤٥٦	شريفة	١٨٨
بنافية	٤٥٨	غلبيش	١٨٨
رافينة	٤٢١	سررو	١٨٦
كركة	٤٢٠	ديرشكي	١٨٢
اوزمان	٤٠٤	دير كيجنيك	١٦٣
وارميل	٣٤٠	الكشكي برواري	١٦٧
كركهي	٣٤٢	بيشيلي	١٥٥
قمرية	٣٣٧	كاني مازن	١٦٢
كربراصكي	٣٢١	كري زيفي	١٦٢
بيدهي	٣١٩	خرابة	١٥٨
نافشكي	٣٩٣	شندوخا	١٥٣
يكمالة دوسكي	٢٨٢	زيوكا كندال	١٢٠
خانكي	٢٦٩	كوفلي	١٥١
شرتي	٢٥١	بوطيا	١٤٧
ارادن	٢٣٨	تلاكرو	١٤٣

القرى المهاجرة من بهدينان
في مخيم ماردين

أسم القرية	نفوسها	أسم القرية	نفوسها
حسن بيركا	١٤٦	نافدار	٨٥
زينافا	١٤٣	بروشكي	١٠٥
بيسفكي	١٣٤	جمسيدا	١٠٠
بابوخكي	١٣٢	كاني ساركي	١٠٨
سرافكي	١٣٤	كناصكي	٩٩
رأس العين	١٢٨	كريمة	٨٧
بروهجر	١٢٥	مماني	٨٠
عمادية	١٢٦	ماني	٢٠٩
باطوفة سيدا	١٢٤	وارزي	١٧١
رزيكي	١٢٣	دركلي	١٠٨
هيسي	١٢٢	ورمندا	١٠٥
خشخاشة	١٢٢	بليبزان	١٠٥
الكشكي دوسكي	١٢٢	كمكة	١٠٢
بازي	١٢٠	بافا	١٠٠
زفنكي	١٢٢	جراني	١١٣
ملهمباني	١١٦	بريفكا	٩١
ادينة	١١٦	تيليري	١١٦
طروانش	١١١	دهوك	٦١
كانيكا	١٠٧		

الهوامش

(١) عقدت السلطة الديكتاتورية في هذه الأيام ندوات في زاخو وسرسنك واينشكى وباطوفا أكدت فيها عزمها على إكتساح المنطقة وحذرت من العواقب التي تنتظر البيشمه ركة . ومن جانب آخر أشاعت بأن مفاوضات تجريها مع المعارضة وإنها بصدد إصدار العفو العام ومنح الديمقراطية وتحقيق الوئام المزعوم ... إلخ . وبكلا الإتجاهين تنشط لكن هدفها الحقيقي هو تنفيذ هجومها الواسع الذي كان على الأبواب .

(٢) قرية كاني بلاف ومعناها (عيون الماء منتشرة) وهي مسيحية تابعة إلى كاني ماصي أجوائها مفتوحة ومنظرها جميل جداً وعلى شارع معبد . اذ ترها وأنت في علومنها كأنها حديقة واحدة وهي كذلك يرتادها الأنصار وهي ملتقى الكثيرين بأهلهم وقضاء أجازاتهم ومركز مهم للحركة من كل القوى وفيها ذكريات ومنها تصل الأخبار عن المدن وفيها الإشاعات أيضاً وعلى طرف منها هناك الكنيسة والمقبرة حيث يرقد رفاقنا الشهداء أبوحسن (فرنسوميا) ودلوفان وسليم (خليل مانكليشكي - والشاب اليافع سالم) وفي القرية حركة تجارية وتتهدد ممتلكات المسيحيين هناك الاستباحة أحياناً.

(٣) قرية بليزان :- واحدة من قرى برواي باله مسرح الأحداث وقريبة من مقرات الأحزاب المعارضة وشهدت عشرات الآلاف من الجماهير اثناء انسحابهم الى تركيا.

(٤) بازى :- قرية في بروارى باله يسكنها الإسلام والمسيحيين على طرف منها بقع كلى بازى (وادي بازى) الذي استقبل الآلاف من الجماهير وحوصرت هناك يوم ١٩٨٨/٨/٢٩ وأبيدت مئات الأرواح الطاهرة .

(٥) كلي هسبة :- (وادي الخيول) وهناك مقر الفوج الثالث للحزب الشيوعي العراقي .

(٦) الدوسكي :- منطقة واسعة قرب دهوك وبعيدة عن مناطق العبور في بروارى باله تسكنها عشيرة بهذا الإسم .

(٧) عصر يوم ١٩٨٨/٨/٢٦ بث بيشمه ركه حزب الشعب الديمقراطي الكردستاني اشاعة أن كل نقاط العبور يسيطر عليها الجيش والعبور مستحيل وتسبب هذا في تأخير عبور الجماهير وتعرضوا للقصف في اليوم القادم في كلي بازي .

(٨) إنها تقصد بنا نحن البعيدين عن الأهل : الرفاق العرب من محافظات الجنوب والوسط والمقطوعين عن الأهل منذ عشر سنوات وأكثر نعيش في كردستان العراق وهكذا يعطفون علين لهذه الإعتبارات .

(٩) نقطة متين هي نقطة اسناد فوق جبل متين لحماية المقرات من الجانب الثاني وهي نقاط مشتركة لكل الأحزاب ولديهم السلاح الثقيل وأجهزة الإتصال أيضاً .

(١٠) برج البراجنة هي أروع غرفة من غرف المقر وأعلاها وأكثرها صيانة وهكذا عرفت بهذا الإسم المأثور .

(١١) نفس بيشمركه حزب الشعب الديمقراطي الكردستاني حذرونا هذه الليلة من محاولة العبور الذي لم يعد ممكن من أي مكان وأي محاولة للعبور تعني محاولة للانتحار . قلنا سوف نعبر أن تطلب الأمر عشرات الشهداء .

(١٢) السبندار :- أشجار مستقيمة طويلة يستفيدون منها في أمور كثيرة ويسقفون بها البيوت وهي ثروة جيدة للفلاح .

(١٣) الجرف :- حافة النهر التي تعتليها مياهه ثم تنسحب منها .

(١٤) الخانك :- قطعة خشبية مستديرة يفرشون عليها رغيف الخبز الخفيف الذي يعدونه على الصاج .

(١٥) القشورية :- من أكراد تركيا يسكنون الحدود المحاذية للعراق وأغلبهم يشتغلون بالتجارة وجشعين وفرهدوا أموال الجماهير العراقية المهاجرة .

(١٦) الكنجر :- كلمة كردية معناها الملابس المستعملة (أي أسمال) والتي تأتيهم تبرعات .

(١٧) حسن :- هو مسؤول الأمن التركي في سلوبيا والذي لايتوانى عن مضايقة الجماهير العراقية هناك .

(١٨) الدوسكي :- منطقة في بهدينان والعشائر التي تسكنها تنسب اليها أما الريكانيين فهم عشائر ايضاً عرفت بولائها للسلطة لخلافات تاريخية طبعتهم بهذا الموقف .

(٢٠) كلي خنوكي : هو وادي وقرية على الحدود العراقية التركية تجمعت فيه الجماهير العراقية المهاجرة فيب نهاية آب ١٩٨٨ هروباً من جرائم النظام العراقي وسلاحه الكيمياوي ومن هناك دخلوا تركيا .

كلمة

عزيزي القاريء

مذكراتي البسيطة هذه في طريقها للطبع، وحاولت تنقيحها من شوائبها عشرات المرات، بذلت جهدا للحد من الاسترسال في سرد الوقائع المؤلمة، مستفيداً من ملاحظات اصدقائي عن الهفوات وتلافيها، ولكن لا زال في خلدي تصوراً عن نواقص غير قليلة لم يكن بوسعي تفاديها كاملة وبالتأكيد سيطرقها القراء في حواراتهم الخاصة، ومن هذا المنطلق بالذات اعتذر كثيراً مسبقاً عن كل زلّة اينما حصلت باختصار شديد ومصارحة لائقة ان هذة المادة الماثلة كانت خلاصة تلاحم مع الاحداث ولم تزور شيئاً منها وربما عبرت الاف المشاهد الهامة بسرعة مذهلة وعلى غفلة من انظار الكاتب وبسبب تدني خبرته الصحفية وكانها ارادت خلط الاوراق وتقليل جرائم الفاشية.

لقد توخيت الدقة في كل المواقف ومع هذا تجدر الاشارة بدرجة من المسؤولية على ان الصورة كانت في غاية التعقيد والتداعي بل ملحمة مأساوية بطبيعتها والتدوين قد مسها من زوايا معينة وعديدة ومن يريد ان يراها بخلاف ذلك، ينظرها من الوجه المشوّه القاتم فله ما يشاء ولكن من عاشها في كل اشواطها مباشرة يدرك مدى مرارتها وسيبقى يحمل انطباعاً عن تفاصيلها، عن صداها وصدق وثائقها.

المولف

هذا الكتاب

لمحات ميدانية موثقة عن الاحداث الدامية والغزو الارهابي الشامل لنظام صدام الفاشي وبشاعة بطشه عندما اجتاح كردستان العراق بغازات الموت الغادرة في أواخر آب (١٩٨٨) ثم اشارات خاطفة ومتنوعة عن الحياة في مخيم ماردين، بؤسها ومكابدات الموت فيها وصولا للمدبات المتأزمة عندما يطفح الكيل ، حيث مرحلة نفاذ الصبر ، لتبدأ مراحل استنهاض المشاعر البشرية بالرفض والتمرد والاصرار على المقاومة ، وحرصا على ابقاء شذرات من البسالة واشراقة من الامل الثوري كوشائج للتواصل المتلاحم مع الوطن المخضب بدمائه وقلب يهفو الى هناك ، فحقا ما قاله النواب يوما:

لا اظن ارضا رويت بالدم والشمس
كأرض بلادي
ولا اظن حزنا كحزن الناس فيها
لكنها بلادي

لا اضحك من القلب
ولا ابكي من القلب
ولا اموت من القلب
الا فيها

رقم الايداع ﴿١٦٢﴾ مطبعة كلية الشريعة - دهوك